دكتور عبد الودود شلبى



الأصول الفكرية لحركة

المهدى السودانى

ودعوته

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

MAHDI OF THE SUDAN

IDEOLOGICAL PRINCIPLES UNDERLYING His mission and movement

By : Dr. Abdul Wadoud Shalaby

دكتور عبد الودود شلبي

الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - ت : ٣٩٠٠٨٦٨



محمد أحمد عبد الله المهدي السوداني

مقدمة الطبعة الثانية

محمد أحمد عبد الله!

هذا هو الاسم العائلي لمهدي السودان، غير أن الرجل تجاوز بجهاده وعبقريته حدود العائلة والوطن إلى أقطار العالم الإسلامي شرقًا وغربًا.. فلم يكن يتصور أحد من رجال السياسة أو من رجال الحرب أن يهزم بريطانيا، وأن ينتصر على أشهر قادتها الذي كان يُعرف باسم القائد الذي لم يهزم أبداً...!

لقد بدأت الثورة التي قادها «المهدي» في أعقاب الثورة «العرابية»، وكانت الأسباب التي دفعت «أحمد عرابي» إلى الثورة في مصر، هي الأسباب نفسها التي دفعت «المهدي» إلى الثورة في السودان؛ فلم يكن غريبًا أن يتحالف - مَن بقي - من جنود الثورة العرابية في مصر مع جنود الثورة المهدية في السودان، وقد كان الشيخ «أحمد العوام» المصري الأزهري أنصع دليل على هذا الالتحام والتقارب. فبعد هزيمة «عرابي» نُفي الكثير من رجاله إلى السودان كان من بين هؤلاء المنفيين الشيخ «العوام» الذي خطط لتفجير مخزن الذخيرة في الخرطوم، وكان من نتيجة هذا التخطيط وهذا التدبير أنْ أمر الجنرال الإنجليزي «جوردون» بإعدامه علنًا في مدينة الخرطوم..

لقد كان «مهدي السودان» زعيمًا عبقريًا بكل المقاييس؛ فلم ينخدع بكل الوعود التي حاولت بريطانيا إغراءه بها. لقد رفض أن يكون سلطانًا أو ملكًا، وكان يرى في حياة الزهد قمة السعادة والرضا، وحين حاول «جوردون» مساومته بإطلاق سراح الأسرى من أهل بيته وأقاربه، رفض هذه المساومة وقال: «إننا في حاجة إلى واحد من هؤلاء الذين رفضوا

الجهاد معنا وآثروا الحياة مع الذل على الحياة مع العزة والجهاد.. ومن يرضى بالحياة مع الذل.. عليه أن يصبر على عض الكلاب».

لقد كان «مهدى السودان» أبعد نظراً من معظم حكام السودان الذين تولوا إدارته سواء قبل الاستقلال أو بعد الاستقلال..! فقد رفض أن يصبح السودانُ سرتعًا للبعثات التبشيرية؛ التي جاء بها «غوردون».. فقد كان «غوردون» مسيحيًا متعصبًا، وكان يهدف من أول يوم تولّى فيه الحكم في الخرطوم أن يفصل جنوب السودان عن شماله، وكانت هذه المحاولة من جانب «غوردون» من أهم الأسباب لقيامه بالثورة؟!

وقد كان سقوط الخرطوم ومصرع «جوردون» على أيدى جنود المهدى وأنصاره حدثا ارتجت له جنبات أوروبا.. وقد بكت الملكة «فيكتوريا» بعد سماعها هذا الخبر، ودقت أجراس كنيسة «كانتربرى» حزنا على وفاة شهيد المسيحية البطل! والسودان المعاصر لايزال في حاجة إلى مثل هذا الزعيم وهذا الرجل!!

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن «دار المعارف» غير أن الحاجة إلى إعادة طبعه لا تزال قائمة، كما أن الحاجة إلى دراسة سيرة هذا البطل وحياته لا تزال ضرورة وواجبة.

وفى دار «مكتبة الآداب» - إحدى دور النشر العريقة والمحترمة - تجدد طبعه؛ بغية إطلاع الأجيال الجديدة على إحدى الصور المشرقة لزعيم عربى إسلامى مجهول.

والله من وراء القصد

وله الحمد والشكر من قبل ومن بعد

دكتور عبدالودود شلبى

رجب الفرد ١٤٢٢هـ

سبتمبر ٢٠٠١م

مقدمة

السودان

كلمة امتزجت بها عواطفى منذ كنت حدثاً صغيراً فى «كتاب القرية» . . كل ما كنت أعرفه عن السودان لم يكن يتجاوز تلك الحكايات والقصص التى كان يحلو للحاج «على» الجاويش القديم فى حملة كتشنر - تكرارها فى كل ليلة ، وإلهاب مشاعر الناس ببطولته فى هذه الحملة . .

ومنذ التحاق بالأزهر الشريف سنة ألف وتسعمائة وإحدى وأربعين بدأت عيناى تتفتح على كثير من حقائق العصر ، وتطورت معرفتى بالتاريخ بعيداً عن حكايات الجاويش وأساطيره المفعمة بالحماسة والفخر .

ولقد وقع فى يدى كتاب اشتريته من أحد الوراقين بطريق المصادفة . . كان هذا الكتاب عن السودان ومن خلال تصفحه وقعت عيناى على صفحة تقول : «إن محمد الدفتردار أحد عمال محمد على فى حكم السودان كان يخرج لاصطياد الآدميين على عادة غلاة القراصنة والاستعماريين فى ذلك العهد» .

كانت مصر فى هذه الفترة محكومة بآخر ملك من ملوك هذه الأسرة التى أفرزت الكثير من الطغاة والجبابرة ، وكانت الحرب العالمية الثانية فرصة لتحرير الشعوب من قبضة الاستعمار والظلم ، وبخاصة بعد إعلان ميثاق الأطلنطى الذى وقعه «تشرشل» و «روزفلت» و «ستالين» و «تشانج كاى شيك» .

كانت مصر فى مقدمة الشعوب الثائرة على العبودية . وكانت الأمانى القومية عند المصريين منحصرة فى مطلبين أساسيين هما : السودان . والحرية .

والمظاهرات التى يقودها طلبة الأزهر كانت تجتاح شوارع القاهرة وهى تهتف قائلة :

مصر والسودان لنا . . ولندن إن أمكنا ! ! ! !

لكن ماذا كان يفهم حكام مصر عن السودان فى ذلك الوقت . . حتى يطالبوا بضمه ؟ ثم ماذا كانت الحجة التى يعتمد عليها خلفاء محمد على فى الاستئثار بالسودان واحتوائه ؟

إنه حق « الفتح » وحق « الغزو » . . هكذا كان يقول بعض الحكام فى خطبهم وبياناتهم إلى الشعب .

وأذكر بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية وكانت هناك مفاوضات جارية بين مصر وبريطانيا حول هذه القضية أن « إسماعيل صدقى باشا » رئيس وزراء مصر فى هذا الوقت - رجع من لندن بعد أن أجرى محادثات مع المستر : بيفن - وزير خارجية العمال بعد الحرب ، وكان أول ما صرح به بعد وصوله إلى القاهرة : « لقد أتيت بالسودان فى الجيب » .

السودان . . الذى تعادل مساحته مساحة ثمانى دول أوربية . . وتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين من حدوده ما يقرب من الأربعمائة والألف ميل طولا . . وما يقرب من المائتين والألف من الأميال عرضاً ، استحال بقدرة خارقة إلى بيضة وضعها رئيس الوزراء فى جيبه .

لو كنت سودانيًّا لرفضت هذا المنطق . إن الأخوة بين الشعبين : السودانى والمصرى . . أوثق من هذا الدجل والسفسطة . والعلاقة بين مصر - فى شمال الوادى وبين السودان فى جنوبه - أعمق من هذا التهريج والمتاجرة .

لقد زار وفد إسلامى من القاهرة العاصمة السودانية . . والتقى هناك بالسيد عبد الرحمن المهدى . زعيم حزب الأمة . ودار حوار بين هذا الوفد والزعيم السودانى حول الوحدة بين مصر والسودان بعد حصولها على الاستقلال والحرية ،

وقد تكلم السيد المهدى معلقاً على هذه الفكرة : « إن الوحدة بين السودان ومصر وحدة أبدية ، لأنها وحدة قائمة على العقيدة التى لا تقوم بدونها أخوة ولا وحدة ونحن على استعداد لإعلان هذه الوحدة منذ هذه اللحظة » .

أما وحدة « الفتح » أو « الغزو » أو « الدفتردار » وأمثاله من حكام مصر ، فهى وحدة لا تكون إلا بين القاتل والضحية ، أو الاستبداد والحرية .

• • •

إن السيوف لا تزرع المحبة ، والحروب لا تمنح حقاً للغزاة والقتلة ، لقد احتلت فرنسا الجزائر المسلمة مائة وثلاثين سنة ، وكان الفرنسيون يعدون الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا ، كما كان فى الجمعية الوطنية بباريس نواب يمثلون الجزائر فى هذه الجمعية . . فأين هى فرنسا اليوم من الجزائر ؟ لقد قدم الجزائريون ألف ألف شهيد للقضاء على هذا الحلم الخاير .

ثم شاء الله سبحانه أن تطوى هذه الصفحات من التاريخ كله ، وأن يتحرر وادى النيل شماله وجنوبه . وأن يدرك الشعبان فى السودان ومصر أن أخوتهما فوق كل شائبة ، وأن الوحدة فيما بينهما تجسيد حى لهذه الأخوة . . وضمان أكيد للاستقلال والحرية .

• • •

وبعد تخرجى فى الأزهر بسنوات قليلة . . ثم عملى مفتشاً للشئون الثقافية بوزارة الأوقاف المصرية . رأت هذه الوزارة إيفادى على رأس بعثة إلى شرق أفريقيا زرنا خلالها : تنجانيقا[1] وكينيا . وقضينا بضعة أيام فى السودان فى أثناء ذهابنا وعودتنا . وكان لهذه الرحلة ، وما تركته فى نفسى من مشاعر جياشة ، وما تفضل به الإخوان – عروس عبد الوهاب – مدير إذاعة أفريقيا فى هيئة الإذاعة المصرية والمرحوم الأخ – عبد الرحمن صالح – مراقب الشئون الثقافية فى إذاعة السودان

(١) كانت هذه الزيارة سنة ١٩٦٢ قبل أن يتم الاتحاد بين تنجانيقا وزنجبار .

بالقاهرة من دعونى للعمل معها فى كتابة برامج للإذاعة كان لكل ذلك أثره فى اهتمامى بالشئون الأفريقية . ودراسة أحوال هذه القارة التى نفضت عن نفسها غبار الذل والعبودية .

لقد بدأت أتعرف على الكثير من شئون هذه القارة من خلال البرامج التى كنت أكتبها . والرسائل التى كنت أرد عليها . وقد دفعنى هذا إلى مزيد من القراءة وكثير من البحث والدراسة . وتولد فى نفسى يقين بأن مستقبل الإسلام فى هذه القارة رهين بجهود المخلصين من أبنائها . وإدراك المسئولين لأهمية هذا الدور الذى يمكن أن يقوم به الإسلام فى حاضرها ومستقبلها .

• • •

لم أكن أفكر فى كتابة بحث عن المهدى السودانى وحركته . كان فكرى متجهاً إلى لندن وكمبردج (Cambridge) كنت حريصاً على تسجيل اسمى فى جامعة من جامعات الغرب . وقد سافرت من أجل ذلك إلى بريطانيا ثلاث مرات . وحصلت على صورة من مخطوطة : « الأسماء المبهمة فى القرآن الكريم » لعبد الرحمن السهيلى الأندلسى . وكلفت أخاً مسلماً يعمل فى المتحف البريطانى بالحصول على صور أخرى من هذه المخطوطة من ليدن وأكسفورد . ثم شاء الله أن يصرف نظرى عن هذه المخطوطة وأن أسافر إلى لندن مرة ثانية فى محاولة جديدة . واستقر رأيى بعد ذلك على تحقيق مخطوطة أخرى عن الحروب الصليبية . وذهبت ومعى الأخ الدكتور عبد الجليل شلبى - إمام المركز الإسلامى[٢] إلى جامعة لندن للتفاهم مع أحد أساتذتها المسلمين حول العمل فى هذه المخطوطة لقد ابتسم الإنجليزى المسلم ونحن نعرض عليه هذه الفكرة . وحين سألناه عن السبب فى هذه الابتسامة . . لاذ بالصمت الذى يغنى عن كل إشارة ؟ ! !

• • •

(٢) الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (حاليا)

يحدث في هذا الكون أشياء عجيبة لا يمكن تحليلها على ضوء النظريات العلمية أو المقاييس المادية . هناك أمور تحدث لا يمكن تفسيرها من قبيل الصدفة التي لا تعني شيئاً في الواقع والحقيقة ؟ غير أنها في الواقع والحقيقة أشبه شيء بإلهام من عالم الغيب . وهاتف من هواتف الحق الذي يسيطر على الشعور والقلب . وسواء أخضع هذا لمنطق الطبيعيين أو لم يخضع . فإن أثره يبقى قوياً لا يهن ولا يتزعزع .

لقد رجعت بعد هذه المقابلة مع الأستاذ الإنجليزي إلى منزل الأخ الدكتور عبد الجليل Regent's Park فوجدنا في انتظارنا أخاً سودانيًّا من أسرة المهدي كان وزيراً سابقاً للداخلية في السودان . وكان يحمل مخطوطة في يده لشيخ اسمه الشيخ أحمد العوام . كان هذا الشيخ أزهريًّا من رجال الثورة العرابية . وقد نفي إلى السودان بعد فشل هذه الثورة في القاهرة . ثم حكم عليه غوردون بالإعدام بعد محاولته إحراق مخزن الذخيرة . ودعوة الناس إلى المهدي والوقوف من ورائه بقوة .

وفي اليوم نفسه شاهدت فيلماً سينمائيًّا عن حياة ونستون تشرشل ، كان اسم هذا الفيلم (Young Winston) وكانت أحداث هذا الفيلم تدور حول مغامرات تشرشل عندما كان مراسلاً حربيًّا مع الجيش البريطاني في حرب الترنسفال بجنوب أفريقيا ، وفي معركة أم درمان أيام الخليفة التعايشي .

وفي يوم ثالث ألمح صديقاً سودانيًّا ممسكاً بكتاب اسمه : (Fire and Sword in the Sudan) وأسأله مستفسراً عن موضوعه فحدثني عن المهدي وثورة السودان .

لقد تتابعت الصور بسرعة . وانفعلت نفسي بمشاعر مختلفة ، ووجدتني أصبح وأمسي في ظلال هذه الأحاسيس الجياشة . ثم عدت إلى مقر عملي لأجد في انتظاري هذه المفاجأة .

لقد وجدت أخوين عزيزين * يتحدثان عن حصولهما على نسخة مصورة من

* الأستاذان عبد الواحد الإصابي والمرحوم عبد الرحمن صالح .

إن فى هذا الكون أشياء عجيبة لا يمكن تعليلها على ضوء الظواهر الطبيعية أو المقاييس المادية . هناك أمور تقع لإنسان يحسبها من قبيل المصادفة التى لا تعنى شيئاً فى الواقع والحقيقة ؟ غير أنها فى الواقع والحقيقة أشبه شىء بنداء من قبل الغيب . وهاتف من هواتف الحق الذى يسيطر على الشعور والقلب . وسواء أخضع هذا المنطق الطبيعيين أو لم يخضع . فإن أثره يبقى قوياً لا يهن ولا يتزعزع .

لقد رجعت بعد هذه المقابلة مع الأستاذ الإنجليزى إلى منزل الأخ الدكتور عبد الجليل Regent's Park فوجدنا فى انتظارنا أخا سودانيًّا من أسرة المهدى كان وزيراً سابقاً للداخلية فى السودان . وكان يحمل مخطوطة فى يده لشيخ اسمه الشيخ أحمد العوام . كان هذا الشيخ أزهريًّا من رجال الثورة العرابية . وقد نفى إلى السودان بعد فشل هذه الثورة فى القاهرة . ثم حكم عليه غوردون بالإعدام بعد محاولته إحراق مخزن الذخيرة . ودعوة الناس إلى المهدى والوقوف من ورائه بقوة .

وفى اليوم نفسه شاهدت فيلماً سينمائيًّا عن حياة ونستون تشرشل . كان اسم هذا الفيلم (Young Winston) وكانت أحداث هذا الفيلم تدور حول مغامرات تشرشل عندما كان مراسلاً حربيًّا مع الجيش البريطانى فى حرب الترنسفال بجنوب أفريقيا ، وفى معركة أم درمان أيام الخليفة التعايشى .

وفى يوم ثالث ألمح صديقاً سودانيًّا ممسكاً بكتاب اسمه : (Fire and Sword in the Sudan) وأسأله مستفسراً عن موضوعه فحدثنى عن المهدى وثورة السودان .

لقد تتابعت الصور بسرعة . وانفعلت نفسى بمشاعر مختلفة . ووجدتنى أصبح وأمسى فى ظلال هذه الأحاسيس الجياشة . ثم عدت إلى مقر عملى لأجد فى انتظارى هذه المفاجأة .

لقد وجدت أخوين عزيزين* يتحدثان عن حصولها على نسخة مصورة من

---

* الأستاذان عبد الواحد الإبيانى والمرحوم عبد الرحمن صالح .

منشورات المهدية . فطلبت على الفور إعطائى هذه النسخة . واستعدادى لشرائها بأية قيمة وأيقنت منذ هذه اللحظة أن القدر يخطط لى من حيث لا أشعر . وأن تلك المشاهدات والصور لم تكن إلا بتخطيط مقدر وأننى على موعد مع « المهدى السودانى » بعد فترة طويلة من الانتظار والتحير !

* * *

لقد حصلت على النسخة . وكانت نسخة من أجزاء أربعة :

الجزء الأول منها : يشتمل على واحد وثمانين موضوعاً ويقع فى مائتين وتسعين صفحة .

والجزء الثانى منها : يقع فى ثلثمائة وست عشرة صفحة ، ويشتمل على مائة وعشرة إنذارات ورسالة .

أما الجزء الثالث منها : فيقع فى مائتين وتسع وخمسين صفحة ، ويشتمل على مجموعة من الأحكام والفتاوى .

وفى الجزء الرابع من هذه المجموعة تسع خطب متنوعة : ألقاها المهدى فى مناسبات مختلفة . ويقع هذا الجزء – وهو أصغرها – فى ست وخمسين صفحة .

لقد ظهر المهدى أمامى واضحاً فى رأيه وفكره . . وكانت هذه البيانات والرسائل مفتاحاً إلى عقله وقلبه . فاتجه نظرى على الفور إلى البحث وإلى إمعان النظر فيما تركه وراءه من تراث وفكر .

* * *

كان من الضرورى أولا مراجعة : « منشورات المهدية » كما كتبت وصورت فى الأصل ، ثم اختيار ما صلح منها طبقاً للخطة التى سار عليها البحث .

لقد تضمن الجزء الأول منها تلك المنشورات التى تعالج الأسس الرئيسية التى تقوم عليها حركة المهدى كالدعوة واتجاهاتها العامة ، وغيرها من الأمور الأساسية فى الدعوة .

أما الجزء الثانى . . فيتضمن الوثائق الموجهة إلى أفراد وجماعات صغيرة . .

وموضوع هذا الجزء هو للمسائل الفرعية المتصلة بفئات معينة ، وبخاصة المعارضين للمهدية والمناوئين لها ، وقد أطلق على هذا الجزء لفظ الإنذارات واشتهر به لهذا السبب .

أما الجزء الثالث . . فيعرف بكتاب الأحكام والآداب ، ويتضمن المنشورات التى تعالج بعض القضايا الدينية المختلفة . سواء منها ما يتعلق بالأسرة بصفة خاصة أو يتصل بالمجتمع بصورة عامة .

أما الجزء الرابع . . من هذه المجموعة فيقع فى ستة وخمسين صفحة ويشتمل على تسع خطب ألقاها المهدى فى المناسبات المختلفة كما قدمنا .

وقد لوحظ فى كتابة هذه المنشورات مخالفة بعض كلماتها للأصول الإملائية المعروفة كما أن فى بعضها كثيراً من الأغاليط اللغوية ، وتصعب قراءتها بسهولة ، وقد رجعت فى تحقيق ذلك إلى كتاب « منشورات المهدية » الذى حققه الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم[٣] ، وإلى كتاب : « جغرافية وتاريخ السودان » لنعوم شقير . إلا أنهما لم يعالجا هذه الأخطاء فيما نقلاه من منشورات المهدية ، وبقيت هذه الأخطاء والأغاليط كما كانت فى صورتها الأصلية ، وقد صححت ذلك فيما اخترته من هذه المنشورات والبيانات ووضعت الكلمة المصححة بين قوسين هكذا (. . .) بعد نقل أصلها إلى الهامش على النحو الذى كتبت به فى المنشورات .

وبنظرة متأنية إلى الموضوعات التى اشتملت عليها الأجزاء الثلاثة الأولى من هذه المجموعة يمكن تحديد العناصر الرئيسية التى يقوم عليها هذا البحث عن « المهدية السودانية » .

فالجزء الأول منها يتناول الموضوع الرئيسى فى هذه القضية وهو « المهدية » .
والجزء الثانى منها يتناول الإنذارات والبيانات التى وجهت إلى أعدائه ومخالفيه

---

(٣) الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم من الباحثين الذين أثروا المكتبة العربية بالعديد من الكتب والأبحاث فى تاريخ المهدية السودانية . وكانت كتاباته فى هذا الموضوع من أهم المراجع التى اعتمدت عليها فى هذا البحث

فى هذه القضية . والتى تتميز عن القسم الأول بالعنف والقوة . . أى بالجهاد والثورة .

والجزء الثالث منها خاص بالأحكام والفتاوى التى صدرت عن المهدى فى مختلف الشئون العامة والخاصة . والتى خالف بها المهدى علماء عصره فيما جرت به العادة من الفتوى تبعاً للمذاهب الفقهية المعروفة أى الاجتهاد والسلفية[4] .

ولنبدأ بالموضوع الرئيسى منها وهو : (المهدية) .

لقد لعبت عدة أمور دورها فى هذه القضية الرئيسية : فإذا كانت المهدية كفكرة تعد دينية بالدرجة الأولى . فإنه لا يمكن إغفال العوامل السياسية والاجتماعية التى ساعدت على إبراز هذه الفكرة . وعلى تجسيدها – فى الواقع – دعوة وحركة .

لقد نشأ المهدى السودانى صوفيًا . وكانت الصوفية هى المنبع الرئيسى الذى اغترف منه أصول هذه الحركة . وكان شيوخ الطرق – فى هذا الوقت – هم المرجع الوحيد للشعب فى قضاياه المختلفة . ولما كانت « المهدية » تمثل أملاً بالخلاص من الظلم الذى تتعرض له الجماعات فى عصورها المختلفة . . فقد كان الشعب السودانى يتطلع إلى هذا « المهدى » الذى يخلصه من المظالم التى أناخت على كاهله بشدة والتى جعلت من الحكام وحوشاً مفترسة . فالضرائب باهظة . . والرشوة متفشية . والدماء مهدرة . . والأعراض مستباحة . . والعدالة مفقودة . . وفى مثل هذا الجو يشطح الخيال . . ويستبد الأمل بالناس . فيتمنون الخلاص بأية طريقة وينتظرون طلوع الفجر من أية ناحية . وقد لعبت الطرق الصوفية دورها فى هذه المحنة . وهيأت أذهان الناس لقدوم « البطل » الذى سيقضى على « التنين » بضربة واحدة .

وقد كان لابن عربى وكتبه دور كبير فى هذه الناحية . فقد تكلم عن المهدى كثيراً فى الفتوحات المكية وغيرها من كتبه . وكانت أقواله وكتاباته متداولة فى السودان بكثرة . وقد أخذ عنه مهدى السودان كثيراً . . وسار على المنوال الذى

---

(٤) انظر فى هذا الموضوع الحركة الفكرية فى المهدية للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم .

اختطه وكانت مهديته تجسيداً للمعنى الذى أشار إليه ابن عربى فى كتبه ومؤلفاته .

إلا أننا نجد بجوار ذلك عوامل أخرى ساعدت على إذكاء روح هذه الحركة ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة .

لقد كان الجو العام فى أفريقيا مشحوناً بهذه الظاهرة . . وكانت هناك حركات شبيهة بهذه الحركة . وقد سمع السودانيون كغيرهم من المسلمين الأفارقة عن قرب ظهور « المهدى » الذى يصلح الله به أمر الأمة ، ويعيد للإسلام القوة والمجد والعزة وقد بشرت حركة : عثمان بن فودى بقرب ظهور المهدى المنتظر بالمشرق ، وكتب أصحابه مؤلفات كثيرة فى موضوعه وقد ذكر « محمد بللو » فى كتابه « إنفاق الميسور » أن والده عثمان قد أخبره عن قرب ظهور المهدى وأن أتباع الشيخ عثمان هم أبكار أتباع المهدى ، وأن الجهاد « الفولانى » لن يخمد أواره حتى يظهر المهدى .

وقد كان للوضع الجغرافى الذى يتمتع به السودان دور كبير فى تأثره بجميع التيارات التى تهب على القارة الأفريقية ، ونادراً ما يقع شىء فى هذه القارة ثم لا ينعكس صداه فى السودان بحكم هذه العوامل الجغرافية .

ولما كان ابن عربى عالماً متبحراً فى شئون الشيعة ، فقد نقل آراءهم عن « المهدى » المنتظر إلى التصوف بعد صبغها بصبغة صوفية ، وقد وجدت هذه الآراء فى عقول المتصوفة أرضاً خصبة ، وأثرت كثيراً فى اتجاهاتهم الفكرية . فلم يكن غريباً أن يأخذ « مهدى السودان » بهذه الآراء لتأكيد مهديته واعتبار المخالفين له كفاراً لرفضهم . . الدخول فى طاعته .

لقد تأثر « المهدى السودانى » بهذا كله ، وتركت هذه العوامل أثرها فى رأيه وفكره ، وقد حققنا ذلك فى أصوله ، وقارنا بين ما كتب فى هذه الأصول وبين ما يقوله .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الوجه الآخر من هذه الحركة وهو « الجهاد والثورة » فثمت عوامل كثيرة ساعدت على اتخاذ هذه الخطوة وعلى إعلان العصيان والتمرد

على السلطة .

إن محمد أحمد عبد الله أو « المهدى السودانى » لم يكن يفكر بأن يكون مهديًا . . لقد بدأ حياته واعظاً ومرشدًا ثم دفعته الظروف والأحداث بعد ذلك ليكون هو « المهدى المنتظر » . . حقًا . . !

وكما يقول « بسمارك » الإمبراطور الألمانى :

« إن الناس يبالغون كثيراً فى تأثيرى على الأحداث التى عرفت فقط كيف أستغلها » .

وهكذا كان المهدى . . لقد لعبت عدة عوامل فى إعلانه الجهاد والثورة واتخاذ حركته هذه الصورة العنيفة القوية .

هناك أولاً : عامل « المهدية » الذى خلع على زعامته نوعاً من القداسة وجعل الناس يتسابقون للقائه والدخول فى طاعته .

ثانياً : الظروف السياسية والاجتماعية فى العالم الإسلامى .

لقد نشأ « المهدى السودانى » فى هذا العصر الذى سقط فيه العالم الإسلامى فريسة فى يد الغزو الاستعمارى الصليبى . وقد كان لهذا الغزو وما اتسم به من تعصب وكراهية وحقد . رد فعل عنيف وثورة وسخط . وقد قاد حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك الوقت زعماء مخلصون كرسوا حياتهم وجهودهم لإنقاذ العالم الإسلامى مما تعرض له من دمار وحقد . وكان من أهم هذه الحركات التى قادت حركة الإصلاح والجهاد . حركة محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز ونجد ، وحركة السنوسى فى ليبيا على حدود السودان الشمالية من جهة الغرب . وحركة جمال الدين الأفغانى ومدرسته فى مصر ، وكان السودان على صلة وثيقة بهذه الحركات بحكم الجوار والقرب . فلم يكن غريباً أن تجد هذه الحركات طريقها إلى السودان مفتوحاً وأن تصادف فى عقول الناس رضاً وقبولاً . وأن تلعب دورها فى الحركة المهدية ، التى استفادت منها جميعاً .

ثالثاً - الحركة العرابية في مصر :

وإذا كان « للمهدية » هذا الدور الكبير في قيادة الحركة ، وكان للحركات الإسلامية المعاصرة أثرها في إشعال نيران الثورة ، فإننا نقرر بعد هذه الدراسة أن الثورة العرابية في مصر كانت هي العامل الرئيسي الذي أدى إلى إشعال الثورة وإلى تمرد المهدي على الحكومة والسلطة وذلك لما يأتي :

(ا) أن الثورة المهدية قامت بعد أشهر قليلة من الثورة العرابية .

(ب) أن الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة العرابية . هي نفس الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية .

(جـ) أن نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب المصري . هو نفسه نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب السوداني .

(د) أن الفتوى التي أصدرها علماء الأزهر بمروق الخديو عن الدين الإسلامي بسبب خيانته وانحيازه إلى الجيش البريطاني - قدمت إلى « المهدي » أكبر حجة لتسوغ ثورته ضد ممثلي هذا الحاكم ونوابه في القطر السوداني .

(هـ) أن الجيش المصري - الذي كان مفروضاً أن يقضي على حركة المهدي - كان مشغولاً في القاهرة بحربه ضد الإنجليز والخديو ، فلما أخفقت الثورة العرابية . وسيطر الإنجليز على مقاليد الحكم في القاهرة أرسل الخديو فرقاً من الجيش بقيادة الإنجليز - لإخماد الحركة المهدية ، فكان الضباط والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم وعتادهم إلى صفوف المهدي ، وكانوا يقولون إنهم لم يرسلونا إلى السودان إلا لقتلنا بسبب أننا من جنود عرابي .

لقد كان الميدان خالياً أمام المهدي . . فمضى في طريقه إلى الجهاد والثورة والتحدي . .

وقد نشأ المهدي السوداني صوفيًّا كما قدمنا . . فكيف أقدم بعد ذلك على إلغاء

الطرق الصوفية . واتخذ منهجاً واضحاً فى الالتزام بالكتاب والسنة .

لقد عالجنا هذه القضية فى فصل مستقل ، من هذه الدراسة ، وقد تبين لنا أن المهدى بالرغم من نشأته الصوفية فإنه كان سلفى العقيدة والنزعة . وقد ظهر ذلك مبكراً فى خلافه مع شيخه ، بسبب اعتراضه على ما رآه فى بيته .

لقد انتظم « محمد أحمد » فى سلك الصوفية لأنه لم يكن هناك غيرها مكان للتعليم والدراسة ، لكنه كان فى الوقت نفسه حرًّا فى القراءة والمطالعة ، وحين حانت الفرصة التى يعبر فيها عن رأيه لم يبال بأى قرار يتخذه . . لقد نهى عن التوسل والتمسح بالأضرحة ، واعتبر اللجوء إلى غير الله والحلف به شركاً فى العبودية ، وألغى المذاهب والطرق الصوفية ، واعتبرها مصدر تمزق وفرقة ، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة واعتبرهما المصدر الوحيد فى العقيدة والشريعة . وقد كان « المهدى » فى كل ذلك تلميذاً لابن تيمية ودعا إلى ما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية ، الأمر الذى يؤكد اتصال المهدى بهذه الحركة إما عن طريق الدراسة أو العلاقات الشخصية بينه وبين تلاميذ هذه الحركة .

لقد كان العصر الذى وجد فيه المهدى عصر جهاد وثورة ، فثار وجاهد وكان عصر دعوة إصلاح . . فدعا إلى الخير وأصلح بقدر ما استطاع ، وكان فى دعوته وحركته نبضة من نبضات الإسلام فى أيام المحن والكفاح . .

دكتور : عبد الودود شلبى

القاهرة : ١٣٩٨ هـ
١٩٧٨ م

الفصل الأول

المهدى السودانى نشأته وثقافته

هو «أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن فحل بن عبد المولى بن عبد الله بن حاج شريف بن على بن حسب النبى بن صبير بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أبى العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكرى بن علوان بن عبد الباقى بن فخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

هذا من جهة أبيه.

أما من جهة أمه فهو ابن :

زينب بنت نصر.. فتنتهى السلسلة - كما يقولون إلى العباس ابن عبد المطلب»[1].

وقد هاجرت أسرة المهدى من الجزيرة العربية فيمن هاجر من العلويين فراراً من المظالم والآلام التى كان يصبها على رءوسهم الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى عهد ابنه الوليد. وقد اتخذت هذه الأسرة وادى النيل مهاجراً لها. فأقامت فى الفسطاط ما طابت لها الإقامة. وبها مات أحد

(١) فى كتاب الإسلام فى القرن العشرين للأستاذ عباس العقاد : أن اسم أمه (آمنة) لا زينب - انظر ص ١٤٠ الطبعة الأولى - القاهرة.

رجالها المعروفين - نجم الدين بن عثمان ودفن عند « باب الوزير »[2] وله هناك مقام يزار. ثم شدت الأسرة رحالها وواصلت رحلتها جنوباً. وقد طاب لبعض أفرادها المقام في « كشتمة » بين (أسوان) و (الدر) وظل باقي الأسرة وعلى رأسهم السيد نصر الدين بن عبد الكريم بين ظعن وإقامة، وحل وترحال حتى انتهى بهم المطاف إلى إقليم (دنقلة) بالسودان فألقوا عصا تسيارهم هناك.

وقد سموا المكان الذي نزلوا فيه بـ (الخناق) على اسم آخر قرية سكنوها بأعلى (الصعيد)[3] في مصر.

وقد دفع ذلك المؤرخ المصري المرحوم « عبد الرحمن الرافعي » إلى تقرير (مصرية) المهدي ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التي دفعت أسرته إلى الانتشار جنوباً. وفي أي وقت من الأوقات حدث ذلك[4].

وبعد نزول أسرة المهدي في إقليم (دنقلة) بالسودان اتجه بعض أفراد هذه الأسرة إلى جزر ثلاث هناك فاستوطنوها وهي جزر (ضرار) و (لبيب) و (آب تركي) ومن ثم عرفت هذه الجزر ومازالت تعرف إلى اليوم باسم جزائر الأشراف[5].

ومن هذا الإقليم - إقليم دنقلة - وفي أواسط القرن السابع الهجري سطع نجم أحد رجال هذه الأسرة المبرزين وهو السيد حاج شريف، وطار ذكره وبعد صيته، وعرف بالعلم والتقوى. فقصده الأتباع والمريدون من كل فج عميق.

---

(٢) (باب الوزير) حي من أحياء القاهرة القديمة يقع بالقرب من قلعة صلاح الدين.

(٣) الصعيد: هو الجزء الجنوبي من بلاد مصر - ويمتد إلى (وادي حلفا) على الحدود الفاصلة بين جمهورية مصر وجمهورية السودان.

(٤) مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي ص ١١٥ الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م القاهرة

(٥) المهدية في الإسلام ص ٢٠٠.

وقد عمر هذا الشيخ طويلاً . . مستمتعاً بسلطان روحي قوى ، وولد له من الذكور ستة أكبرهم السيد محمد جد المهدى من قبل أبيه ثم قضى الحاج محمد شريف ، ومازالت له ولذريته إلى الآن قباب بدنقلة تعرف بقباب الأشراف يؤمها الأتباع والمريدون[٦] .

وقد ولد للسيد محمد بن الحاج شريف ولد سماه عبد الله هو والد المهدى وكان صناعاً ماهراً . احترف هو وبعض أفراد أسرته حرفة النجارة وصناعة السفن . وكانت المنطقة التى يعيشون فيها بدنقلة لا تسعفهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم ، فارتحل عبد الله هذا ومعه أسرته إلى مدينة (كررى) الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا شمال (أم درمان) .

وقد اختلفت الروايات فى تاريخ مولد المهدى . ويبدو أن أصح هذه الروايات ما ذكر منسوباً إلى السيد عبد الرحمن المهدى – نجل المهدى – من أن والده قد ولد فى السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٦٠ هـ الثانى عشر من أغسطس ١٨٤٤ م وأن مولده كان بجزيرة (لبب) إحدى جزائر الأشراف . وقد أطلق عليه والده اسم (محمد أحمد) وقد ظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهدية فى الثامنة والثلاثين من عمره[٧] .

وقد مات والد المهدى بعد عام من انتقاله إلى (كررى) فدفن بها وكذلك توفيت والدته بعد عام من موت والده[٨] وفى ذلك الوقت كان الصبى (محمد

---

(٦) المهدية فى الإسلام ص ٢٠٠.

(٧) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٦.

- المهدية فى الإسلام ص ٢٠١.

- مهدى الله .. توفيق أحمد البكرى ص ٥.

(٨) جاء فى كتاب المهدية فى الإسلام : أن والد محمد توفى وهو فى الخامسة من عمره . وأن والدته توفيت بعد أن بلغ الحادية عشرة – انظر معالم سودان وادى النيل ص ١٩٦ .

أحمد) قد بلغ السن التي يذهب فيها أقرانه إلى (الخلوة) أو (الكتاب) لحفظ القرآن الكريم . . . فذهب إلى خلوة الشيخ الفقيه الهاشمي بالقرب من (كررى) شمال أم درمان ، وبقى فيها سبع سنوات حفظ القرآن فيها وجوده . وقد رغب شقيقاه[9] أن يتعلم صناعة السفن فرغب في غير ما رغبا فيه .

ثم انتقل بعد ذلك إلى خلوة الشيخ محمود الشنقيطي . . ثم إلى خلوة الشيخ الأمين الصويلحي بمسجد ود عيسى بالجزيرة فبقى فيها قليلاً . . ثم مضى إلى خلوة الشيخ محمد الخير في (الغبش) تجاه (بربر) فطاب له المقام والاعتكاف على الدرس والتحصيل .

وقد كان الشيخ محمد الخير هذا ، على حظ وافر من الصلاح والتقوى ، وإن كان جاهلاً باللغة العربية وقواعد النحو والصرف .

يقول صاحب كتاب : (السودان بين يدى غوردون وكتشنر)[10] .

« كان الشيخ محمد الخير ذا تحقيق في مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك – رضى الله عنه – ومع هذا كان لا يعرف شيئاً من علوم النحو والصرف وعلوم البلاغة فاحتقره تلاميذه ، وأسمعوه مرات عديدة انتقاداتهم على جهله حتى إن أحدهم قال له يوماً : ياسيدى الشيخ إنك لا تعرف إعراب جاء زيد . . فكيف يليق بنا أن نتكوف (نتحلق) حولك في حين أن – تكوفنا – هذا لطلب العلم وأنت مفتقر إليه أكثر منا ؟

فتأثر الشيخ محمد الخير من هذا القول ، وقام من مجلسه . وبعد صلاة العشاء دعا اثنين من خاصته وركبوا دوابهم بغير أن يشعر بهم أحد ، وقصدوا الخرطوم ومنها إلى ضاحية (المسلمية) حيث اجتمعوا بالشيخ (الحسين زهراء) وقص عليه محمد

---

(٩) كان للمهدى ثلاثة أشقاء وأخت واحدة – انظر معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٦ .

(١٠) السودان بين يدى غوردون وكتشنر – تأليف إبراهيم فوزى جـ ١ ص ٣١٥ مطبعة جريدة المؤيد القاهرة ١٣٠٩ هـ .

الخير ما جرى له مع تلميذه . فقال له : قد محضك - والله - النصح . ثم انقطع لدرس النحو وعلوم البلاغة على الشيخ الحسين نحو عامين أدرك فيهما ما يدركه غيره في أربعة أضعافها ثم عاد بعد ذلك إلى مزاولة دروسه في بربر[١١].

ونعود إلى صاحبنا محمد أحمد . .

لقد بهرته دون أقرانه أنوار التصوف فأقبل عليها . . وإنه ليروض نفسه حتى يكبح جماحها . . ويقهرها على الصعب من الأمور حتى يلين مراسها ويتغلب عليها . ولن يستطيع ذلك إلا إذا قنت وصرف نفسه عن أعراض الدنيا[١٢].

إن شيخه يتقاضى مرتباً من الحكومة تجريه عليه كل شهر وتمده ببعض العون كشأنها مع أمثاله من الفقهاء والمشايخ . ويجود عليه الخيرون ببعض المال تشجيعاً للعلم . . ولكن راتب الحكومة في نظر (محمد أحمد) حرام لأنه مال جمع بطريقة لا يرضاها الله ، وبوسائل لا تتفق والعدل . فهو مال كله حرام وآكله موغل في الحرام . . إذن . . يجب على (محمد أحمد) ألا يمد يده إلى طعام جاء من حرام . ويترقب محمد أحمد رسالة أهله ليدفع بها عن نفسه غائلة الحاجة والجوع . . فإذا ما جاءه المال ألفاه كثيرا عن حاجته الخاصة ، والقليل منه كاف لسد عوزه . . ثم ينتهي به الأمر إلى أن يتصدق بالمال كله ويعتمد على نفسه بالخروج إلى الغابة لقطع الأخشاب وبيع ما يقدر على حمله منها في السوق ويأكل ببعض ثمنه ويتصدق بالباقي كله على الفقراء .

فإذا تعذر عليه الاحتطاب من الغابة لسبب من أسباب الطبيعة . . خرج إلى النيل لصيد الأسماك . . وإنه ليتورع أن يضع في صنارته طعماً حتى لا يخدع السمك الذي يحوم حولها في الماء . إن السمك مخلوق من مخلوقات الله فلا ينبغي لأحد - إن كان مسلماً حقًّا - أن يخدع هذه المخلوقات . . وإذا كان الله قدر له رزقه فليكن

---

(١١) السودان بين يدي غوردون وكتشنر ص ٣١٥

(١٢) مهدي الله : ص ٧

بطريق آخر غير التحايل والخداع[١٣].

ويعلم شيخه (محمد الخير) بقصة عزوفه عن طعامه . . وقطعه الأخشاب فى الغابة واحتطابه وخروجه لصيد الأسماك وتورعه عن خداعه . . فيقبله بين عينيه إجلالاً . . ويضمه إليه حبًّا وإكباراً ثم يعرض عليه قائلاً :

« يا بنى . . إننى ورثت عن آبائى هذه الساقية وتلك الأرض والجارية والعبد وإنى لأقتات وأهلى منها . . وإنك لتوليني فضلاً أى فضل لو أنك شاركتنى القليل مما لدى » . .

فأطرق محمد أحمد إطراقة المتأنى . . فألح عليه أستاذه وعاود الإلحاح فقبل على أن يؤدى عوض ذلك عملا يساعد به الجارية والعبد فى حرث الأرض[١٤].

هكذا كان أمره . ولما يبلغ العشرين . . أصاب فى تلك الفترة أكثر مما أصاب زملاؤه علماً وتثقيفاً . . . لقد أدرك محمد أحمد فى تلك السن المبكرة من العلوم مالم يدركه أحد من لداته . فقد حفظ القرآن الكريم وجوده . ولم يفته النحو والصرف والفقه والتفسير والتصوف وأولع بالأدب والعلوم العقلية فدرس الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق وأقبل على التفسير . . فقرأ فيه قدراً كبيراً ووجد بخطه على ظهر نسخة من كتاب تفسير « الجلالين » ما يفهم منه أنه قرأه أكثر من سبع وأربعين مرة على مشايخ كثيرين[١٥].

لقد عرف الغزالى وابن رشد وابن سينا وغيرهم من فلاسفة المسلمين واحتقب معه كتاب « إحياء علوم الدين » يعاود النظر والتأمل فيه وكان إذا حدثته فى العلوم العقلية تسمع من أساليبه الوجيزة والمقيدة ما يدعوك إلى نظمه فى عقد من اشتهروا بالبراعة فى هذا الفن[١٦].

ويضيف صاحب كتاب « شقائق النعمان فى حياة المهدى ووقائع السودان » أنه

---

(١٣) مهدى الله : ص ٩

(١٤) مهدى الله : ص ١٠

(١٥) مهدى الله ص ١٢

(١٦) مهدى الله : ص ١٢

كان للمهدى إلمام كبير بالسنة وعلم الحقائق وكان يميل كثيراً لمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، كما أنه كان فقيهاً بارعاً أصوليًّا متكلماً محدثاً مفسراً أديباً كاتباً شجاعاً واعظاً[17].

وقد اختار بعض آيات من القرآن سماها « الراتب » وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صلاة الصبح وصلاة العصر[18].

وإذا كانت العبودية الحقة هى المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة وإذا كان الطريق إليها ليس حسًّا يخطئ ولا عقلا يضل . . وإنما هو بصيرة وضاءة[19] وروح صافية فإن محمد أحمد قد بدأ يهيئ نفسه للبحث عن هذه الحقيقة وانطلق بقلبه وعقله للحصول على هذه المعرفة . . لكن أين ؟

لقد لعبت الطرق الصوفية وبخاصة « القادرية والشاذلية » دوراً كبيراً فى حياة الأمة السودانية فى عصر « الفونج » . . وقد مهدت الأحوال الاجتماعية ولاسيما العصبيات القبلية التى كادت تمزق البلاد – لانتشار الفرق الصوفية . . فوجد الناس فى المشايخ الذين يدعون إلى الانتظام فى سلك العبادة وسيلة لتخليصهم من هذه الاختلافات[20] وقد فتح الحكم المصرى الطريق أمام الصوفية التى نشطت فى القرن التاسع عشر إلى أبعد الحدود فاشتد نشاط الطريقة السمانية التى كانت قد دخلت السودان سنة ١٨٠٠ م على يد الشيخ أحمد الطيب تلميذ محمد بن عبد الكريم السمانى . وقد انتشرت هذه الطريقة على الخصوص بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة .

---

(١٧) شقائق النعمان فى حياة المهدى ووقائع السودان تأليف محمد بن عبد المجيد بن محمد السراج ص ٩٧ – القاهرة سنة ١٣٦٦هـ

(١٨) السيف والنار فى السودان سلاتين باشا ص ١٧٧ مطبعة البلاغ القاهرة ١٩٣٠

(١٩) المنقذ من الضلال .

(٢٠) انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى ص ١٥٥ .

وقد شجع « محمد علي » طرقاً صوفية أخرى كالطريقة السعدية وهي فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهي فرع من الدرقاوية[٢١].

فماذا يختار محمد أحمد من هذه الطرق ؟ وإلى أي شيخ يتقدم ويبايع ؟ لقد ذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدايم نقيب الأشراف وشيخ المشايخ والقطب البارز في الحركة الصوفية . وكانت شهرته قد سبقته إلى أستاذه فأخذ منه العهد وتقبله أحسن قبول . وبقي عنده منقطعاً للعبادة والصلاة ملازماً خدمة أستاذه سعيداً بأي عمل يكلفه به مبالغاً في احترامه وتقديره . حتى إنه ليجلس أمامه منكساً رأسه فلا يرفعها إلا إذا حدثه .

كان كالطفل « بين يدي القابلة . . والميت بين يدي غاسله » كما يقول الصوفية . . لذلك أحبه شيخه ورقاه في مدارج الطريقة وأجاز له « إعطاء العهود وتسليك الطريق » ثم رجع محمد أحمد بعد ذلك إلى جزيرة « آبا » فأقام بها مسجداً . وشق لنفسه غاراً وأنشأ بها خلوة لتعليم الناس من كل مكان . ويقال : إنه كان يتولى تعليمهم بنفسه حتى إنه علم ألوفاً مؤلفة من الأعراب . وتناهى إلى الناس أمر هذا الولي الشاب فأقبلوا عليه يطلبون البركات[٢٢].

وبدأ نجمه في الظهور والارتفاع . . أخذ الناس يتناقلون أخبار هذا العابد الناسك وينشرونها في كل مكان . إن « ولياً » جديداً من أولياء الله يسكن جزيرة « آبا » والسفن المسافرة على مياه النيل لا يمكن أن تمضي دون التوقف بمحاذاة هذه الجزيرة لنوال البركة والتمتع بالنظر إليه لحظة .

ويعاوده الحنين إلى شيخه فيذهب لزيارته ويتقدم إليه كعادته ضارعاً ذليلاً . . وقد وضع « الشعبة[٢٣] » في عنقه وفروة الضأن فوق خاصرته ويحثو الرماد على رأسه

---

(٢١) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ٣٦١ .

(٢٢) مهدي الله ص ١٦ .

(٢٣) الشعبة بكسر الشين المشددة وفتح الباء خشبة طويلة يتفرع أحد طرفيها على شكل رقم (٧) وتوضع في عنق العبد الآبق أو المجرم

كأنه العبد الآبق . ويقبل على شيخه طالباً منه الرضا والمودة . فيحل الشيخ الشعبة من عنقه . وفروة الضأن من خاصرته ، وينفض التراب عن رأسه ويدعو له بالخير والبركة ثم يقيم عنده بعد ذلك مدة[٢٤].

كان هذا اللقاء بين الشيخ وحواريه هو آخر لقاء ينتهي بينهما في ألفة ومودة . فقد أخذت الأمور بعد ذلك تتدهور على نحو غير متوقع . وغامت سماء صفائهما بالسحب . فالإنسان هو الإنسان . . ما لم تتداركه من الله رحمة وهداية ورشد . وحين يطلق العنان لرغائب النفس . . حين يبلغ الأمر كذلك . . يتباعد المحبون اللذين شربوا من منهل الصفاء والحب ، وتتمزق فيما بينهم وشائج التفاهم والتسامح والقرب .

إنها مأساة البشر في كل عصر . . وهي مأساة تضطرم فيها النوازع ، وتتضارب فيها الدوافع ، وتختلف حولها الأسباب والدواعي . . وهي مأساة تبلغ قمتها حين تكون بين شيوخ في طريقة أو فقهاء في مذهب . . إنها النفس . . النفس الأمارة بالسوء إلا من رحم الله واستقام على جادة الحق .

لقد انتهى الأمر ووقع الخلاف بين « محمد أحمد » وشيخه . . واختلفت الآراء والأقوال في تفسير أسباب هذا الخلاف وتعليله .

فالشاطر البصيلي يذكر قولا منسوباً إلى الشيخ محمد شريف : بأن سبب العداء بينه وبين محمد مرجعه إلى أن قد نهاه عن دعوته بالمهدية[٢٥] وتوفيق أحمد البكري يذكر سببا آخر للخلاف بينه وبين أستاذه يرجع في جملته إلى إنكاره على شيخه حفلة أقامها في بيته بمناسبة ختان أولاده – رقصت فيها النساء والإماء ونقرت فيها

---

(٢٤) مهدى الله ص ١٧ وقد ذكر سلاتين باشا في كتابه « السيف والنار » أن محمد أحمد قدم على أستاذه بهذه الهيئة بعد أن اختلفا معاً ولأن شيخه لم يقبل منه ذلك . انظر ص ٣٧ وما بعدها .

(٢٥) انظر معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٧ السودان بين يدى غوردون وكتشنر ص ٧٢ جغرافية السودان وتاريخه ص ٨٧٨

الدفوف وكل ما يصاحب ذلك من اللهو - والمجون والشرب[٢٦].

لقد ندد محمد أحمد بكل ما رأى وطلب من مريديه وأحبابه ألا يشتركوا فيه قائلاً : « إن الشريعة تمنع الرقص والغناء والشراب والمجون . . وليس فى وسع أحد إجازتها ولو كان إماماً وشيخ طريقة » .

وقد أيد صاحب كتاب « شقائق النعمان » هذه الرواية وأورد « سلاتين باشا » تفصيلاً آخر لهذه القصة . فقد حدث فى أحد الأيام : « أن محمد شريف جمع لمناسبة ختان أولاده مشايخ الطريقة والتلاميذ وأذن لهم فى الغناء والرقص لأن الله يغفر فى مثل هذه الظروف الخاصة ما يحدث من الخطايا والذنوب » . . .

ولكن محمد أحمد لما انطبع عليه من التقى والصلاح استنكر الغناء والرقص . . وضروب الطرب الأخرى . وأوضح لأصدقائه مخالفتها كلها للدين ، وأنه لا يمكن لأى إنسان مهما كان قدره ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه الأقوال محمد شريف فطلب من محمد أحمد أن يبرر أقواله . وكانت نتيجة ذلك أن تقدم محمد أحمد بالاعتذار وهو يتذلل أمام التلاميذ والأتباع ويطلب الصفح . ولكن محمد شريف أخذ يلعنه وينسب إليه الخيانة والخروج على شيخه بعد أن أقسم يمين الولاء . ثم محا اسمه من قائمة الأتباع المذكورين فى الطائفة السمانية[٢٧] .

وقد ذكر أنصار محمد أحمد رواية أخرى لتعليل الجفوة والقطيعة بينه وبين أستاذه . فهم يقولون : « إنه الحقد والحسد . . وانصراف الناس عن الشيخ محمد شريف » ، وقد رأى الشيخ محمد شريف بنفسه إقبال الناس على محمد أحمد إقبالاً لا يجد مثله فساءه ذلك جداً . . وأخذ يعمل على الخفض من سطوة محمد أحمد . وعين أحد المشايخ نداً له فى المنطقة التى يسكنها ، وطلب من الناس اتباع هذا

---

(٢٦) شقائق النعمان فى حياة المهدى ووقائع السودان ص ٢٨

(٢٧) السيف والنار فى السودان ص ٣٧

الشيخ ، فأنكر محمد أحمد على شيخه . محمد شريف هذا التصرف[28].

والذى نعتقده أن محمد أحمد كان على حق فى موقفه من شيخه . والقول بأن السبب فى هذا الخلاف هو ادعاؤه المهدية واعتراض الشيخ محمد شريف عليه قول ينقضه الشيخ محمد شريف نفسه . فبعد سقوط « بربر » إحدى المدن السودانية الهامة وزحف المهدى إلى الخرطوم لم ير الشيخ محمد شريف بدًّا من القدوم على المهدى ومبايعته . . فاستقبله أحسن استقبال[29] . ونسى المهدى مانشب بينهما من خلاف وأمر بذبح النياق احتفالا بمقدمه . وبقى فى صحبته مكرماً معززاً غير مهان أو مساء[30] .

فإذا كان الشيخ محمد شريف قد اختلف مع تلميذه حول العقيدة ، ولخروجه على أصول المشيخة والطريقة فما الذى غير رأيه ؟ وجعله يدخل فى طاعة المهدى ويبايعه ؟

لقد كان اعتراض المهدى على شيخه بسبب ما رآه فى بيته أمراً يتفق تماماً مع نشأته وتربيته . فقد حدث فى ليلة زفافه أن اجتمع بعض النسوة والرجال لإحياء هذه الليلة بالرقص والأغانى . فقام إليهم محمد أحمد ومنعهم من ذلك . . لأن اختلاط الرجال بالنساء والرقص والأغانى حرام كله[31] .

ثم إن هذا التصرف من المهدى تجاه شيخه يؤيده ما وقع قبل ذلك مع أستاذه الشيخ محمد الخير حيث اعترض عليه بسبب تقاضيه مرتباً من الحكومة كانت تعطى لمثله من علماء الدين وشيوخ الطرق . . لأن مال الحكومة « جمع بطريقة لا يرضاها

(٢٨) جغرافية السودان وتاريخه ص ٥٦٧

(٢٩) المصدر السابق ص ٨٢٥

(٣٠) شقائق النعمان ص ٨٠

(٣١) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ص ٧٢

الدين . وبوسائل لا تتفق والعدل . فهو مال حرام وأكله موغل فى الحرام مشترك فيه »[٣٢] .

ثم إن الرجل الذى يتورع عن خداع السمك فى صيده ويرفض - وهو صائم - تناول أى طعام فيه شبهة . . مثل هذا الرجل لا يخاف أحداً فى إعلان رأيه . ويقول كلمة الحق ولو دفع فيها رأسه .

ولقد شعر الشيخ محمد شريف - بعد هذه الحادثة - أنه دون تلميذه تقى وورعاً . . وأحس فى الوقت نفسه ببزوغ نجمه فى أفق الصوفية . . واجتذابه إليه قلوب الناس . . فدب فى قلبه بسبب ذلك دبيب الحسد . . وشعر بالخطر الذى يتهدد مملكته إلى الأبد .

ومما يؤكد ذلك أن الشيخ محمد شريف حين ذهب إلى (رءوف باشا) الحاكم المصرى للسودان يحذره مغبة الدعوة التى تقول : إن محمد أحمد هو « المهدى المنتظر » وكان محمد أحمد قد أعلن دعوته فى ذلك الوقت - فإذا بالحاكم يتباسم لأنه يعلم ما بين الرجلين من قطيعة ويعزو قوله إلى الحسد وضغن النفس[٣٣] .

وسواء أكان هذا الأمر أم ذاك . فإن الشيخ « القرشى » أحد مشايخ الطريقة السمانية المناوئين للشيخ محمد شريف قد اجتذب إليه محمد أحمد وأكرم وفادته . وأشاع أن محمد أحمد قد انفصل عن شيخه الذى خالف الشريعة والسنة . . [٣٤] .

وبينما هو يهم بالرحيل . : أقبل عليه رسول أستاذه محمد شريف يدعوه إليه ليتصافيا بعد تلك الجفوة والنفور . فاعتذر شاكراً ومضى نحو الشيخ القرشى وجدد له العهد . . وتعلق بشيخه الجديد وتعلق به شيخه[٣٥] .

---

(٣٢) مهدى الله ص ٨

(٣٣) مهدى الله ص ١٨

(٣٤) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٧

(٣٥) مهدى الله ص ١٩

وفى تصورنا أن هذا الخلاف بين محمد أحمد وشيخه كانت له آثار بعيدة فى حياة « المهدى » وقيامه بحركته . فقد خرج منه الحوارى الثائر منتصراً .. واستدعاه الشيخ القرشى مرحباً .. ومحمد أحمد « بشر » قبل أن يكون « وليًّا » . . .

لقد بدأ يشعر بأهميته فى نظر نفسه . كما بدأ يشعر بحب الناس والتفافهم حوله وكان لانعتاقه من قبضة الشيخ محمد شريف وارتباطه بالشيخ القرشى الذى كان قد بلغ التسعين من عمره [٣٦] . كان لكل هذه العوامل أثرها فى تصرفه وتصوره وفى حرية فكره وعمله وفى الترحيب والابتهاج بكل ما يشيعه الناس عن كراماته وولايته .

ولم يلبث الشيخ القرشى أن مات فبايعه أتباعه ودخلوا جميعاً فى طاعته ، وكانت هذه البيعة وما أعقبها مقدمة لإعلان مهديته .

يقول إبراهيم فوزى [٣٧] « إن الشيخ القرشى ذكر قبل وفاته أن زمن ظهور المهدى المنتظر قد حان وأن الذى يشيد على ضريحى « قبة » ويختن أولادى هو « المهدى المنتظر » فلما سمع المهدى ذلك طار فرحاً وجمع ثلثمائة رجل من أتباعه وذهب معهم إلى « الحلاوين » وشيد القبة من اللبن الأخضر وختن أنجال الشيخ القرشى بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها » .

وبينما هو يعمل مع العاملين فى البناء قدم بدوى فارع القامة نحيلها ، مس الجدرى أطراف وجهه . غريب اللهجة والزى . حديد البصر تومض عيناه بذكاء عظيم هو عبد الله بن محمد ود تورشين من قبيلة التعايشة .

لقد أقبل من غرب السودان يستحث خطاه لأخذ الطريق من محمد أحمد . . . قال له : « يا سيدى : أنا عبد الله بن محمد ود تورشين . . من قبيلة

(٣٦) المهدية فى الإسلام ص ٣٠٤

(٣٧) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ص ٧٤

التعايشة البقارة . وقد سمعت بصلاحك فى دار الغرب . فجئت لآخذ الطريقة عنك . وكان لى أب صالح من أهل الكشف . وقد قال قبل وفاته : إنك ستقابل المهدى وتكون وزيره . . وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته . فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى بها والدى بعينها ، فابتهج قلبى برؤية مهدى الله وخليفة رسوله » (٣٨)

وقد ذكر الشيخ محمد شريف بعد خلافه مع محمد أحمد أنه : « فى سنة ١٢٩٥ هـ جاءنى رجل من البقارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدى . فلقنته أورادها ومكث ملازماً لخدمتى وأخبرنى أنه جاء مع والده من بلاد « الكلكلة » جنوب مقاطعات دارفور قاصدين الأقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج وأنهما فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه بزمام وامتطياه على مألوف عادة أهالى تلك البلاد ، ولما وصل إلى بلاد الجمع من تخوم كردفان الشرقية مات أبوه ، ولحق به العجل . فأقام بمنزلى نحو عامين . فكان أكثر كلامه معى قوله : إنك المهدى المنتظر من ارتاب فى ذلك فقد كفر .

فكنت أنهاه عن ذلك القول . . ولا ينتهى . وفى ذات يوم قلت له : أنا لست مهديًّا وأبغض شىء إلىّ سماع هذه الكلمة التى لا يسير بها غير تلميذى الذى طردته محمد أحمد . وقلت له على سبيل السخرية والازدراء : إذا كنت ممن يتوقعون المهدية فعليك به . .

وفى اليوم التالى سألت عنه فلم أجده . وأخيراً علمت أنه لحق بمحمد أحمد فى الحلاوين وهو يشيد قبة الشيخ القرشى . وأنه حين وقعت عينه عليه خر على الأرض مدعياً أنه « أغمى عليه » . وبعد حين رفع رأسه فسأله الحاضرون عن سبب إغمائه فقال : نظرت أنوار المهدية على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على

(٣٨) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٨

حواسى »[٣٩] .

ليس المجال هنا على أية حال لتقويم شخصية التعايشى هذا وسلوكه يكفى أنه أصبح خليفة المهدى وأمير جيوشه ، ولم يعر أى اهتمام لكل ما قيل وأشيع حوله . بل أمر بقتل اثنين من رجاله[٤٠] إثر مناقشة بينهم وبينه ، وادعى له العصمة من الخطأ فى قوله ، وزعم أن الرسول ﷺ قد اصطفاه – هو الآخر – واختاره[٤١] * .

لقد بدأ المهدى فى الدخول إلى مرحلة من تلك المراحل الفاصلة فى حياته كفرد وفى حياة السودان كشعب ، وفى التاريخ كرجل من صانعى أحداثه ، وعلم من أعلامه . . « مرحلة تتصارع فيها نوازع الإنسان ورغائبه بين الرجاء والخوف والأمل والواقع . . . فيخطر له أنه مندوب لأمر هام يروقه أن يصبح له أهلا ، ثم ينكل عنه خوفاً من تبعاته وأهواله ، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن منه الخاطر . وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد . ويجلو له حقيقة الأمر الذى هو فى ريب منه . وإذا احتجبت عنه آيات الإلهام فترة فليس بالعجيب فى هذه الحالة – بين الأمل والخوف – أن يذكر فترات الحيرة التى مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص فى انتظار الموعد الموقوت . وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة أمل ورجاء . وكلمة تشجيع فيتشبث بها . وما أسرع النفس إلى التشبث بأمثال هذه العلالة فى أوقات الأزمات »[٤٢] .

ثم يخطو الخطوة الأولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه إلى ما بعدها . ثم

---

(٣٩) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ص ٧٥ - ٧٦

(٤٠) جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٠٨

(٤١) منشورات المهدية تحقيق الدكتور محمد إبراهيم ابو سليم ص ٦٦

* يقول سلاتين باشا عن التعايشى «كان يعتقد أن الصدق والأمانة لاوجود لها مطلقا عند أى مخلوق وكل مايظهره الإنسان من ملق ومداهنة إنما هو لقضاء الحاجات والمآرب دون سواها ..» السيف والنار ص٢٢٦

(٤٢) عباس محمود العقاد : الإسلام فى القرن العشرين ص ١٤٧

تدفعه المصادفات تارة حتى يتوسط الطريق وتسد وراءه شيئاً فشيئاً منافذ الرجوع إن فكر فى الرجوع . ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى إليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى إليها . فإن خامره شك فلعله يحسب – فى هذه المرحلة – أن المصلحة فى التقدم أكبر وأضمن من المصلحة فى التراجع والنكوص ، ويزعم لضميره أنه إنما يريد الخير ولا يحاسبه الله إلا بما نواه[١٣] .

فى غرة شعبان سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين من الهجرة الموافق ٢٩ يونية سنة ١٨٨١ م أعلن محمد أحمد عبد الله إلى الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق ورؤساء العشائر والقبائل أنه « المهدى المنتظر » الذى سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلماً .

وحيث إن الأمر لله . . والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الذليل « محمد المهدى ابن عبد الله » فيجب بذلك التصديق لإرادة الله . . وقد أخبرنى سيد الوجود – محمد ﷺ – بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله . كررها ﷺ – ثلاث مرات يقظة فى حال الصحة . وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا بجذب ولا سكر ولا جنون بل متصف بصفات العقل . أقفو أثر رسول الله ﷺ – بالأمر فيما أمر به والنهى فيما نهى عنه[١٤] .

« وليكن معلوماً عندكم أنى من نسل رسول الله ﷺ فأبى حسنىّ من جهة أبيه وأمه . وأمى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى والعلم لله بل إن لى نسبة إلى الحسين رضى الله عنه » .

ومهما يكن من شىء . . . فقد صادفت دعوة المهدى ذيوعاً ونجاحاً كان – دون ريب – لحالة البلاد السياسية والاقتصادية يد كبرى فيه . فقلوب الناس متفتحة ونفوسهم عطشى وقد عمهم القحط والجدب والظلم والبلاء حتى لم يعد فى النفوس

---

(١٣) المصدر السابق ص ١٤٨

(١٤) من منشورات المهدية المنشور الصادر فى شوال ١٢٩٨ هـ ٢٥ سبتمبر ١٨٨٨م

الصابرة مترع لمصطبر . فأقبل عليه الزعماء وشيوخ القبائل مبايعين قائلين : نبايعك على المهدية وإن لم تكن مهديًا نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها[٤٥].

لقد صدق أهل السودان : خاصتهم وعامتهم دعوى المهدى وهم لا يشكون أن من مات فى سبيله فنصيبه الجنة والحور العين حتى صاروا يتمنون الموت وينادون عند رؤية القتال : الجنة جت (أصبحت) قريبة تحت المدفع وتحت الزريبة[٤٦].

وقد سموا التجار « كلاب الدنيا » لتقاعدهم عن الجهاد . وجر رجل سودانى صديقاً له إلى ساحة المحكمة لأنه قال له وهو يودعه — كعادة الأصدقاء عقب كل لقاء — قال : الله يكتب سلامتك . لأن معنى هذه الكلمة أن يعيش عمراً طويلاً ولا يقاتل فيستشهد تحت لواء المهدى[٤٧].

• • •

إنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً . . وماذا ينقص محمد أحمد من هذه الصفات التى وردت فى الأحاديث المنسوبة إلى النبى عن أوصاف المهدى ؟

إنه عالم ، وصالح ، وشريف النسب ينتمى إلى الحسن السبط ، كما أنه أفرق الثنايا ، على خده خال . واسمه محمد . واسم أبيه عبد الله . وبينه وبين الرسول شبه فى اليتم . وفى كفالة أخيه الأكبر له بعد وفاة والديه . وقد سمى إحدى زوجاته عائشة ، وكناها بأم المؤمنين[٤٨] فمن ذا الذى لا يتقدم بعد ذلك ويبايع ؟

من ذا الذى تسول له نفسه النكوص عن الدخول فى طاعة « إمام الزمان » ومهديه المنتظر .

---

(٤٥) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ص ٨٥

(٤٦) الزريبة : الموقع المحصن . وكان يتخذ فى هذا الوقت من أشجار الغابة التى تحيط بها الأحراش من كل جانب .

(٤٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ٩٥٠

(٤٨) مهدى الله ص ٢٢

إنه لا فرار . .

ومن لم يبايع طوعاً . . بايع كرهاً . . ومن لم يبايع بهذا أوذاك بايع طمعاً .

يقول نعوم شقير فى صفة هذه المبايعة :

« كانت هذه المبايعة على وجهين : الأول . . باليد وهى أن يضع المبايع يده فى يد المهدى جاعلاً إبهامه على إبهامه . . ثم يقرأ المهدى صورة المبايعة ليعيدها المبايع بعده . . وإن كانوا أى (المبايعون) أكثر من الواحد إلى العشرين وضع واحد يده فى يد المهدى وألقى الباقون أيديهم فوق أيديهم . . والوجه الثانى : المبايعة باللسان إذا كانوا أكثر من عشرين . . فيرقى المهدى إلى المنبر أو جمل ويقف الناس أمامه ويبايعونه »[٤٩]

وقد أورد سلاتين باشا صيغة هذه المبايعة فى كتابه بنصها الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : بايعنا الله ورسوله . . وبايعناك على توحيد الله . . ولا نشرك بالله شيئاً . . ولا نسرق . . ولا نزنى . . ولا نأتى بالبهتان . ولا نعصيك فى المعروف . . بايعناك على زهد الدنيا وتركها . . والرضا بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة . . وعلى ألا نفر من الجهاد »[٥٠].

• • •

وبإعلان محمد أحمد مهديته إلى الشعب . . وإقبال الناس لمبايعته من كل حدب وصوب . . كان « البطل » الذى يبحث السودان عنه قد استكمل كل عناصر الثورة والقوة والحرب .

شعب يرسف فى الأغلال . .

سخط متزايد على الأوضاع . .

حكام جهلة أغبياء . . غارقون فى الظلم والرشوة والفساد . .

---

(٤٩) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٦٧

(٥٠) السيف والنار ص ١١٩

إن كل شيء يهتف بهذا البطل . . ويدعوه للخروج والعصيان . . والتمرد والثورة .

وقد وجه رءوف باشا - الحاكم العام - حملة للقضاء على المهدى فى جزيرة « آبا » بقيادة أبى السعود العقاد فتشتت جيوش المهدية شمل هذه الحملة وتباد ، وفى سفوح جبل « قدير » تبيد جيوش المهدى حملة ثانية بقيادة راشد باشا وتستولى على الذخيرة والعتاد . . وحملة ثالثة يقودها يوسف الشلالى باشا تلقى المصير نفسه الذى لقيته حملة راشد باشا والعقاد .

المهدى يزحف . . وسلطان الحكومة يتلاشى ويضعف . . وأعلام المهدية تخفق فى كل مكان وترفرف . .

لقد انهار كل شيء . . ومعاقل الحكومة تسقط موقعاً بعد موقع . . والخرطوم العاصمة قاب قوسين أو أدنى من السقوط والتصدع . . إنه الطوفان . . فى سفينة المهدى - لمن يريد - الأمن والأمان .

ولقد اضطرت القاهرة إلى تغيير حكامها فى السودان . . ذهب رءوف باشا ليحل مكانه عبد القادر حلمى باشا . . وذهب عبد القادر باشا ليجيء من بعده الجنرال « غوردون » باشا .

وهنا لابد من وقفة نتتبع فيها أسباب هذا التغيير والمجيء بـ « جنرال إنجليزى » لقيادة الجيش وتسيير الأمور .

كانت الثورة العرابية فى القاهرة قد أجهضت . . . وحكم على الزعيم عرابى ورفاقه بالنفى وسيق العلماء والزعماء إلى المحاكمة لتأييدهم « عرابى »

لقد أصبحت مصر من ممتلكات « التاج » . . والإنجليز يهمهم استقرار الأمور . . ومادام فى السودان ثورة فستبقى مصر فى خطر من هذه الثورة . . وقد أجمع المسئولون البريطانيون فى القاهرة على أن آخر انتصار للمهدى هو بالفعل

تهديد لمصر . وأن التهديد سيزداد فى حالة وقوع الخرطوم فى يده [٥١]!! وكانت إنجلترا تأمل فى استخدام غوردون فى مصر منذ أوائل الاحتلال البريطانى . وكانت تعلم أن مصر لا يمكن أن تقبل ذلك إلا إذا أجبرت على تعيينه ، كما أنها لا يمكن أن توافق على إرساله إلى السودان حاكماً عامًّا – بسبب الطابع الدينى لثورة المهدى « إن وضعه على رأس الحكم فى السودان سيكون معناه انضمام آخر قبيلة موالية لمصر إلى المهدى »[٥٢] وكان من رأى غوردون المحافظة على الخرطوم بأى ثمن . . وكان يرى أن السماح للمهدى بدخول الخرطوم لا يعنى مجرد عودة السودان إلى الهمجية . . ولكن يعنى تهديداً مباشراً لمصر .

وكان يعتقد أن الدفاع عن مصر عن طريق تحصين الحدود الجنوبية سيكون عديم الجدوى ، لأن بلاد العرب وسوريا وكل بلاد العالم الإسلامى ستهتز نتيجة لزحف المهدية وانتصاراتها[٥٣] .

وقد تساءلت جريدة « البال مل جازيت » عن السبب فى عدم إرسال غوردون إلى الخرطوم مزوداً بسلطات مطلقة . . وأسرعت الصحف إلى الاقتباس من هذا المقال . .

وأخذت تطالب بضرورة إرسال غوردون إلى السودان ، وعلى أية حال فقد أبلغ السير إيفلين بارنج – القنصل البريطانى فى القاهرة – حكومته أن مصر تحتاج إلى ضابط كفء للذهاب إلى الخرطوم واستقر رأى حكومة لندن على أن يكون هذا الرجل هو غوردون[٥٤] .

وصدرت « الفرمانات » فى القاهرة بتعيينه حاكماً عامًّا على السودان . . وسافر

---

(٥١) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان دكتور محى ص ١٠٣

(٥٢) المصدر السابق ص ١٢٧

(٥٣) المصدر السابق ص ١٢٨

(٥٤) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ص ١٢٩

بعد ذلك إلى الخرطوم فانطلقت المدافع تحيي الحكمدار الجديد القديم . . فقد عمل « غوردون » في السودان قبل ذلك في عهد الخديو إسماعيل . . وفي أول لقاء له مع القناصل والعلماء والأعيان يعلن مهمته إلى الناس ويقول :

« إن السودان قد فصل عن مصر فصلاً تامًّا . . وقد جئتكم حاكماً مفوضاً عامًّا . . فجعلت من محمد أحمد « المهدي » سلطاناً على كردفان . . وألغيت الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق . .

ثم يبعث إلى « المهدي » بهدية . . هي : جبة من جوخ . . وقفطان حرير . . ومركوب أحمر . . وشال من كشمير [55] .

• • •

ماذا يمكن أن يقال في وصف هذا الرجل ؟

. . . غوردون . . الذي ذهب إلى السودان حاكماً عامًّا باسم مصر . . يبدأ عمله بإعلان فصل السودان عن البلد الذي يعمل موظفاً لحسابه ويتقاضى أجره من قوت شعبه ويحارب بسلاحه وجنده . . إنه اللؤم البريطاني الذي عرفناه وبلونا شره .

غير أن المهدي لم ينخدع بما قاله غوردون . . لقد رفض كلية مضمون هذه الرسالة ووقع رده على رأس غوردون كالصاعقة . . .

لقد جاء غوردون إلى الخرطوم تنفيذاً لخطة بريطانية بعيدة كل البعد عن أماني الشعبين السوداني والمصري . وقد كتب محمد أحمد بذلك إلى الخديو .

« ما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله . وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ . . ألم تسمع بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم » [56] .

---

(٥٥) مهدي الله ص ٨٢

(٥٦) سورة المائدة الآية : ٥١

كما كتب الشيخ الفقيه مصطفى أمير « شنبات الغرب » المجاورة للخرطوم وأحد أمراء المهدية إلى اللواء محمد نصحي باشا - أحد قواد الجيش المصري - في أثناء وجوده في شندى . . : « أنه لا يليق بكم أن تجعلوا إمامكم « للغوردون » الكافر وتذكروا عدوان الإنجليز عليكم وما جرى لعرابي معهم . . إن الإنجليز أخذوا الملك من الخديو وسيروه جسماً بلا روح . . واستلموا مصر . . ونحن وأنتم إخوان في الدين ولا يجوز لكم أن تتعصبوا للكفر على المسلمين . . فالناس كلهم إخواني في الدين ولا عدو لي إلا الكافر »[٥٧].

لم تكن المعركة إذن بين الشعبين في السودان ومصر . ولم تكن بين المهدى والخديو توفيق . كانت المعركة في حقيقتها حلقة في سلسلة الصراع الذي دارت رحاه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - على أرض الإسلام لتصفية وجوده كما كانت في الوقت نفسه صورة من صور التنافس بين إمبراطوريات الغرب للسيطرة على الشرق . . وثرواته . .

ويقول ألن مورهيد[٥٨] : « لم يكن بوسع مصر أن ترى - بعد غزو نابليون لها - في نهاية القرن السابق سوى الهزيمة والهوان اللذين أصاباها على يد المسيحيين ، وكان من المؤكد ظهور البوارج الفرنسية والإنجليزية في الإسكندرية عند أول بادرة للاضطرابات كما كان يخيم على الجو دائماً احتمال قيام غزو مباشر ، وفي مايو ١٨٨١ م استولى الفرنسيون على تونس فانهار معقل آخر من معاقل الإسلام في أفريقيا ، وكان السياسيون في لندن وفي باريس قد شرعوا يتحدثون عن خطر مؤامرة إسلامية شاملة وتجدد التعصب الإسلامي المتطرف » .

وقد أدلى غوردون بتصريحات قوية الأثر بصدد الموضوع الرئيسي - الصراع بين المسيحية والإسلام - في الشرق الأدنى قبل تسلمه الأمور في السودان فقال :

---

(٥٧) معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ١٨٥

(٥٨) النيل الأبيض الترجمة العربية ص ٢٠٨ ومابعدها المطبعة العربية القاهرة

« ليس زحف المهدى عبر « وادى حلفا » هو الخطر الذى يخشى . . ولكن الخطر نوع آخر تماماً ، فهو ناشئ عن تأثير قيام دولة إسلامية مظفرة ملاصقة لحدودكم مباشرة ، سيسود المدن المصرية جميعاً شعور بأن فى وسعهم أن يفعلوا ما فعله المهدى . . وأن يطرد والدخلاء والخونة كما طردهم . . وليست إنجلترا وحدها هى التى تواجه هذا الخطر فإن نجاح المهدى أهاج غلياناً خطيراً فى بلاد العرب وسوريا »[٥٩].

وقد عملت إنجلترا لإجهاض الحركة المهدية كما أجهضت الحركة العرابية . . فأرسلت غوردون إلى السودان . . وكان السودانيون كما تقول مجلة « العروة الوثقى » : « لم تلتئم جراحهم من ظلم غوردون أيام كان حاكماً مستبداً عليهم . وفى علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية . فقد طلب وهو فيهم قسيسا من السويس لنشر المذهب البروتستانتى بين مسلميهم . وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد بعد ما قام بدعوة عظيمة بمنحه لقب أمير كردفان وهل يقنع صاحب هذه الدعوة بمثل هذا اللقب بعدما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد بدون أذى غوردون ؟ قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدية وموقعها من قلوب المسلمين »[٦٠].

وقد كان محمد أحمد المهدى عند حسن ظن الشيخ الإمام محمد عبده وأستاذه جمال الدين . . فقد أعلن رفضه للسلطان والملك لأنه « عبد دال إلى الله وإلى ماعنده . . فمن كان سعيداً أجابه . . ومن كان شقيًّا أعرض عنه »[٦١] . ولكن غوردون كان عنيداً . . كانت فيه أنفة وصلف ، وطيش وتعجرف ، وكان كما

---

(٥٩) النيل الأبيض تأليف آلن مورهيد ص ٢٢٤ الطبعة العربية .

(٦٠) العروة الوثقى المجلد الأول ص ١٥٥ ط ٦ القاهرة .

(٦١) مهدى الله ص ٨٩

يصفه لورد كرومر[٦٢] – متطرف العناد مندفعاً متهوراً . . منساقاً لانفعالاته . . كان يتخذ آراء سريعة دون تعمق . . ونادراً ما يصمد على رأيه .

هذا هو غوردون . . كما وصفه اللورد كرومر . . وفي الجانب الآخر من الصورة : نرى أن محمد أحمد كان يتمتع بصفات شخصية نادرة فذة . . كان كما يقول الأب : جوزيف أورنالد « المبشر النمساوي الذي وقع في أسر المهدي : عجيب الفتنة . . شديد السمرة . . تعلو وجهه دائماً ابتسامة عذبة . . وكان أسلوبه في الحديث عذباً بدرجة غير عادية » .

ويقول سيرويتجت : « لاشك أن هذا الرجل قد أوتي أقوى رأس وأصفى بصيرة ذهنية[٦٣] وقد ذكر « نعوم شقير » وصفاً للمهدي نقله عن أحد أتباعه :

كان دائم البشر . . سهل الخلق . . لين الجانب . . ليس بفظ ولا غليظ . . ترك نفسه من المراء وما لا يعنيه . .

وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ولا يعيبه . . ولا يطلب عورته . . ولا يواجه أحداً بما يكره . . يتفقد أصحابه ويسأل عنهم . . فمن كان غائباً دعا له . . ومن كان حاضراً زاره . . ومن كان مريضاً عاده . . وأفضل الناس عنده أعمهم نصيحة . . وأعظمهم عنده منزلة : أحسنهم مواساة . . يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه . وقد وسع الناس خلقه فصاروا عنده في الحق سواء لا يجزي السيئة بالسيئة . . ولكن يعفو ويصفح . . متخلقاً بالقرآن المجيد . . وما وضع أحد فمه في أذنه إلا استمر مصغياً إليه . . يركب الحمار . . ويجلس على الأرض . . ويأكل مع الخادم . . ويحمل حوائجه بنفسه من السوق[٦٤] .

---

(٦٢) لورد كرومر : هو السير ايفلنج بارنج القنصل الإنجليزي العام في القاهرة وقد حصل على لقب لورد في النهاية تقديرا لجهوده في إخماد حركة عرابي وثورة المهدي .

(٦٣) النيل الأبيض ص ٢١٥ (٦٤) تاريخ وجغرافية السودان ص ٩٣٩

وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدمور[٦٥] ويتمنطق بمنطقة من خوص . . وعلى رأسه طاقية مكية يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء كعمامة أهل الحجاز ، ويسدل لها عذبة على كتفه اليسرى طولها نحو نصف متر . ويضع فى عنقه سبحة . . وفى رجليه حذاء أو نعلين[٦٦] .

ولا يفوتنا فى نهاية هذا الفصل أن نركز على جانبين هامين فى شخصية المهدى .

الجانب الأول :

عن المهدى كبطل وزعيم قومى . . وقد نجح فى دوره هذا كمحرر هيأت له الظروف كل أسباب النجاح فى المجال الوطنى . . كما لا يمكن فصل نجاحه فى هذا المجال عن العامل الدينى الذى جمع حوله قلوب الشعب السودانى . . وألهب شعور الكراهية والبغضاء ضد التدخل الأجنبى . . وجعل منه رمزاً للإباء والكبرياء والصمود والتحدى .

ومهما تكن نتيجة هذه الحركة فسيبقى اسم « محمد أحمد » فى تاريخ السودان علماً على الجهاد والحرية ومثلا يحتذى به فى كل حركة وطنية وقدوة للزعماء والمجاهدين فى آسيا وأفريقية .

أما الجانب الثانى :

فعن محمد أحمد كـ « مهدى ، ومختار من الله » لتحرير العالم الإسلامى وهو الجانب الذى استأثر باهتمام أكبر فى العالم الخارجى وفى حقيقة دعواه بأنه « المهدى » وفى إثارة الجدل والنقاش حول هذه الدعوة وجانبها العقدى – الأمر الذى نناقشه بتفصيل عند تقويمنا لحركة المهدى .

---

(٦٥) الدمور قماش من القطن الردىء .

(٦٦) تاريخ وجغرافية السودان ص ٦٦٧

إلا أن الرجل - فى أعدل الموازين - كان صيحة تردد صداها فى أنحاء العالم الإسلامى وصيحة جددت الأمل فى قلوب المسلمين من أقصى الشرق إلى شواطىء المحيط الأطلسى .

الفصل الثانى

التيارات الإسلامية التى كانت سائدة فى عصره

يقول الأستاذ محمد أسد[1] :

« إن الحروب الصليبية هى التى حددت فى المقام الأول ، والمقام الأهم موقف أوربا من الإسلام لبضعة قرون تلو . لقد كانت الحروب الصليبية حاسمة لأنها حدثت فى أثناء طفولة أوربا فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها ، وكانت ولا تزال فى طور تشكلها . وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتها تلك الحرب . لا يمكن أن تقارن بشىء خبرته أوربا من قبل ، ولا اتفق لها من قبل. لقد اجتاحت القارة كلها موجة من القسوة كانت عنفواناً تخطى الحدود التى بين البلدان وبين الشعوب ، ولقد اتفق فى ذلك الحين . وللمرة الأولى فى التاريخ . إن أوربا أدركت فى نفسها وحدة ، ولكنها وحدة فى وجه العالم الإسلامى . ويمكننا أن نقول من غير مبالغة : إن أوربا ولدت من روح الحروب الصليبية . وقد ولدت فى أثناء الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام ، ولقد كان فى الجانب الإسلامى دائماً رغبة مخلصة للتسامح ، ولكنه لم يلق أبداً المعاملة بالمثل » .

---

(١) محمد أسد اسمه الأصلى « ليوبولد فايس » كان يهوديًا ثم أسلم . وقد اشتغل فى عدة أقطار إسلامية منها . السعودية وباكستان . وهذه الفقرات نقلها من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » فصل : شبح الحروب الصليبية ص ٥٠ - ٦٤ الطبعة الرابعة .

ويقول مالك بن نبي[٢] :

« . . . إن أوربا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على الجنس البشري لم تعترف منذ كانت مدنيتها لاتزال في المهد ، ترضع اللبن العربي بأية مدنية إسلامية . وكما يقول : جوستاف لوبون -معللاً السبب الذي يدفع علماء أوربا إلى إنكار هذا الجميل برغم أنهم يجب أن يبتعدوا عن التعصب- يقول :

الواقع أن استقلال الرأي ظاهري أكثر منه حقيقي ، وذلك لأننا لسنا أحراراً قط في تفكيرنا حول بعض المعلومات . لقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوي[٣] » إن النصرانية على حد قول الكاتب العالمي « حيدر بامات[٤] . لا تزال تواجه الإسلام بحقد وازدراء يمليه عليها التعصب . ويتجلى هذا على وجوه كثيرة ، ومنها مانرى في الفقه الدولي ، أو القانون الدولي العام الذي لايعامل الأمم الإسلامية معاملة مساوية للأمم النصرانية .

« ومنذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون . وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوربيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية . فـ « جروسيوس » أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية . و « جنتيلس » هاجم فرنسوا الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليم العثماني في عام ١٥٣٥م ، ومع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين

---

(٢) من كبار المفكرين المسلمين في الجزائر ولد تثقف ثقافة فرنسية . وتوفي في عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م بعد أن اختير عضواً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ومن أهم كتب الظاهرة القرآنية .

(٣) مستقبل الإسلام . مالك بن نبي ص ٢٩ ط بيروت

(٤) مجالي الإسلام ص ٥٠٠ مطبعة الحلبي - القاهرة .

مدة حياة الملكين ، ومع أنها أعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام . فقد كانت هذه المعاهدة مرفوضة لأنها مع ملك أمة غير مؤمنة (٥) » ! !

وربما يظن البعض أن أوربا قد تخلت عن عدوانها وتعصبها حين رضيت أن تكون الدول العربية والإسلامية معها فى هيئة الأمم المتحدة ، وغيرها من المنظمات الدولية ، الواقع ينطق بغير هذا . إن العرب انضموا إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . فكوفئوا على صداقتهم هذه بإصدار وعد « بلفور » وانضموا إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية فكوفئوا بالموافقة على قيام دولة إسرائيل واجتاحت الهند : باكستان الشرقية – لإقامة دولة موالية – فتم لها ما أرادت ولم يعترض أحد على هذا العمل المشين .

• • •

لقد بلغ الإسلام فى بداية القرن التاسع عشر نهاية جزره فى القوتين : المادية والمعنوية ، لأنه تلقى عن القرون السابقة أثقالاً من المتاعب لم تمتحن أمة من قبله بمثلها ، ولانعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الإسلام بعد ماتلقاه من الضربات منذ القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر . . . وإنما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التى صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها وحدة إنسانية هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم . . . ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة ، أو الدول التى سميت بالإمبراطوريات فى العصرين القديم والحديث .

---

(٥) انظر فى هذا الموضوع « التجمعات الدولية الإقليمية » تأليف الدكتور حافظ غانم فصل : « العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها وكتاب « كفاح دين » تأليف المفكر الإسلامى الشيخ محمد الغزالى ص ١١٢ – ١١٣ الطبعة الرابعة .

«وقد رأينا[٦] كثيراً من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية فى مقدمتها من هذه الحركات والإغارات ، أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ماتعاقبها من الأخطار والأخطاء».

وهذه الحروب من غير شك كانت من أعظم الأخطار التى امتحنت بها الأمة الإسلامية . لكنها من غير شك أوقفت عوامل الشقاق بين الأمم الإسلامية ردحاً من الزمن . . . وكان صلاح الدين الأيوبى بطل هذه الحروب غير مدافع فى نظر الدول الأوربية . ونظر الشرقيين على السواء » . . . فهو الرجل الذى هيأته العناية الإلهية لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والحرص على الجهاد ، والتفانى فى سبيله ، وعلو الهمة فى نصر الإسلام ، وحسن القيادة وقوة التنظيم ، والصلاح والديانة ، ومكارم الأخلاق مالايجتمع إلا فى أفذاذ الرجال فى العالم ، وقد توحد العالم الإسلامى من بين نهر الفرات ونهر النيل للمرة الأولى - بعد مدة طويلة - تحت قيادته ، واجتمع تحت لوائه أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع من قبل [٧] » . إلا أن هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته وجن جنونه حين سمع بعزم أرنولد Arnold صاحب « الكرك » على فتح الحجاز ، وإعداد العدة فى البر والبحر لاقتحام المدينة المنورة وهدم المسجد النبوى . . ! فأقسم صلاح الدين ليقتلن هذا الرجل بيده إن مكنه الله منه . فكانت موقعة « حطين »[٨] التى تعد من المواقع الحاسمة فى تاريخ الإسلام . وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والأمراء . . . وعفا عنهم جميعاً إلا أرنولد هذا . . فإنه لم يقبل فيه شفاعة من أحد . . . وتناول سيفه وضرب به عنقه بيده وهو يقول : برئت من شفاعة محمد إن

---

(٦) عباس محمود العقاد الإسلام فى القرن العشرين ص ٤٠

(٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوى ص ١٥٣

(٨) قرية فى فلسطين وعندها كانت المعركة الشهيرة بين صلاح الدين الأيوبى والصليبيين سنة ١١٨٧م.

قبلت فى هذا الأحمق شفاعة شفيع[9] . . . !

• • •

وقد مات صلاح الدين بعد ماقضى مهمته إلى حد بعيد . . وتراجع سيل الصليبيين بعد أن تعلموا دروساً جديدة مفيدة . . . درسوا جوانب الضعف والقوة فى الجبهتين . . . الجبهة الإسلامية . . . والجبهة الصليبية ، وعاد المسلمون سيرتهم الأولى من انقسام وتنافس وغفلة ، ولم تزل قوتهم تضعف وتهن دون أن يشعر بذلك أحد ، حتى كانت الإغارة التترية التى تركت خلفها الدمار والخراب وكشفت للمسلمين وللعالم الخارجى – وبخاصة الصليبى – حقيقة أنفسهم وضعفهم وبعد أن اجتيحت بغداد زال ذلك الشبح ، وسقط « الجدار »[10] فعاثت الطيور والوحوش فى الحقل ، وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم .

• • •

فى ذلك الحين . ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وفتح محمد الثانى مدينة « القسطنطينية » فى سنة ٨٥٧ هـ – ١٤٥٣ م . . فتجدد بهذا الفتح رجاء الإسلام ، وانبعث الأمل فى المسلمين . وكان فتح مدينة « القسطنطينية » دليلاً على قوة الأتراك الحربية ، وحسن قيادتهم العسكرية . وكان عمر « محمد الفاتح » فى ذلك الوقت أربعاً وعشرين سنة .

ويقول البارون كارادافو Baron Carrdevauy « إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة « بيزنطة » بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم كل ما كان فى عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد ، فعمل على تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ ، وانتدب مهندساً مجرياً ركب مدفعاً كان وزن الكرة – القذيفة – التى يرمى

(٩) الإسلام فى القرن العشرين ص ٤١

(١٠) ماينصب فى الزرع لطرد الطير والوحش . ويعرف فى مصر بـ « خيال المآتة »

بها ثلثمائة كيلو جرام . وكان مدى مرماه أكثر من ميل . وقيل إنه كان يلزم هذا المدفع سبعمائة رجل ليتمكنوا من سحبه . وكان يلزم له نحو ساعتين لحشوه . ولما ذهب محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلثمائة ألف مقاتل ، ومائة وعشرون سفينة حربية »[11] .

• • •

ولكن كان من سوء حظ الأتراك والمسلمين معاً أنهم أخذوا في الانحطاط والتدلى ، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم من البغضاء والتحاسد واستبداد الملوك وجورهم ، وسوء تربيتهم ، وفساد أخلاقهم ، وخيانة الولاة والأمراء ، وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة والدعة ، وتفشى الجهل والخرافة . . . » . . . وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى ، فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والأدب ، والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية ، فنظر الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا ، والطبيعة ، والكيمياء ، كأنها الكفر البواح ، أو السحر المزيف . فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه ، وتوسلوا للعمل بغير أسبابه ، واتهموا الناصحين ، وأسلموا مقادتهم للدجالين والمحتالين ، وفي هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء مزيجاً من الخرافة والشعوذة ، ومن الطلاسم والأوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتى وكان طلاب الفتوى – من مشارق الأرض ومغاربها – يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه ؟ ! وهل يجوز قدح النار منه ؟ أو طبخ الطعام على ناره ؟ أو يأثم من يمس صنفرته ، لأنه مادة نجسة تنقض الطهارة[12] » . . !

ومع كل هذه العلل . . فقد كانت الإمبراطورية العثمانية قلعة للإسلام ولم تكد هذه القلعة تنهار ، ويصيبها الوهن والضعف ، حتى فتح الباب على مصراعيه أمام

(١١) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٥٠

(١٢) الإسلام في القرن العشرين ص ٤٣

الغرب . وانطلق البخار المسموم من مراجل الحقد ليدمر كل من يقف فى طريقه إلى الشرق .

« وقد كان القرن التاسع عشر ولاريب أسوأ من كل القرون التى تقدمته لأنه القرن الذى انبعثت فيه « المسألة الشرقية »[١٣] من بقايا الحروب الصليبية . . . وكانت المسألة الشرقية تمخضت عن دور آخر وراءه دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة « الرجل المريض »[١٤] وتبادل الإغضاء عن كل طرف متفق عليه يقع فى قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها على قيد الحياة »[١٥] . . .

إن القلب ليمتلئ رعباً وهو يطالع تفاصيل هذه المؤامرة التى حيكت لتقسيم العالم الإسلامى وابتزازه ، والعمل على تدميره وتحطيمه ، وقد ذكر لنا المرحوم شكيب أرسلان مائة مشروع وضعت لتقسيم دولة الخلافة ، وفى هذا الحوار بين القيصر نيقولا إمبراطور الروسيا ، والسير هاملتون سيموز سفير بريطانيا تتضح أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة ، وكيفية التدبير أو التفكير تجاه العالم الإسلامى وتدميره[١٦] .

« . . . ففى ليلة سمر عند الغراندوقة « هيلانة » الروسية – ٩ يناير ١٨٥٣ م قال الإمبراطور نيقولا للسير هاملتون :

« تأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض . . . ومريض جداً ، ويكون بالفعل وبالا عظيماً علينا إن خرج أمره من أيدينا ! »

وفى مرة ثانية دعى السفير هاملتون لمقابلة القيصر فقال له أيضاً :

– « أنت لا تجهل المقاصد والمرامى التى لا تزال فى الروسيا منذ عهد كاترينا . . .

---

(١٣) كانت المسألة الشرقية تعنى فى أول الأمر تخليص الممالك المسيحية من أيدى الدولة العثمانية وفى مرحلة ثانية أصبحت تعنى تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة لها بين الدول الأوربية .

(١٤) اصطلاح أطلقته الدول الأوربية على الإمبراطورية العثمانية فى مرحلتها الأخيرة .

(١٥) عباس العقاد محمد عبده ص ١٠

(١٦) حاضر العالم الإسلامى ج ٣ ص ٣٠٧ – ٣٠٨

وتركيا هي كما قلت لك – من قبل – رجل مريض ، ويجوز أن تموت بالرغم منا ! فتبقى عبئاً علينا ، وليس فى استطاعتنا نشر الموتى ! ».

– « أفلا يكون من الأفضل بحقنا – تفادياً من حرب أوربية – أن نتفق من قبل على أمرها حتى لاتؤخذ على غرة ! وإننى أقول لك بصراحة . . إننا إن استطعنا أنا وإنجلترا أن نتفق فى هذا الموضوع لم يهمنا الآخرون . . . وأنا لا أكتمك أنه إن كان فى نية إنجلترا الاستيلاء عن الآستانة فلن أتحمل ذلك . لا أقول إن لكم هذه النية . ولكن أقول إن صحت هذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسى أتعهد أيضاً بأن لا أحتلها مالكاً . . . أما بصورة مؤقتة على سبيل الاستيداع فقد أرضى . . ! ! !

وأما إذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها ، فقد يجوز أنى أحتلها قولاً واحداً . . ! ! ! »

فأجاب السير هاملتون : «ليسمح لى جلالتك بالقول إنه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على وشك الهلاك ! »

فرد القيصر فى حدة قائلاً :

« إذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لاتزال فيها عناصر الحياة فتكون المعلومات التى لديها غير صحيحة . . . وأنا أؤكد لك أن المريض هو فى حالة الاحتضار وأنه لا يجوز أن يموت ونحن عنه غافلون . . ! ! بل يجب أن نتفق . . . ولست أكلفكم عقد معاهدة . . أو تحرير صك . . وإنما أطلب كلمة اتفاق عامة ، وهذا كاف فيما بين الرجال الأكياس . . . » .

• • •

لم يحدث فى التاريخ ، وفى أشد عصوره همجية أن تآمر رئيس دولة على دولة مجاورة ، والعمل على تدميرها بهذه الطريقة التى كان يفكر بها قيصر الروسيا ، ولم يحدث فى أظلم عصور التاريخ ، وأشدها همجية ووحشية أن حكم رئيس دولة على دولة أخرى بالموت ، وحدد ساعة موتها بهذه الطريقة ، ولم يحدث ولن يحدث فى

للمستقبل كما نظن . ولكن الأحقاد التي تشعبت جذورها في العقل الأوربي وغارت في أعماق مشاعره وإحساسه هي التي كانت تخطط لهذا العمل الهمجي ، وتنظم هذا الهجوم الوحشي . . . وتتفق على توزيع التركة قبل التنفيذ العملي . . .

وسواء أكان موقف السفير الإنجليزي تعبيراً عن موقف حكومته . . أم لم يكن فإن الواقع ينفي كل اعتبار لحسن النية ، واعتقادنا هو : أن بريطانيا لم تشأ أن تشرك روسيا معها في اقتسام الضحية .

لقد بدأ الهجوم على العالم الإسلامي في كل أقطاره ، وأحاطت به الجيوش والأساطيل ، في عقر داره ، دمرت بريطانيا ممالك الإسلام في الهند ، وسيطرت على الخليج . واحتلت في طريقها عدن ، وأبحرت أساطيلها شرقاً وغربا ، فلم تدع جزيرة في بحر ، أو مدينة على ساحل .

وانطلقت فرنسا من وراء بريطانيا ، فاحتلت الجزائر والمغرب وتونس .

وذهبت إيطاليا إلى الصومال وأريتريا . وسيطرت هولندا على جزر الهند الشرقية بأكملها . . وأحيط بممالك الإسلام وسلطناته في شرق وغرب أفريقيا ، وأخيراً وقعت مصر والسودان في قبضة بريطانيا .

لقد سقط « الجدار » ومشت سكة الأجنبي في حقل الإسلام ، وتداعت الأمم على المسلمين ، كما تنبأ النبي – ﷺ – قبل ذلك بأكثر من ألف وأربعمائة عام[١٧] . . .

• • •

كانت النازلة شديدة ، والكارثة كبيرة ، والمعركة ضد الإسلام والمسلمين ضارية عنيفة . كانت هذه الأيام والسنوات كما يقول المؤرخ الجبرتي « . . . أول

---

(١٧) في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها » . الحديث رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة . انظر : مشكاة المصابيح ج ٢ طبعة المكتب الإسلامي ١٣٨١ هـ .

سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة . والنوازل الهائلة . وتوالى المحن . واختلال الزمن . وانعكاس المطبوع . وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال . واختلاف الأحوال . وعموم الخراب . وتواتر الأسباب ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[١٨] .

• • •

وبدأ رد الفعل . وكان للتصرف الاستعماري البغيض . والتعصب الصليبي المقيت أثره السريع فى الانتفاض واليقظة ، وإعلان الجهاد والثورة[١٩] وكانت

---

(١٨) عجائب الآثار للجبرتى ط الشعب .. القاهرة .

(١٩) لقد كان اول عمل قامت به فرنسا بعد احتلالها الجزائر تحويل مسجد «كيشاوة» التاريخى إلى كاتدرائية Cathedral وأصدرت هيئة البريد الفرنسى طابعاً تذكارياً يمثل الهلال رمز الإسلام وهو يسقط متحدراً إلى قاع البحر على حين يرتفع الصليب رويداً ليغمر بسناه الأفق ..

وخطب جلادستون رئيس وزراء بريطانيا مؤكداً : أننا لانستطيع قهر المسلمين مابقى فيهم الكعبة والمصحف .

وأكد ملك أسبانيا أمام البابا «أن أسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين فى أفريقيا حرباً لاتنفك عنها حتى تغرس الصليب فى ديار المسلمين وتجعل أتباع محمد يخضعون له قهراً» .

ولقد نشرت جريدة العروة الوثقى منشوراً صادراً عن الحكومة البريطانية يرجع تاريخه إلى أول يوم وطئت فيه أقدام الإنجليز الهند ولقد جاء فى هذا المنشور «إذا وجدت فى دوائر الحكومة وظيفة لايقوم بها إنجليزى - أى لاتليق به . يعين فيها أحد البارسيين - المجوس - فإن لم يكن فيهم مقتدر على القيام بها . أقيم فيها وثنى فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء أحد يصلح لما كلف بها مسلم» .

وعندما فتحت قناة السويس أرسل المهندس ديلسبس إلى البابا يقول له : «الآن أصبح الطريق إلى قلب العالم الإسلامى مفتوحاً» . وكانت شركة القناة - قبل التأميم - تخصص فى ميزانيتها خمسة ملايين من الجنيهات لأعمال التبشير فقط سنوياً .

وكان لإيطاليا نشيد يردده جنودها فى أثناء الهجوم على طرابلس الغرب فى ليبيا . يقول هذا النشيد الذى تقطر كلماته سماً وحقداً :

صلى يا أماه ولا تبكى . بل اضحكى وتأملى . ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية . سأحارب بكل قوتى لمحو -

السمة الدينية لزعماء الجهاد والإصلاح ظاهرة فى كل شعب . . وحركة . . وفى الحالات الاستثنائية التى برز فيها قادة مدنيون أو عسكريون نجد أنهم – فى الأصل – نشأوا نشأة دينية ، أو مروا بمرحلة من مراحل التعليم الإسلامى فى مسجد أو جامعة . .

فى مصر كان الأزهر هو المثابة التى يفزع إليها الناس حين يحزبهم أمر ، والمأمن الذى يقصده الشعب حين تضيق به السبل . . وما أكثر ما كان يحزب الناس من أمر وكثيراً ما كانت تضيق بالشعب السبل ، وكان العلماء والمجاورون يستمعون إلى الشعب عندما يلجأ إليهم ، فيغضبون على من أوقع بالناس الظلم ، وكان غضبهم فى

= القرآن . . ! ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليًا حقاً . . يا أماه أنا مسافر . . ألا تعلمين أن الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقى سفائننا على المراسى . . أنا ذاهب إلى طرابلس لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى وذلك القطر تحت ظلها . . لا تنوحى لأننا فى طريق الحياة . . وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك . . ولكن اذهبى إلى المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس ودعاءك الذى يأبى الحداد على قبر لفلذة كبدك . . وإذا سألك أحد عن عدم حدادك على فاجيبيه إنه مات فى محاربة الإسلام . . ! !

وعندما سقطت مدينة القدس فى يد المارشال اللنبى فى الحرب العالمية الأولى خطب وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية !

وفى دمشق : التى سقطت فى يد القوات الفرنسية ذهب القائد الفرنسى غورو إلى قبر البطل صلاح الدين قائلا : لقد عدنا مرة ثانية ياصلاح الدين !

وفى عام ١٩٥٦ فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر كتب المستر إيدن رئيس وزراء بريطانيا إلى الرئيس الأمريكى « أيزنهاور » يستنجد به لإنقاذ الحضارة المسيحية .

وحملات الإبادة ضد المسلمين فى الحبشة وأريتريا والفلبين لاتزال مستمرة حتى – كتابة هذه السطور .

انظر فى هذا الموضوع :

الغارة على العالم الإسلامى – ترجمة محب الدين الخطيب . مساعد اليافى . وكتاب التبشير والاستعمار – تأليف : عمر فروخ . مصطفى الخالدى – وكتاب لماذا تأخر المسلمون ؟ للأمير شكيب أرسلان . وكتاب كفاح دين للشيخ محمد الغزالى . وكتاب « حاضر العالم الإسلامى » ج ١ . ج ٢ . وكتاب التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية للشيخ محمد الغزالى . و مذكرات إيدن الطبعة العربية . وكتاب « المبشرون والمستشرقون » محمد البهى . وكتاب « يوم الإسلام » لأحمد أمين .

أحيان كثيرة كافياً لأن يرجع الظالم عن ظلمه . بل نجد فى بعض الأحيان أن الحاكم الظالم كان يعلن توبته أمام العلماء ! ويعاهد أمامهم الله أن يعدل فى حكمه . فالأزهر كان بمثابة « البرلمان » الذى يترجم عن رغبات الشعب رضاً وسخطاً . والترجمة عن السخط كانت أكثر بطبيعة الحال ، لأن شئون الحكم فى ذلك الوقت كان فيها الكثير مما يسخط والقليل مما يرضى . وكان وجدان الناس فى أغلب أمصار الإسلام وجداناً دينيًّا . وكانت عاطفتهم فى الأغلب قائمة على الدين والعقيدة ، والعلماء هم حماة الدين ، والأزهر كعبة العلماء والعلم ، فكان العلماء يشعرون بما لهم من مكانة . بقدر ما فى نفوس الناس من عاطفة دينية ، وكان الناس ينظرون إليهم كحماة للشرع والعدل ، ورقباء على صلاح الحكم وتوجيه الحاكم وكبح جماح من يرون فيه الشطط أو الإفساد . وكان الحكام يخشونهم لهذه الأسباب وبخاصة إذا اجتمعت كلمتهم مع الشعب على رأى واحد .

« . . ومن فهم الواقع على جليته أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر ووظائف علمائه تحديداً يعز أحياناً على الدستور المكتوب . فكان منهم من يتولى الصدارة فى شئون السياسة ومخاطبة الحكام : لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح . وكان منهم من يثق الناس بتقواه ، ويطمئنون إلى نزاهته فى أمور الدين والرياسة ، وكان منهم من يفاوض الوالى التركى وليس هو بأعظم علماء البلد وكان منهم من يفاوض القائد الفرنسى ، وليس هو بمكان الرياسة العلمية ، ولكنهم كانوا مرشحين لوظيفة السفارة بما لهم من خبرة فى سياسة الناس ، وأساليب الإقناع ، وعلاج المشكلات ولغيرهم سمعته فى هداية القلوب والبصائر ، والتماس الوسيلة عند الله إذا خابت الوسائل عند العباد »(٢٠)

وقد ذكر الجبرتى - فى حوادث ذى الحجة ١٢٠٩ هـ أن غضب العلماء كان يصل إلى حد الثورة وقيادة الشعب ضد الحكم والسلطة . فقد ذهب جماعة من

---

(٢٠) محمد عبده - عباس العقادص ٤٥ - ٤٦

الناس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر يشكون من ظلم الوالى محمد بك الألفى . . فغضب الشيخ وأمر الناس بغلق حوانيتهم ومتاجرهم ثم جمع العلماء وأمر بقفل الأزهر وسار ومعه خلق كثيرون وهم يهتفون : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات (الضرائب) . . ثم قابلوا مندوب الوالى الذى قال لهم : إن ذلك غير ممكن فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاشات والنفقات . فقال له العلماء : إن الأمير يكون بالإعطاء لا بالأخذ فعاد المشايخ إلى الأزهر واجتمع فيه الكثير من أهل الأزهر والقاهرة وأطرافها وباتوا فى المسجد فخشى الوالى ورجاله مغبة الثورة ، وأرسلوا إلى العلماء يفاوضونهم ثم انتهى الأمر إلى أنهم – أى الأمراء – تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وأن يبطلوا المظالم ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ثم خرج العلماء ومعهم شيخ الأزهر وأمام كل واحد منهم وخلفه جملة عظيمة من الناس وهم ينادون : بطلت جميع المظالم كما رسم سادتنا العلماء[21] .

وحين غزا نابليون مصر عام ١٧٩٨ م ، جمع العلماء . . ثم خرج من المجلس وعاد وهو يحمل بنفسه عدداً من الطيلسانات بألوان العلم الفرنسى ، فوضع واحداً منها على كتف شيخ الأزهر . . فغضب غضباً شديداً ، وتغير لونه ، وألقى بالطيلسانات على الأرض[22] . . . ! لقد رفض العلماء كل محاولة للخداع ، ثم أعلنوا الثورة . . وقادوا الشعب فى جهاده ضد المستعمر . . فركب الفرنسيون رءوسهم وأطلقوا المدافع على الأزهر . . وعلى العلماء ، ثم اقتحموا المسجد ، ودنسوا محاريبه ، وربطوا فيه الخيل والدواب ، فلم ينقض غير قليل حتى خرجوا من مصر مدحورين ، بعد أن خيل إليهم وإلى الناس أن لن يخرجوا منها مكرهين .

• • •

---

(٢١) مصر فى القرن الثامن عشر - محمود الشرقاوى ج ٢ ص١٣٤

(٢٢) المصدر السابق ص ١٣٣

كان الدين هو القوة المحركة الوحيدة فى هذا الوقت . وكان العلماء هم الجزء الحى فى جسم الأمة الميت . . وكما أن السيف والقيثارة قد اجتمعا فى عصور الوثنية - قبل البعثة النبوية - فكذلك اتحد فى الإسلام العلم الدينى . . بالنبوغ الحربى . واستخدمت هذه المواهب فى مكافحة الكفر والزندقة . . . والتاريخ القديم للإسلام . مفعم بالأمثلة الكثيرة التى من هذا القبيل . وأقدم نموذج لهذا ما أثر عن الإمام على بن أبى طالب وسيفه . وقد كان فى الوقت نفسه حجة فى كافة المسائل الدينية التى كان يعالجها بعلمه الدينى الراسخ .

بل إننا نرى غالباً فى الأخبار الدينية المستيقنة هذا الجمع بين المزايا الحربية والعلمية فى أشخاص كانوا على رأس الجيوش المحاربة ، ولكى تثبت استمرار هذه الظاهرة حتى عصرنا الحاضر يكفى أن ندلل على ذلك بـ « عبد المؤمن » مهدى الموحدين فى المغرب ، فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى غادر كراسى التعليم ومنابر الوعظ ليكون على رأس جيشه ، ويؤسس دولة إسلامية عظيمة فى المغرب بعد حروب حماسية أثارها ، وأبدى فيها كثيراً من ضروب البسالة ، والبطل الحديث عبد القادر الجزائرى[٢٣] الذى قاوم الفرنسيين مقاومة حربية باسلة عندما أخذوا فى إخضاع الجزائر ، ولما انتهى جهاده جمع حوله فى منفاه بدمشق طلابه ومريديه الذين تابعوا فى إصغاء واجتهاد دروسه فى الفقه والعلوم الدينية الأخرى .

وممن يمثل هذه الظاهرة الفذة فى تاريخ الإسلام الحديث « شامل » بطل الاستقلال القوقازى ، والمهديون الحربيون الذين ظهروا فى السودان

(٢٣) وقد كان من الأمثلة البارزة الأخرى المرحوم الأمير عبد الكريم الخطابى الذى دوخ الفرنسيين والإسبان فى حرب الريف ببلاد المغرب :

كما كان لحركة الشيخ عبد الحميد بن باديس أثرها فى الثورة الجزائرية ، والحفاظ على الصبغة الإسلامية للشعب الجزائرى . وكانت دروسه ، وحلقات تعليمه مدرسة جامعة للزعماء والعلماء . والرئيس الجزائرى هوارى بومدين واحد من تلاميذه فى هذه المدرسة

والصومال[24] .

وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة الفولانى رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو عرف بأنه مصلح دينى وداع محارب[25] . وقد ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعاد من هناك مليئاً بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة إلى الإسلام ، وتأثر بمبادئ الوهابيين ، وكانت جماعة الفلانى التى ينتسب إليها الشيخ عدة قبائل صغيرة تحيا حياة رعوية هادئة ، فعمل الشيخ عثمان دنفديو على توحيدها ، وجعل منها جماعة قوية ، وقد حاول ملك مملكة « جوبر » الوثنية أن يعوق قوة الفولانى المتزايدة فى مملكته ، فأدى ذلك إلى أن رفع عثمان دنفديو علم الثورة ، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى واستطاع أن يفرض سيطرته على الممالك الوثنية والولايات الإسلامية المجاورة ، فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى وأصبحت كل أراضى الهوصا تحت حكم « دنفديو » قبل وفاته سنة ١٨١٦ ولا يزال قبره فى (سوكوتو) مثابة يقصدها الناس من كل جهة[26] .

وكانت هناك حركات حربية أخرى قام بها رجال جمعوا بين العلم الدينى والجهاد بالسيف ، منهم الحاج عمر الذى ولد سنة ١٧٩٧ م على مقربة من بودور Bodour على السنغال الأدنى ، ويظهر أنه كان رجلاً كريم السجايا ، ذا نفوذ شخصى ، ومظهراً يوحى بالسيطرة والقوة ، وكان ابناً لأحد المرابطين ، وتثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعلمه وورعه ، وقد سافر إلى الحج سنة ١٨٢٧ م ولم يعد إلى وطنه إلا سنة ١٨٨٣ م حيث نشط فى نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة وقد التف حوله كثير من الأتباع ، وكرم كـ « مهدى جديد » وما إن وافت سنة ١٨٤١ م حتى كان قد بلغ جبال فوتاجالون حيث سلح أتباعه

---

(٢٤) العقيدة والشريعة الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٢٥) انظر فى هذا الموضوع «إحياء السنة» تأليف عثمان دنفديو طبع إدارة الثقافة بالأزهر .

(٢٦) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٠ - ٣٦٣

وبدأ سلسلة من الحملات فى نشر الدعوة ، وفى إحدى هذه الغزوات لقى حتفه سنة ١٨٦٥ م[٢٧] . . ولدينا تفاصيل أخرى عن حركة من هذا النوع ، وأحدث زمناً من تلك الحركة التى قام بها الحاج عمر « المهدى السنغالى » . . . وقد قامت هذه الحركة فى جنوب « سنغامبيا » على يد أحد أفراد قبيلة « الماندنجو » ويدعى « أحمد صمودو » وقد ولد أحمد هذا فى سنة ١٨٤٦م وأسس إمبراطوريته فى جنوب « سنغامبيا » فى البلاد التى يرويها نهر النيجر الأعلى وروافده ، وقد بلغ « أحمد صمودو » قوته سنة ١٨٨١ م [٢٨] وبعد ذلك بقليل دخل فى نزاع مع الفرنسيين ، فأسروه سنة ١٨٩٨ م بعد سلسلة من الغزوات القاسية[٢٩] .

ومع اعتقادنا . . بأن هذه الحركات الأفريقية الثلاث قد تركت تأثيرها فى فكر المهدى السودانى بحكم الجوار ، والتقارب العاطفى ، فإننا سنركز فى بحثنا هذا على ثلاث حركات أخرى كان لها فى نظرنا التأثير الأقوى فى تكوين فكر المهدى ، وفى تأثيرها المباشر على السودان ووضعه الداخلى .

هذه الحركات الثلاث هى .

حركة محمد بن عبد الوهاب فى نجد .

وحركة السنوسى فى الشمال[٣٠] من جهة الغرب .

وحركة جمال الدين الأفغانى فى مصر .

• • •

يقول لوثروب ستودارد :

فى القرن الثامن عشر ، كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم

---

(٢٧) المصدر السابق ص ٣٦٧

(٢٨) نفس السنة التى قام فيها المهدى بدعوته

(٢٩) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٩

(٣٠) شمال السودان الغربى (ليبيا)

مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة فاربدّ جوه . وأطبقت الظلمة على كل صقع من أصقاعه ، وانتشر فيه فساد الأخلاق ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل ، وانطفأت قبسات العلم والفضيلة وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا ، استبداد وفوضى ، واغتيال ، فليس يرى فى العالم الإسلامى فى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين ، كسلطان تركيا وأواخر ملوك المغول فى الهند يحكمون حكماً واهنا فاشى القوة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها ، وينشئون حكومات مستقلة ، ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثر السلب والنهب ، وفقد الأمن وصارت السماء تمطر جوراً وظلماً . وجاء فوق ذلك رجال الدين المستبدون (الجامدون) يزيدون الرعايا إرهاقاً فوق إرهاق ، فغلت الأيدى ، وبارت التجارة ، وأهملت الزراعة ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين[٣١] . . .

وأما الدين الإسلامى . . فقد غشيته غاشية سوداء . . فألبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة سجفاً[٣٢] من الخرافات ، وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأدعياء والجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم فى الحج إلى قبور الصالحين ، والأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل ،

---

(٣١) حاضر العالم الإسلامى جـ ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

(٣٢) سجف ، قال فى القاموس المحيط : السجف الستر . وجاء فى أساس البلاغة أسجفت الستر أرسلته ومن المجاز : أسجف الليل : أظلم .

وهتكت ستور الحرمات على غير خشية أو استحياء . ونال مكة المكرمة . والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام . . وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض ورأى ما كان يدعى بالإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان[٣٣] .

وفيما العالم الإسلامي مستغرق فى هجعته ، مدلج فى ظلمته . . إذا بصوت يدوى من أعماق الجزيرة - مهبط الإسلام - يوقظ المؤمنين ، ويدعوهم إلى الإصلاح وكان هذا الصوت . . صوت محمد بن عبد الوهاب . . نشأ فى بلدة « العيينة » فى نجد[٣٤] . وتعلم دروسه الأولى بها على يد علماء الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة المنورة ليتم تعليمه ، ثم طوف فى كثير من بلاد العالم الإسلامى ، فأقام نحو أربع سنوات فى البصرة ، وخمس سنوات فى بغداد وسنة فى كردستان ، وسنتين فى همذان . ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الأشراف والتصوف ، ثم رحل إلى « قم » وأقام بها مدة ، ثم رجع بعد ذلك إلى بلده ، واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بعد ذلك بدعوته الجديدة .

كانت أهم مسألة شغلت ذهنه هي مسألة التوحيد . التى هى عماد الإسلام ، والتى تعبر عنها أصدق تعبير كلمة « لا إله إلا الله » والتى تميز بها الإسلام عما عداه من الأديان . والتى جاء بها وجاهد فى سبيلها محمد رسول الله ﷺ .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ، ولا فى حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ، لأنه تعالى ليس فى حاجة إلى عون أحد من خلقه ، فهو الذى بيده الحكم وحده . وهو الذى بيده النفع والضر وحده ، ولا شريك له فى ملكه ولا حكمه ، فمعنى لا إله إلا الله ليس

---

(٣٣) حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٥٩

(٣٤) ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ وتوفى فى سنة ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٠٣ ١٧٩١م.

فى الوجود سلطة حقيقية تسير العالم وفقا لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو .

إذاً . . فما بال العالم الإسلامى اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص ويشرك مع الله كثيراً من خلقه ، فهؤلاء الأولياء يحج إليهم ، وتقدم لهم النذور ويعتقد أنهم قادرون على النفع والضر ، وهذه الأضرحة المقامة فى شتى ديار الإسلام يشد الناس إليها الرحال ، ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويرجون منها جلب الخير ودفع الشر ، فى كل بلدة ضريح أو أضرحة ، تشرك مع الله فى تصريف الأمور كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين ، يتقرب إليه بذوى الجاه عنده وأهل الزلفى لديه ، أليس هذا كما يقول مشركو العرب « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[٣٥] وقولهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[٣٦] . . . بل وا أسفاه لم يكتف المسلمون بذلك .

بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد . . فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون فى نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة ، من قصدها من العوانس تزوجت لعامها . . وهذا الغار فى الدرعية يحج الناس إليه للتبرك . . وفى كل بلدة من بلاد الإسلام مثل هذا . . ففى مصر « شجرة الحنفى »* و « نعل الكلشنى »

---

(٣٥) الآية رقم ٣ من سورة الزمر

(٣٦) الآية رقم ١٨ من سورة يونس .

* شجرة الحنفى : كانت فى مسجد من مساجد القاهرة يسمى مسجد « الحنفى » و « نعل الكلشنى » نعل قديم كان فى إحدى التكايا القديمة تعرف بتكية الكلشنى . وكانوا يعتقدون أن من يشرب الماء المنقوع فى هذه النعل يشفى من داء العشق !

أما بوابة المتولى . . فهى إحدى البوابات الرئيسية لمدينة القاهرة القديمة من جهة الغرب . وتقع فى حى الدرب الأحمر بجوار مسجد المؤيد قريباً من الجامع الأزهر وكان النساء يذهبن إلى هذه البوابة ويربطن فى مساميرها الضخمة بعض خصلات من شعرهن وكان الاعتقاد عندهن أن من تفعل ذلك تحل مشكلتها فى الحب أو البغض . . زعماء الإصلاح ص ١٢

و « بوابة المتولى » وفى كل قطر حجر وشجرة . . فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد الذى كان يفكر فيه محمد بن عبد الوهاب وهو « أن الله وحده هو مشرع العقائد ، وهو وحده الذى يحلل أو يحرم ، فليس كلام أحد حجة فى الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين . فالله تعالى يقول « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »[٣٧] . . . إذاً . . . فكلام المتكلمين فى العقائد وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا . . . الحجة فقط الكتاب والسنة ، وكل مستوف حق الاجتهاد له الحق أن يجتهد ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام على حسب فهمه لنصوص الكتاب ، وما صح من السنة – ما يؤديه إليه اجتهاده . » .

وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين إذ أضاع شخصيتهم ، وقوتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون وراء جملة فى كتاب ، أو فتوى مقلد مثلهم ، حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضاً ، ولا منجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله والرجوع إلى الدين فى أصوله ومنابعه .

يقول المولى محمود الألوسى[٣٨] أحد مريدى الشيخ :

« . . . ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والإنكار على الناس ، فتبعه أناس من أهل بلدة « حريملة » واشتهر بذلك ، وكان رؤساء بلدة حريملة قبيلتين أصلها قبيلة واحدة وكل منها يدعى الرئاسة . وليس فى البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لإحدى القبيلتين عبيد يقال لهم « الحميان » وهم أهل فساد فأراد الشيخ محمد أن يمنعهم من فسقهم وفجورهم . وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر . فهمّ العبيد

---

(٣٧) الآية رقم ٢١ من سورة الشورى

(٣٨) من كبار علماء العراق فى القرن الثانى عشر الهجرى وهو صاحب تفسير روح المعانى المشهور بين كتب التفاسير

ليلاً بقتله خفية ، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم . فانتقل الشيخ محمد من بلدة حريملة إلى «العيينة» ورئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر فتلقاه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال الشيخ محمد له :

إنى أرجو إن أنت قمت بنصر «لا إله إلا الله» أن يظهرك الله وتملك «نجداً» . فساعده عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشدد فى النكير على الناس ، فتبعه بعض أهل «العيينة» وقطع أشجاراً كانت تعظم فى تلك النواحى ، وهدم قبة قبر زيد بن الخطاب – رضى الله عنه – عند «الجبيلة» فعظم أمره .

فبلغ خبره إلى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صاحب الأحساء والقطيف وما حوله من العربان . . فأرسل سليمان كتاباً إلى عثمان وكتب فيه :

« . . . إن «المطوع»[39] الذى عندك قد فعل مافعل ، وقال ما قال . فإذا وصلك كتابى فاقتله . فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا فى الأحساء» ، وكان خراجه ألفاً ومائتين ذهباً ، وما يتبعها من طعام وكسوة .

فلما ورد الكتاب إلى عثمان لم تسعه مخالفته ، فأرسل إلى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا اليوم بحرب سليمان . فقال الشيخ محمد :

إنك إن نصرتنى ملكت نجداً . فأعرض عنه عثمان ، وأرسل إليه ثانياً أن سليمان أمرنا بقتلك فى بلدنا فشأنك ونفسك وخل بلادنا . وأمر فارساً يقال له «الفريد الظفيرى» بإخراجه من البلد ، فركب الفارس جواده ، والشيخ يمشى على رجليه أمامه ، وليس معه إلا المروحة ، وذلك فى أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس بقتله فى الطريق ، فكف الله يده عنه ، لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخلى سبيل الشيخ . فسار الشيخ إلى «الدرعية» وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والألف

---

(39) المطوع كلمة تطلق على علماء الدين فى الجزيرة العربية وإمارات الخليج ولاتزال هذه الكلمة شائعة إلى اليوم فى هذه المناطق .

من الهجرة . . . ووصل إليها وقت العصر فنزل فى بيت عبد الله بن سويلم العريني . . فلما دخل عليه ضاقت به داره ، وخاف على نفسه من محمد بن سعود صاحب الدرعية ، فوعظه الشيخ حتى سكن روعه وقال :

سيجعل الله لنا ولك فرجاً . . فاستقر . . فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ، ويرغبه فى نصرته ، فالتجأ إلى أخويه « مشارى » و « وثنيان » وإلى زوجته « موضى بنت أبى وحطان » من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقذف الله محبة الشيخ فى قلبها ، فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله وقالت له : إن هذا الرجل أتى إليك ، وهو غنيمة ساقها الله إليك ، فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته . فقبل قولها وألقى الله محبته فى قلبه ، ثم سار إليه محمد بن سعود وقال له : أبشر بالخير والعزة والمنعة . فقال له الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد ، وهذه كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك بها وعمل بها ونصرها ، ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمة التوحيد ، وأول مادعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم . . .[40] .

وكان له من التصانيف كتب كثيرة منها : كتاب التوحيد ، وتفسير القرآن ، وكتاب : كشف الشبهات ، والكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب ، هو كتاب « التوحيد الذى هو حق الله على العبيد . . » [41] وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها ، وتعتبر شركاً بالله . . . وأكثرها من البدع والخزافات والمغالاة بتعظيم الأحبار والأولياء . . .

• • •

---

(٤٠) الإسلام فى القرن العشرين ص ١٠٣ وما بعدها .

(٤١) وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى هذا الكتاب ثمانية وستين موضوعاً انظر الطبعة الثالثة من هذا الكتاب ط بيروت ١٣٩١ هـ .

وفى الحقيقة أن محمد بن عبد الوهاب قد تأثر فى دعوته بالإمام ابن تيمية ، ولم تكن حركته هذه إلا إحياء لتلك الحركة (الفكرية) الرائعة التى قادها هذا الإمام الجليل ، وتعرض بسببها لمحن شتى وبلاء أشد[42] .

---

(42) هو تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن تيمية الحرانى الحنبلى ولد فى حران فى يوم 10 ربيع الأول سنة 661هـ وتوفى سنة 728 هـ . كان إماماً فى الحديث حتى قيل : إن كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث ! ولقد تبوأ فى الفقه مكان المجتهد الأول بحق . وقد بلغ من علو شأنه فى العلوم العقلية والمنطقية والفلسفة أن كان المتخصصون فى هذه العلوم يجلسون أمامه كالتلاميذ . زد على هذا كله جرأة وشجاعة بلغتا به أعلى درجات الجهاد والتضحية . ولقد جاهد التتار بالسيف ودخل السجن بسبب آرائه أكثر من مرة ولقد مات فيه رحمه الله رحمة واسعة .

كان ابن تيمية يعيب التعصب لأحد المذاهب الفقهية ، ويوجب على المتعصب العقوبة وكان يقول : من تعصب لواحد من الأئمة بعينه ، فقد أشبه أهل الأهواء . سواء تعصب لمالك أو أبى حنيفة أو أحمد . أو لغير واحد من هؤلاء ، ثم إن غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلا بقدره فى العلم والدين وبقدر الآخرين .. فيكون جاهلا ظالماً . والله يأمر بالعدل وينهى عن الظلم . وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعاراً يوجب اتباعه وينهى عن غيره مما جاءت به السنة . ومن أسباب تسليط التتر على بلاد الشرق كثرة التفرق بينهم فى المذاهب حتى تجد المنتسب إلى الشافعى يتعصب لمذهبه على مذهب أبى حنيفة حتى يخرج عن الدين ، والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على هذا وعلى ذاك . وكل هذا من التفرق والاختلاف الذى نهى الله ورسوله عنه ، وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل المتبعين للظن وماتهوى الأنفس ، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله .. مستحقون للعقاب .

ثم ينهى عن التقليد فيقول :

لاتقلدنى . ولاتقلد مالكا ، ولا الشافعى ، ولاالثورى ، وتعلم كما تعلمنا ، وحرام على الرجل أن يقلد فى دينه الرجال ، فإنهم لم يسلموا أن يغلطوا .. والتفقه فى الدين فرض فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقهاً فى الدين .

وقد قرر ابن تيمية أن لبعض الناس كرامات ، وأن بعضهم يجرى الله على يديه خوارق العادات ولكن ذلك لايقتضى أنهم أناس معصومون من الخطأ . بل هم عباد مخاطبون بالتكليف تجرى عليهم أحكامه ، وإن الكرامة ليست أفضل من الاستقامة ولذلك كان بعض الصالحين . يطلب من الله تعالى أن يهبه الاستقامة وينقل فى ذلك كلمة أبى على الجرجانى وهى : «كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة . فإن نفسك منجبلة على الكرامة ، لما فيها من حب الظهور والتميز ، وذلك يتطلب منك الاستقامة ، وإن تلك الكرامة لاتسوغ أن يتخذ الرجل الصالح وسيلة لله سبحانه إذ أن التوسل لله تعالى بغير عباده جائز ولذلك نهى النبى ﷺ أن —

لقد عرف محمد بن عبد الوهاب « ابن تيمية » عن طريق دراسته الحنبلية فأعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفى المتحف البريطانى بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط يده . . . فكان ابن تيمية إمامه ومرشده ، وباعث تفكيره والموحى إليه بالاجتهاد والإصلاح والدعوة .

= يستغفر للمشركين ولو كانوا أولى قربى . .

ولقد قال النبى ﷺ لأقاربه الأدنين « يامعشر قريش : اشتروا أنفسكم من الله فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يابنى عبد المطلب : لا أغنى عنكم من الله شيئاً ياعباس بن عبد المطلب . لا أغنى عنك من الله شيئاً ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يافاطمة بنت رسول الله سلينى من مالى ماشئت . . لا أغنى عنك من الله شيئاً . .

كما أن الاستغاثة بغير الله عند ابن تيمية ممنوعة بإطلاق . لأن النبى ﷺ قال : « إنه لايستغاث بى . وإنما يستغاث بالله » . . وقد نقل عن أحد كبار المتصوفة وهو أبو يزيد البسطامى أنه قال « استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق » .

وكما أنه لايتقرب إلى الله بعباده الأحياء . ولايستغاث بهم . فإنه لايتقرب بالأموات ولايستغاث بهم . ويقول فى ذلك : إنه ليس لنا أن نطلب من الأنبياء والصالحين شيئاً بعد موتهم - وإن كانوا أحياء فى قبورهم - لأن ذلك ذريعة إلى الشرك . وعبادتهم من دون الله . . وإذا كان التقرب أو الاستغاثة بالصالحين غير جائزين فى الحياة وفى الممات إذ أنه يشبه النذر للقبور . أو لسكان القبور أو العاكفين على القبور أو العاكفين على القبور فإن ذلك كله حرام إذ أنه يشبه النذر للأوثان سواء أكان نذر زيت أم كان غيره . ويقول فى ذلك : ومن اعتقد أن للقبور نفعاً أو ضرًّا فهو جاهل . وأن من يعتقد أن هذه النذور باب الحوائج إلى الله تعالى ، وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق ، وتحفظ « العمر » فهو مشرك يجب قتله .

والنتيجة المنطقية لهذا كله : أن زيارة قبور الصالحين بقصد التبرك غير جائز . أما إن كان للعظة والاعتبار فإنه يجوز

(أ) انظر فى هذا الموضوع مجموعة الرسائل ج ١ لابن تيمية

(ب) تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٧ ومابعدها

(جـ) العقائد الإسلامية للفقيه المصرى الشيخ السيد سابق

(د) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

(هـ) عقيدة المسلم للأستاذ الشيخ محمد الغزالى .

(و) محاضرات فى الفكر الإسلامى للدكتور محمد البهى

فقد دعا مثله إلى رد البدع ، والتوجه بالعبادة إلى الله وحده . . لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة ، وزيارة القبور إن كانت فللعظة والاعتبار ، لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لايملكون شيئاً بجانب الله وقوانينه الثابتة التى لاتتخلف ، والتى تنظم بها كونه .

كما كان محمد بن عبد الوهاب يرى أن ضعف المسلمين ، وسقوط همتهم ونفسيتهم ليس له من سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة فى أول أمرها صافية نقية من أى شرك ، وكانت : « لا إله إلا الله » معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت فى سبيل الحق ، وعدم الخوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب ، ولاقيمة للحياة إلا إذا بذلت فى رفع لواء الحق ودفع الظلم ، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها : عزوا ، وملكوا ، وفتحوا . .

ويرى الفقيه المصرى الشيخ محمد أبو زهرة[٤٣] : أن الوهابيين لم يزيدوا فى العقائد شيئاً عما جاء به ابن تيمية ، ولكنهم تشددوا فيها أكثر مما تشدد ورتبوا أموراً علمية لم يكن قد تعرض لها ، لأنها لم تشتهر فى زمانه وعهده ، فهم لم يكتفوا بجعل العبادة كما قررها الإسلام فى القرآن والسنة ، وكما ذكر ابن تيمية ، بل أرادوا أن تكون العادة أيضاً غير خارجة على نطاق العبادات ، ولذلك حرموا الدخان وشددوا فى التحريم حتى إن العامة منهم يعتبرون المدخن كالمشرك ، وكانوا يحرمون على أنفسهم القهوة ومايماثلها ، وقد تساهلوا فيها بعد ذلك ، ولم تقتصر دعوة محمد ابن عبد الوهاب على الدعوة المجردة ، بل عمدت إلى السيف لمحاربة المخالفين لهم باعتبار أنهم يحاربون البدع ، وهى منكر تجب إزالته ، وأنهم تشددوا فى أمور ليس فيها وثنية ، ولا مايؤدى إلى الوثنية ، وأعلنوا استنكارها كالتصوير الفوتوغراف وأنهم توسعوا فى معنى البدعة ، حتى زعموا أن وضع ستائر على الروضة الشريفة أمر

---

(٤٣) تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ ص ٢٥١ ومابعدها .

يدعى . ولذلك منعوا تجديد الستائر التى كانت عليها حتى صارت أسمالاً بالية[٤٤] .

• • •

وقد شعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها والحجاز موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها فى العالم الإسلامى مركزاً ممتازاً تفقد الكثير منه إذا أفلت الحجاز من يدها . فأرسل السلطان محمود إلى « محمد على » والى مصر أن يخرج بجيوشه للقضاء على الحركة وفى الوقت نفسه بدأت حملة واسعة من الدعاية ضد الحركة والدعوة . وحمل عليها علماء الإسلام حملة منكرة ، وقد انتهت هذه الحملات بالهزيمة العسكرية للوهابيين ، ولكن الدعوة بقيت كامنة فى القلوب والعقول ، ومن حين إلى آخر ، كانت هذه الدعوة تجد الفرصة الملائمة للظهور حتى آل إليها فى نهاية الأمر حكم هذه البلاد الواسعة بعد أن اندمجت أجزاؤها المبعثرة واتحدت تحت راية التوحيد ، وصارت مملكة إسلامية تحت حكم آل سعود وطار ذكرها فى العالم متخطياً كل الحواجز والقيود . . .

كان موسم الحج ميداناً صالحاً لعرض الدعوة على أكابر الحجاج وإستمالتهم فإذا عادوا إلى بلادهم كانوا من الداعين إليها . والمتحمسين لها ، ومن هذا الطريق طريق الحج . بدأت الدعوة فى الذيوع والانتشار فى ربوع العالم الإسلامى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . .

فى « الهند » حمل الدعوة الوهابية الإمام السيد أحمد الشهيد المولود فى « راى بريلى » سنة ١٢٠١ هـ ، ونظم جماعة إسلامية كبيرة أحسن تربيتها الدينية والحربية ، وهاجر معها من طريق « بلوخستان » وأفغانستان إلى حدود الهند الشمالية ، واتخذها مركزاً لدعوته . ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز ، وتأسيس دولة إسلامية على الكتاب والسنة . وقد انتصر هؤلاء المجاهدون على « السيخ » الذين احتلوا

(٤٤) المصدر السابق ص ٢٥٢

البنجاب ، واستولوا على « بشاور » وما حولها من القرى والمدن ، وطبقوا النظام الإسلامى فى كل شبر حرروه من الاستعمار الإنجليزى والوثنى ، واستطاعوا فى فترة وجيزة السيطرة على معظم الولايات فى الحدود الشمالية الغربية [٤٥] .

وفى زنجبار : قامت حركة مشابهة لحركة ابن عبد الوهاب ، واقتفت أثره فى الدعوة والإرشاد ، وحملت لواء الثورة على البدع والخرافات .

وانتقلت الدعوة الوهابية إلى شمال أفريقيا على يد الإمام السنوسى الذى نتناول حركته بالتفصيل بعد الفراغ من محمد بن عبد الوهاب .

وفى اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمته ، وهو الإمام الشوكانى ، فسار على النهج نفسه ، وألف كتابه القيم « نيل الأوطار » شارحاً فيه كتاب ابن تيمية . . . « منتقى الأخبار » عارضاً الأحاديث النبوية ، مجتهداً فى فهمها ، وفى استنباط الأحكام الشرعية منها ، ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ، ودعا فى قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها وقد قال فى « نيل الأوطار » . . . « . . . وكم سرى عن تشييد القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام . منها : اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجح المطالب ، . . . ومع هذا الكفر الشنيع لانجد من يغضب لله ويغار على دينه الحنيف ، لا عالما ، ولا متعلماً ، ولا وزيراً ولا ملكاً وقد بلغ الأمر أن الواحد منهم يحلف بالله كاذباً ، فإن قيل له احلف بشيخك تلعثم وتلكأ . وهذا من أبين الأدلة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة[٤٦] .

---

(٤٥) انظر فى هذا الموضوع .

كتاب : إذا هبت ريح الإيمان للمفكر الإسلامى «أبو الحسن الندوى ، طبعة الهند وكتاب موجز لتاريخ تجديد الدين وإحيائه للعلامة المودودى ص ١٢١ ط بيروت

(٤٦) زعماء الإصلاح ص ٢٢

وفى سومطرا وجدت الدعوة الوهابية لها أعواناً ، وأنصاراً على يد الحجاج الذين زاروا مكة واعتنقوا الدعوة ، وقد عظم شأن هذه الدعوة هناك حين بدأت توسع نطاق نفوذها بالقوة ، ولم يستطع الهولنديون كسر شوكتها قبل ستة عشر عاماً من القتال فوق أرض سومطرا[٤٧] .

وفى غرب أفريقيا انتشرت هذه الدعوة على يد المجاهد الشيخ عثمان دنفديو كما سبق بيانه[٤٨] .

وفى مصر شب الشيخ محمد عبده ، فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو ، فرجع إلى أصولها من عهد ابن تيمية إلى عهد ابن عبد الوهاب ، وقد هداه بحثه واجتهاده إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب دعوته وهما محاربة البدع ، وفتح باب الاجتهاد .

وقد ذكر باول شمستر Paul Schmits فى كتابه الإسلام قوة الغد[٤٩] : إن الوهابيين أمتد سلطانهم إلى كربلاء فى العراق ، وإلى جبال لبنان وامتدت سيطرتهم إلى شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندى .

ومهما يكن قول المؤرخين والفقهاء فى حركة محمد بن عبد الوهاب ، فإنها فى الحق : — وكما يقول العلامة محمد إقبال — كانت « أول نبضات الحياة فى الإسلام الحديث ، وقد كانت هذه الحركة مصدر إلهام بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمعظم الحركات الإسلامية الكبرى فى آسيا وأفريقيا[٥٠] » .

• • •

---

(٤٧) الإسلام قوة الغد العالمية ص ١١٩

(٤٨) انظر فى هذا الموضوع : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى ص ٧٦ وكتاب الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٢ .

(٤٩) الإسلام قوة الغد العالمية ص ١١٣

(٥٠) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٧٧ ط القاهرة

أما ثانى هذه الحركات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، فهى الحركة السنوسية . وتنسب هذه الحركة إلى السنوسى الكبير . وهو « محمد بن على السنوسى الخطابى الإدريسى » ولد فى سنة ١٢٠٢ هـ . وتوفى سنة ١٢٧٦ هـ . والمسرح الزمنى لهذه الحركة هو النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد ولد السنوسى فى قرية « الواسطة » بالقرب من بلدة « مستغانم » فى الجزائر . وينتهى نسبه إلى الحسن السبط بن على بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله – ﷺ – ، كما ينتسب إلى الأدارسة التى أسس إدريس الأكبر دولة لهم فى مدينة « وليلى » بمراكش (المغرب) سنة ١٧٢هـ فى القرن الثامن الميلادى .

وهو من عائلة عرفت بالعلم ، ويرجع إلى عمته السيدة فاطمة الفضل فى تنشئته الدينية والعلمية بعد أن توفى والده فى سن الخامسة والعشرين ، وبقى هو فى كنف عمته ، ويقال إنه كان لها شغف علمى ، وإنها انقطعت للدرس والوعظ والإرشاد . كما يقال : إنه كان يتردد على مجلسها كثير من الرجال[٥١] وقد التحق وهو فى سن صغيرة بأحد معاهد بلدة « مازون » بالجزائر . ثم ذهب إلى « فاس » للالتحاق بجامع « القرويين » الذى يشبه الجامع الأزهر فى التعليم ، وهناك فى جامع القرويين درس السنوسى فقه المالكية وبعد أن أجيز أقام للتدريس فيه فترة من الوقت ، ثم أقبل على التصوف ، فتتلمذ على يد الشيخ أحمد بن محمد التيجانى – صاحب الطريقة التيجانية – التى أسست فى آخر القرن الثامن عشر فى بلاد الجزائر .

وعندما بلغ سن الثلاثين ترك السنوسى الكبير مدينة « فاس » قاصداً مكة لأداء فريضة الحج ، وهناك – أى فى مكة – أقام ست سنوات ودرس خلالها الفقه الإسلامى على علماء مكة . وتعرف على أحوال المسلمين عن طريق اتصاله بالحجاج فى موسم الحج ، ثم عاد إلى الجزائر حوالى سنة ١٨٢٥ م وبقى هناك إلى سنة ١٨٣٣م أى بعد الحملة الفرنسية على الجزائر بثلاث سنوات ، ثم ذهب مرة

---

(٥١) محاضرات فى الفكر الإسلامى ص ٧٣

ثانية إلى الحجاز وأقام بمكة حوالى ثمانى سنوات أخرى واظب فيها على التحصيل والدرس والتقى فيها ببعض العلماء منهم السيد أحمد بن إدريس الفاسى الرئيس الرابع للطريقة القادرية المراكشية الذى تجاوب معه روحياً وعلمياً . ثم صحبه فى رحلته إلى اليمن وكان معهما فى هذه الرحلة السيد محمد عثمان الأميرغنى أحد تلاميذ السيد أحمد الفاسى ، ومؤسس الطريقة الأميرغنية فى السودان . وقد عاد السنوسى بعد ذلك إلى مكة . وأسس زاوية « جبل أبو قبيس » فالتف الناس حوله وأقبلوا عليه ، فخشى رجال الدولة العثمانية من حركته هذه متأثرين فى ذلك بما لاقوه من الحركة الوهابية وانضم إليهم العلماء وشيوخ مكة وساندوهم فى هذا الموقف كما فعلوا ذلك من قبل فى مقاومة الحركة الوهابية(٥٢) .

وقد ترك السنوسى الحجاز متجهاً إلى القاهرة ومعه بعض أتباعه ، وأقام فيها بضعة أشهر بين علماء الأزهر وطلابه ، ثم اضطر بعد ذلك إلى الرحيل خوفاً على حياته بعد أن تعرض للقتل بسبب آرائه واجتهاده .

يقول الشيخ محمد عبده(٥٣) :

إن الشيخ السنوسى كتب كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على فقه المالكية ، وجاء فى كتاب له مايدل على أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة . وأنه قد يرى مخالفة رأى مجتهد أو مجتهدين إذا ما اقتنع برأيه وفقاً للكتاب والسنة . فعلم بذلك أحد المشايخ (٥٤) المالكية . فحمل حربة وطلب الشيخ ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، ولولا مغادرة السنوسى للقاهرة لارتكب الشيخ الفاضل

---

(٥٢) كان السنوسى قد اعتنق المذهب الوهابى أو السلفى فى أثناء إقامته فى الحجاز ، ونادى بفتح باب الاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة انظر فى هذا الموضوع الإسلام قوة الغد العالمية ص ١١٩ - والدعوة إلى الإسلام ص ٣٧١ وانتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء ص ٢١

(٥٣) الإسلام فى القرن العشرين ص ١١١

(٥٤) هو الشيخ عليش وكان من كبار علماء الأزهر . وكان مالكى المذهب

هذه الجريمة وقتل السنوسي ورأيه بهذه الحرية . . . !

إنها مأساة الفكر في كل عصر ، وهي مأساة تبلغ ذروتها حين تنسب إلى دين من أهم خصائصه إعمال النظر والفكر ، ويعتبر العقل أساس التكليف في كل مايصدر عنه من نهي أو أمر .

• • •

لقد رحل صاحبنا عن القاهرة ، واتخذ مقامه في الصحراء الليبية مبتدئا حركته الإصلاحية ، واختار لمقامه « واحة جغبوب » وبنى بها مسجداً ومدرسة للعلوم الدينية ، ثم بدأ في نشر طريقته ببناء الزوايا في أرجاء العالم الإسلامي ، فقام الكثير من هذه الزوايا في « برقة » وطرابلس ، ومصر ، والسودان ، وبلاد العرب ، . . .

ولم يمت السنوسي في عام ١٨٥٩م حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية بقوة عبقريته الصافية ودان أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة ، وقد التزم هؤلاء الأتباع بتنفيذ أوامر القرآن بدقة ، وقد أوجبوا على أنفسهم الامتناع عن شرب القهوة ، والتدخين ، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود والمسيحيين ، وأن يساهموا بنصيب من أموالهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها ؛ كما أوجبوا أن يكون نشاطهم كله موجهاً إلى خدمة الإسلام ، وإلى مقاومة التدخل والنفوذ الأوربي في أي بلد من بلدانه ، وفي أي قطر من أقطاره .

وكانت زواياهم الفرعية قد بلغت ١١٢ زاوية ، وكانت هذه الزوايا الفرعية تتلقى التعاليم والأوامر – من الزاوية الرئيسية في الجغبوب – في كل المسائل المتعلقة بشئون هذه الدولة الدينية الكبرى التي كانت تضم في نظام رائع آلافاً من أشخاص ذوي جنسيات وقوميات متباينة . وقد شمل نشاطهم أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة . بل نجدهم كذلك في بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو[٥٥]

(٥٥) حاضر العالم الإسلامي ص ١٠٦ ج ٢

ومع أن السنوسية كانت فى أول أمرها حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه . . . فإنهـا أصبحت إلى جانب ذلك ، حركة لنشر تعاليم الدعوة[٥٦] وأصبحت عدة قبائل أفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً اسمياً ، أصبحت هذه القبائل من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية ، وكان لهم نشاط كبير فى بلاد الجلا Galla كما كان لهم نفوذ فى بلاد هرر Harer . وقد ظفروا من استيطانهم فى الصحراء وبخاصة فى وادى Wadai بزيادة كبيرة فى عددهم ، وكان يتم ذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم فى « جغبوب » مركز الحركة فإذا ما رأوا أنهم تعلموا مبادئ الدعوة تعليماً كافياً ، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كى يدخلوا إخوانهم فى الإسلام[٥٧] .

• • •

لقد بلغت السنوسية فى دعوتها أقصى درجات النجاح ، بفضل هذا النظام الدقيق الذى كانت تسير عليه « الزوايا » وما اتسم به هذا النظام من « إسلامية » التوجيه والفكر ، بين القائمين فيها والمترددين عليها ، كما كان لشخصية السنوسى الكبير أثرها الفعال فى إضفاء نوع من التقديس والاحترام على هذه الزوايا وفرض سيطرته عليها ، وكانت الزوايا من جانب آخر هى المجال العلمى لأفكار السنوسى « . . . والزاوية من الجهة المساحية كانت تضم المؤسسات الآتية :

(أ) مسجداً .

(ب) مدرسة لتحفيظ القرآن .

(جـ) مساكن للطلاب الغرباء يطلق عليها « خلوة » وكانت « الخلوة » مقسمة بحسب مواطن الغرباء وكل قسم منها يسمى « رباطاً » .

(د) مكتبة علمية .

---

(٥٦) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧١

(٥٧) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧٢

(هـ) معهداً دينياً لتدريس العلوم الإسلامية .

(و) بيوتاً للإخوان وهم الأساتذة .

(ز) مجلساً للضيوف . وهو مكان يعد لاستقبال الوافدين وإقامتهم فترة من الوقت » .

لهذا . . . كانت لاتقام الزاوية إلا فى بقعة مختارة اختياراً دقيقاً . . . بحيث تسهل فيها الحياة ، وبحيث تؤدى فيها الرسالة لأكبر عدد من الرواد والمقيمين ، فكانت لاتقام إلا بجوار الآبار ، وعلى الأطلال التى خلفها الرومان فى الصحراء ، وفى المواضع الصالحة للزراعة ، وفى المواقع الاستراتيجية ، كأن تكون فى تقاطع عدة طرق أو ملتقى القوافل ، أو قريبة من الحدود الليبية ، فى اتصالها بمصر أو تونس ، أو الجزائر ، أو السودان ، أو قلب الصحراء الكبرى[٥٨] .

وقد تحولت هذه الزوايا السنوسية عندما بدأ الغزو الإيطالى لليبيا عام ١٩١١ م إلى مراكز للمقاومة ، وأدت فى خدمة الوطن الليبى مهمة جليلة ، إذ بفضلها استمرت المقاومة الشعبية من سنة ١٩١١ م - ١٩٢٨ م ولم تنته المقاومة إلا بعد أن تألب العالم الغربى على الحركة السنوسية ، فسلمت إنجلترا واحة « الجغبوب » إلى إيطاليا باسم الحكومة المصرية . . . ! ودخلت الحكومة الفرنسية « فزان »[٥٩] . باسم المحافظة على تونس .

توزيع رخيص للغنائم . . . واتفاق خسيس بين المتآمرين على الضحايا . . لقد تركوا بريطانيا حرة فى ابتلاع السودان ومصر . . . فلماذا لاتتركهم هى الأخرى يفعلون ماشاء لهم الحقد والطمع والغدر ؟ !

وقد استطاعت إيطاليا فى النهاية القضاء على آخر جيوب السنوسية بجريمة بشعة ، فقد ألقى القبض على السيد « عمر المختار » زعيم المقاومة ، ثم حمل إلى طائرة ، وبعد أن ارتفعت فى الجو . أسقطوه منها فوق عدد كبير من الليبيين ،

---

(٥٨) محاضرات فى الفكر الإسلامى ص ٨٢ (٥٩) أحد الأقاليم الليبية من جهة الغرب

فاستشهد فى التو[٦٠]

* * *

ولقد كان السنوسى سياسياً بعيد النظر ، حين اتجه بنشاطه وحركته إلى الجنوب فى الصحراء ، بعيداً عن مركز السلطة ، التى كانت تمثل السلطان ، آنذاك . . ويبدو أنه استفاد من « الدرس » الذى لقنته دولة الخلافة للحركة الوهابية ، ثم إن الجيش الذى قضى على هذه الحركة – وهو الجيش المصرى – كان على مرمى حجر من مقره ، وقد كانت واحة « الجغبوب » مركز الحركة تابعة لمصر فى هذا الوقت كما قدمنا .

يقول باول شمتز :

« لقد تفادى السنوسيون المقاومة ضد سلطان القسطنطينية ، فلم يوجهوا دعاتهم إلى طرابلس ، حيث يعتبر السلطان نفسه هو الحاكم عليها ، وبحثوا عن أماكن لاتقابلهم فيها مقاومة السلطة الحاكمة ، ووجدوا ذلك فى الجنوب ، وكان أحسن حقل تبث فيه دعوتهم ، وعندما غزت إنجلترا السودان لاقت مقاومة عنيفة من المهدى فى السودان . وقدم السنوسيون للمهدى مساعدات كبيرة وعضدوه ضد الغزو الأجنبى[٦١]

* * *

لقد انبعث هذه الحركة فى ظروف عصيبة ألمت بالعالم الإسلامى . . . وداهمته فى معاقله . إنها نفس الظروف التى أحاطت بابن تيمية فى القرن الرابع عشر – قبله – وهى نفس الظروف التى لم تتبدل حين قام محمد بن عبد الوهاب بحركته فى القرن الثامن عشر ، كان الشعور بضعف المسلمين بسبب الفرقة المذهبية والتوجيه

---

(٦٠) محاضرات فى الفكر الإسلامى ص ٧٣ ولقد كان الإيطاليون يحملون زعماء المقاومة فى طائرة ثم يسألون كل واحد منهم عن نبيه فإذا قال « محمد » ألقوه من الطائرة وقالوا له : ليأت محمد ويخلصك .. !

(٦١) الإسلام قوة الغد العالمية ص ١٢١ - ١٢٢

المنحرف فى الشئون الدينية ، والانهيار الاقتصادى ، وتهديد الغزو الأجنبى ، وتفكك أجزاء الوطن الإسلامى وضعف السلطة فى مقر الخلافة كما كان الحال فى بغداد على عهد ابن تيمية ، كان الحال كذلك فى « القسطنطينية » على عهد محمد ابن عبد الوهاب ، ومحمد بن على السنوسى ، كان الشعور بضغط العالم غير الإسلامى ، على العالم الإسلامى يتمثل فى عهد ابن تيمية فى هجوم التتار والصليبين منذ آخر القرن الحادى عشر إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر .

وفى عهد محمد بن عبد الوهاب والسنوسى بدأ يتمثل فى هجوم الاستعمار الغربى على رقعة العالم الإسلامى ، ولهذا نرى أن ما يؤثر من آراء السنوسى لابن تيمية ولمحمد بن عبد الوهاب من بعده ، وما فعله السنوسى نفسه يعتبر رد فعل لعوامل واحدة ، وعلاجاً لحالة متشابهة .

وقد ترك لنا السنوسى بعض آثاره[٦٢] العلمية التى يمكن أن نلخص آراءه واجتهاده فيما يأتى :

أولاً : وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة .

ثانيا : وجوب اتباعهما وتقديمهما على رأى أى مجتهد .

ثالثاً : فتح باب الاجتهاد ورد قول من يقول : إن الاجتهاد قد انقطع .

رابعاً : رفض التقليد والنعى على المقلدين .

يقول لوثروب ستودارد[٦٣] :

« كل هذا برهن على أن السنوسى كان جاداً غير منقطع فى إعداد ما يستطيعه من الوسائل لتنفيذ خطته التى كان ينوى تنفيذها بعد اكتمال العدة ، وكانت هذه الخطة تهدف إلى افتتاح جميع البلاد الأفريقية ، ثم سائر الأقطار الإسلامية .

---

(٦٢) منها كتاب « إيقاظ الوسنان » وكتاب « السلسبيل المعين » محاضرات فى الفكر الإسلامى

(٦٣) حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٩٩

ثم جعل العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه . . . مملكة متحدة على رأسها خليفة واحد . . . »

* * *

الحركة الثالثة والأخيرة من هذه الحركات هى حركة جمال الدين الأفغانى وكما يقول : لوثروب ستودارد(٦٤) :



السيد جمال الدين

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، فلهذا كان المنهاج الذى انتهجه عظيماً ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة بين المسلمين ماقل أن يبلغ سواه ، وكان سائحاً جواباً ، طاف العالم الإسلامى وجال فى غربى أوربا بلداً بلداً ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع

(٦٤) حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٣٠٥

العميق والتبحر الواسع في سير الأمم والعالم علماً راسخاً . وكان جمال الدين بعامل سجيته داعية مسلماً كبيراً ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه ، إنما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب . فانقادت له نفوسهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الأفغاني إلا وكانت فيه ثورة اجتماعية لا تخبو نارها ، وكان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية وأدرك شؤم المستقبل ، وما سيترل بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى إذا لبث الشرق الإسلامي على حاله التي كان عليها ، فهب جمال الدين يضحي بنفسه في سبيل إنقاذ العالم الإسلامي وإنذاره بسوء العقبى .

وتتلخص دعوة جمال الدين . . . في أن العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم . وللإسلام على الخصوص .

فجميع الدول النصرانية متحدة على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . . وإن الروح الصليبية لم تزل كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وإن روح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها متغلغلاً في أحشائها ، ومتمشيا في كل عرق من عروقها . وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد ، والتعصب الديني الممقوت ، وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشئون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين الدولية لم تعامل الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية[٦٥] .

كما تنتحل الدول النصرانية أعذاراً شتى في كرهها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها . . . ولم تزل هذه الدول تتذرع بألوف الذرائع حتى بالحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة . وإن جميع الشعوب النصرانية مجتمعة ومتفقة على عداء

(٦٥) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧، زعماء الإصلاح ص ١٠٥

الإسلام وسحقه سحقاً[٦٦] .

وقد أرقته هذه الحال كثيراً ، وشغلت باله طويلاً . وكان يقول دائماً : « لقد جمعت ماتفرق من الفكر ، ولمت شعث الشعور . ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتني أرض الأفغان وفيها تثقف عقلي ، فايران بحكم الجوار والترابط . فجزيرة العرب . وهي مهبط الوحي . والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها . . . وهكذا . . . كل صقع ودولة من دول الإسلام فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه . فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم . واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف . . فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر المحدق بهم »[٦٧] .

كان له مذهب في الكلام يتفق وطبيعته النارية الملتهبة . . كان يحدث من يفهم ومن لا يفهم ، ومن يستعد ومن لا يستعد . . كالسحاب ينزل الغيث فتنتفع به الأرض الصالحة ، وتسوء به الأرض الفاسدة - وكان من خصائصه كما يقول الشيخ محمد عبده : أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لأنني تؤثر فيّ حالة المجلس ، فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت استعداداً ظاهراً[٦٨] . وكان من عادته « . . . أن يقطع بياض نهاره في داره ، حتى إذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مقهى قرب « الأزبكية »[٦٩] وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة تجمع اللغوى ، والشاعر والمنطقي ، والطبيب ، والكيماوي ، والتاريخي ، والجغرافي . . . فيتسابقون إلى إلقاء

---

(٦٦) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٠٧

(٦٧) العروة الوثقى ص ٤ ط دار العرب القاهرة .

(٦٨) زعماء الإصلاح ص ٧١

(٦٩) حي في وسط القاهرة قريب من الأزهر

أدق المسائل عليه . ويبسط أعوص الأحاجي لديه ، ليحل عقد إشكالها ويفتح أغلاق طلاسمها ورموزها ، فلايتلعثم ، ولا يتردد . بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ويفحم السائلين »[٧٠] .

• • •

كان يرى فى الإسلام مزايا على سائر الأديان كلها ، أولاها : صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهيرها من لوث الأوهام ، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان ، متوحد فى خلق الأفعال ، وإن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد . وثانيتها : أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها وأثبت لكل نفس حق السمو ، ومحق امتياز الأجناس ، وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى ، وثالثتها : أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، فهو كلما خاطب .. خاطب العقل .. وكلما احتكم احتكم إلى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل ، ورابعتها : أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة ، وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم . وفرض نصب المتعلم لتعليم الجاهل ، وإقامة المؤدب ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى هذه الأركان الأربعة بنى الإسلام ، وكل ركن منها له أثره البالغ فى تقويم المدينة ، وتشييد بناء النظام وتدعيم السعادة الإنسانية ، وقد دارت حالة المسلمين رقيًّا وانحطاطاً على حسب تمسكهم بهذه العناصر أو تخليهم عنها[٧١] .

وكان مثله الأعلى حكومة إسلامية واحدة تأتم بالإسلام وتعاليمه .

ولما رأى أن ليس فى الإمكان خضوعاً لأمير واحد .. اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة ويكون لها مقصد واحد . وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولى

---

(٧٠) المصدر السابق ص ٧٢ (٧١) زعماء الإصلاح ص ٧٩

الأمور فيها . . ويقول فى هذا :

« لا ألتمس بقولى أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً . . . فإن هذا ربما يكون عسيراً . . . ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن . ووجهة وحدتهم الدين »[72] .

• • •

لقد طاف فى فارس والهند ، والحجاز والآستانة ، وأقام فيها . ولكن لعل أخصب زمنه ، وأنفع أيامه ، ماكان فى مصر مدة إقامته فيها من أول المحرم ١٢٨٨هـ إلى سنة ١٢٦٩هـ (مارس ١٨٧١م – أغسطس ١٨٧٩م) ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم الإسلامى ، لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها ، ولكن لأنه كان يدفن فى الأرض بذوراً تنبأ للنماء ، وتستعد للظهور ، ثم الازدهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية . وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها[73] .

وكما يقول : باول شمتز Paul Schmits [74] فقد تلقت القاهرة الثائر المصلح وأفسحت له مكاناً . . . وقد تبين لجمال الدين فى القاهرة مدى الخطورة التى تهدد الشرق . ففى مصر تتركز هجمات أوربا فأعلن المقاومة ، ولم يكن كفاحه ضد الاستعمار الغربى أقل من معارضته موقف الطبقات الحاكمة . واستغلال الباشوات الشرقيين للشعوب الإسلامية ، ومن هنا اقتنع اقتناعاً جازماً أنه يجب بذل الجهود ، وشحذ الهمم للمحافظة على الوحدة الفكرية فى العالم الإسلامى . وتثقيف العامة . ورفع مستواهم الفكرى . لأن ذلك يؤثر فى المجال السياسى . ويبين جمال الدين أن

---

(٧٢) المصدر السابق ص ٨٤

(٧٣) المصدر نفسه ص ٦٢

(٧٤) الإسلام قوة الغد العالمية ص ١٠٨

الإسلام يعطى الشعب حق تقرير مصيره . .

وإن نظم الحكم الموجودة لايجوز قبولها على أنها قضاء وقدر كتب على جبين هذا الشعب ، ولاتستسلم لعبثه اعتماداً على أن ذلك إرادة الله . . بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول . . ! لتحل محلها حكومات عادلة . . والدفاع عن الشعب وحقوقه واجب مقدس فى عنق كل مسلم . . وعندما غادر القاهرة مضطرًا فى عام ١٨٧٩م (كما سيأتى بيانه فى الفصل الخاص بالتيارات السياسية) ترك خلفه عدداً من التلاميذ الذين حافظوا على أفكاره ، وكان محمد عبده الذى تولى منصب الإفتاء فيما بعد أنجب تلاميذه. وكان يقول لمن يسألونه بعد مفارقته مصر – عن وصيته :

« حسبكم محمد عبده . . حسبكم محمد عبده من وصى أمين ، وطفق يذكره بعد ذلك فى رحلاته ، ويكتفى من الدلالة عليه بالأخ الصديق[٧٥] » ، ولم يتصل السيد جمال الدين بأحد من أصدقائه وتلاميذه فى مصر إلى ما بعد انتهاء الثورة العرابية[٧٦] . . ثم كتب بعد ذلك خطاباً إلى الشيخ محمد عبده يشكره فيه رعايته لخادمه ، ويذكر له عنوانه فى العاصمة الإنجليزية التى سافر إليها بعد رفع الرقابة عنه فى المنفى ، وقد طلب منه أن يكتب إليه إما فى إدارة « جريدة الشرق والغرب » أو عند الشاعر المستشرق المستر بلنت .

• • •

كان الشيخ محمد عبده يومئذ منفيًا فى بيروت بعد إخفاق الثورة العرابية فبادر بالرد على أستاذه ، وأرسل إليه خطاباً يقول فيه :

« قد تغلب أعوان الشر ، وأنصار السوء ، بقوة جاههم ، وشدة بأسهم فأرغموا العقول على اعتقاد بالمحال ، والتصديق بما لايقال ، حتى إنهم جبروا قلب

(٧٥) محمد عبده تأليف عباس العقاد ص ١٣٠
(٧٦) فى الفصل التالى تفصيل لهذه الحركة

« رياض باشا »[٧٧] عليك وعلى تلاميذك الصادقين أياماً معدودة ركن فيها للعمل بالشدة . والأخذ ببادرة الحدة . لكن لم يلبث أن وصلنا إليه . وجلوت له الأمر وكشفت له ماغمض من الحقيقة . حتى زال ما لبس المبطلون . وهكذا ضمنت كل من كان ينتسب إليك صادقاً فى الانتساب أو كاذباً . حتى إنى لم أتأخر عن مساعدة أولئك الأشقياء الأدنياء وأمثالهم من اللئام . تحسيناً للظن . وإيثاراً للعفو فأصلحت لهم القلوب . وفسحت لهم فى الصدور . وفتحت لهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة . ولكنهم لم يرعوا وداً . ولم يحفظوا عهداً . ولا حاجة الآن إلى إيضاح ماصدر عنهم خيانة ولؤماً . . . ولسيرتنا فى الحوادث نبأ طويل إذا أردت يامولاى أن أقدم إليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً . فإنا رهن الإشارة . ونحن الآن فى مدينة بيروت تقضى بها مدة ثلاث سنوات . لاللذنب جنيناه . ولا جرم اقترفناه . فها نحن سالكون فى سنتك . وعلى سنتك . ولانزال إلى انقضاء الآجال . ولولا أطفال لنا رضع ونساء لنا طوع . أبينا لهم الذل . وأنفنا لهم الضيم . فأتينا بهم إلى هنا . لكنت أول من يلقاك فى مدينة باريس لأسعد بالإقامة فى خدمتك »[٧٨] .

كان سفر السيد جمال الدين إلى أوربا . ونفى الشيخ محمد عبده إلى بيروت فرصة اهتبلها كلا المصلحين لاستئناف جهادهما المشترك فى خدمة الإسلام والمسلمين . فقد استقر الأفغانى فى باريس . ومن هناك كتب إلى الشيخ محمد عبده يأمره بالحضور والإقامة معه . فسافر إليه الشيخ . . وهناك أسسا معاً جمعية « العروة الوثقى » وهى جمعية إسلامية عالمية هدفها إعادة عزة الإسلام ومجده . والعمل على تطهير عقائده . وتحرير العالم الإسلامى من ذل الاستعمار وعبوديته . وأصدرت هذه الجمعية مجلة تحمل اسم « العروة الوثقى » كانت الأفكار فيها للسيد جمال الدين . أما

---

(٧٧) كان رئيس وزراء مصر . قد احتضن كلا من السيد جمال الدين ومحمد عبده فى أول الأمر.

(٧٨) محمد عبده ص ١٣٤ وكان الشيخ محمد عبده قد نفى إلى بيروت بعد فشل الثورة العرابية

الأسلوب والعبارة فقد تركا للشيخ محمد عبده . وقد لخصت هذه الجمعية أهدافها فى العدد الأول من هذه المجلة فيما يأتى :

أولاً : تضع الجمعية نفسها فى خدمة الشرقيين عامة . والمسلمين خاصة فتبين لهم الواجبات التى يجب عليهم القيام بها . والتى كان التفريط فيها سبباً فى تدهورهم وانحطاطهم .

ثانياً : بحث المسائل والعلل التى أدت إلى ضعفهم وفى طليعتها تفريطهم فى دينهم .

ثالثاً : كشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين . وإزاحة الوساوس التى سيطرت على عقول المتعصبين مما أدى إلى اليأس من الإصلاح .

رابعاً : إحياء الأمل فى النفوس . وتوضيح طريق النهوض والتخلص من أسباب العجز وفتور الهمة .

خامساً : الاهتمام بالرد على التهم التى توجه إلى الشرقيين عامة . والمسلمين خاصة . وتفنيد مفتريات الغرب التى تقول : إن المسلمين لن ينهضوا أبداً ماداموا متمسكين بدينهم (٧٩) .

سادساً : اطلاع الشرقيين على الأحداث العالمية وأسرارها . ليحيطوا علماً بما يدبره السياسيون الأوربيون ضدهم . وتعريفهم بما يقع فى العالم حولهم .

سابعاً : تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية . وإيقاظ روح الأخوة بين شعوبها المختلفة (٨٠)

وفى مقال تحت عنوان « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها » تقول مجلة العروة الوثقى :

---

(٧٩) اقرأ فى هذا الموضوع ذلك البحث القيم الذى كتبه المرحوم الأمير شكيب أرسلان فى كتاب « لماذا تأخر المسلمون ؟ »

(٨٠) العروة الوثقى ص ٧

«.... ماذا يصنع المشفقون على الأمة ، والزمن قصير؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم؟ بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم؟ أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل ، وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهض همم آحادها ، ولحم بين أفرادها ، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسهم . إنما هو دين قويم الأصول محكم القواعد . شامل لأنواع الحكم . باعث على الألفة . داع إلى المحبة ، مزك للنفوس . مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق ، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية . . وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية .

فإن كانت هذه شرعتها ، ولها وردت ، وعنها صدرت . فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكنتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًّا . وحدوث بدع ليست منها ، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين . وعما أتى لأجله حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ ، فعلاجها الناجع . إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها . والأخذ بأحكامه . على ما كان فى بدايته وإرشاد العامة بمواعظه وإيقاد نار الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة»[٨١] .

• • •

وتحت عنوان «الوحدة الإسلامية» كتبت المجلة :

«أظلت ولاية الإسلام مابين نقطة الغرب الأقصى ، إلى «توكاى» على حدود الصين . أقطار متصلة . وديار متجاورة . كان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب ، أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً . ما كان يهزم لهم جيش . ولا ينكس لهم علم . ولا يرد قول على قائلهم . . كان

(٨١) العروة الوثقى ص ٢٠

فى نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا ، والفارابى ، والرازى وفى الغرب : ابن رشد ، وابن طفيل ، وما بين ذلك أمصار – تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة ، والطب ، والهيئة والهندسة ، فضلاً عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى طبقات الأمة . . . كان الخليفة العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها « فغفور الصين »[٨٢] وترتعد منها فرائص أعظم ملوك أوربا . . كانت لأساطيل المسلمين سلطة لاتبارى فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ، ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم ، كما يذلون لسلطان غلبهم .

كان هذا شأنهم بالأمس ، فما بالهم اليوم وقد تفرقوا ؟ واختلفوا وتنازعوا وسبقهم غيرهم من الأمم وتأخروا ؟

إنه تنازع الأمراء . وتفرق الكلمة . وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم ، ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة ونعومة العيش ، واختاروا موالاة الأجنبى المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به ، وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم . وهذا هو الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ، ومحا أطلالها ، وهكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ، ودهورتها أمانيهم الكاذبة

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا . والتهالك على الخسائس .

أما وعزة الحق وسر العدل ! لو ترك المسلمون وأنفسهم مع رعاية العلماء « العاملين » لهم ، لتعارفت أرواحهم . وائتلفت آحادهم . ولكن وا أسفاه . . . ! تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك . ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى . هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما

(٨٢) لقب من ألقاب ملوك الصين .

ولاهم الله . حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب »[٨٣].

وفى مقال تحت عنوان « الأمة وسلطة الحاكم المستبد » تقول المجلة :

« . . . إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد . وإنما هى خاضعة لإرادة حاكم واحد . يحكم بما يشاء . ويفعل مايريد . تلك أمة لاتثبت على حال واحد . ولا ينضبط لها سير . فإن كان حاكمها جاهلاً . أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران . وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر . وجار فى سلطته عن جادة العدل . وفتح أبواباً للعدوان . فينقلب القوى على الضعيف . ويختل النظام . وتفسد الأخلاق . ويغلب اليأس . فتمتد إليها أنظار الطامعين وتضرب الدول بمخالبها فى أحشاء الأمة . . . عند ذلك إن كان فى الأمة رمق الحياة . وأراد الله بها خيراً . اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها . وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة . واستئصال جذورها . قبل أن تنشر الرياح بذورها السامة القاتلة وبادروا إلى قطع العضو المجذم قبل أن يسرى فساده إلى جميع البدن فيمزقه »[٨٤].

وقد خصصت « العروة الوثقى » الكثير من صفحاتها للهجوم على دولة بريطانيا لأنها الدولة التى لقى المسلمون « الأمرّين » على يديها . وهى الدولة التى تخصصت فى تمزيق وحدة المسلمين والقضاء عليها . وهى الدولة التى جعلت « إضعاف الإسلام وتنحيته عن الحياة » هدفاً رئيسياً لسياستها . وقد أهابت المجلة بالمسلمين فى كل مكان أن يتنبهوا لمؤامراتها الدنيئة . وضربت له الأمثال فى التهوين من شأن قوتها . وحرضتهم على الثورة عليها . ورفض سيطرتها والركون إليها . وفى هذا تقول العروة الوثقى :

« ذكروا فى أساطير الأولين أن هيكلاً عظيماً كان خارج مدينة « اصطخر » وربما آوى إليه بعض سراة الليل . إذا اشتدت بهم وحشة الظلام . وما اوى إليه

---

(٨٣) العروة الوثقى ص ٧٠

(٨٤) العروة الوثقى ص ١٠٤ انظر فى هذا الموضوع « طبائع الاستبداد » لـ « عبد الرحمن الكواكبى »

أحد إلا غالته المنية ، فيأتى طلاب أثره لتقصى خبره فيدخلون الهيكل فى ضوء النهار ، فيجدونه ميتاً ، ثم لا يهتدون لسبب موته ، لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت ، واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان ، وأخذ كل قاصد حذره من المبيت فيه ، حتى ضاقت الدنيا برجل فاختار الموت على الحياة . فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته ، فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك . فلم يصغ إليهم وقال : إنما أتيت لتلك العاقبة وانفلت من نصحائه إلى حيث يظن هلاكه ، فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جمعاً عظيماً يخاطبه : هانحن وصلنا لتمزيق بدنك ، وسحق عظامك ، فصاح اليائس : ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة . . . فلم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقعة شديدة ، وانحل الطلسم ، وانشق الجدار ، وتناثرت منه الدراهم والدنانير ، وتفتحت أبواب الكنوز . . . ! فاطمأن الخائف ، ونام حتى أصبح ، ولما أضحى النهار وجاءه الواقفون على خبره ليحملوا جنازته ، وجدوه فرحاً مسروراً يسألهم بعض الأوعية ليحمل ماوجده من الذهب والفضة ، فاستخبروه قصته : فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التى لا حقيقة لها . . . !

وبريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوى إليه المغرورون إذا أوحشت نفوسهم ظلمات السياسة ، فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام »[٨٥] .

وفى أسطورة أخرى تقول المجلة :

« قالوا : إن زنجياً أسود ، هائل المنظر ، غليظ الشفتين ، أحمر الحدقتين ، بشع الوجه ، كان يحمل طفلاً فى ليلة مظلمة ، يسير به فى زقاق من أزقة بغداد ، وكان الطفل كلما نظر إليه يفزع ويبكى ويصيح ، وكلما اشتد به الفزع ، ربت الزنجى ومسح على ظهره وقال له : لاتخف ياولدى ، فإنى معك ، وأنيسك وحافظك من كل شر ، فقال له الصبى : إنما خوفى وفزعى منك لامن وحشة الظلام ، وهكذا

(٨٥) العروة الوثقى : ص ٢٢٣ خاطرات : جمال الدين الأفغانى - عبد القادر المغربى ص ٢٠ - ٢١

شأن حكومة إنجلترا مع المصريين ، كلما اشتدت الخطوب ، وعظمت المصائب ، مسحت بريطانيا على ظهر الخديو توفيق ووزرائه بيدها الناعمة - وإنما هى نعومة الثعبان - وأقبلت على الأهالى تمنيهم وتقول لهم : لاتحزنوا فإنى معكم ، وجميع المصريين : من توفيق ووزرائه إلى عامة الأهلين ، يجأرون وينادون : إنما خوفنا منك ، وراحتنا واطمئناننا بتنحيك عنا ، وتركنا وشأننا . . . »[86]

• • •

لقد صدر العدد الأول من « العروة الوثقى » فى ٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ من مارس ١٨٨٤م . وكانت حركة المهدى السودانى على أشدها ، فقد أخفقت كل الحملات العسكرية التى وجهتها بريطانيا للقضاء على هذه الحركة ، وظهر للعالم الإسلامى أن بريطانيا كما تقول مجلة « العروة الوثقى » أسطورة . فاستغلت المجلة هذه الهزائم التى حلت بها وطالبت المسلمين أن يقتفوا أثر إخوانهم فى السودان بالثورة عليها . .

وفى مقال تحت عنوان « سياسة إنجلترا فى الشرق » كتبت المجلة :

« أرسلت بريطانيا غوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المتحاربين ورقية محمد أحمد (المهدى) . . . السودانيون لم تلتئم جراحهم بعد من ظلم غوردون أيام كان حاكماً عليهم ، مستبداً بهم ، وفى علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية . . . فقد طلب وهو فيهم قسيساً من السويس لنشر المذهب البروتستانتى بين مسلميهم . فهل تمكنه الفصاحة الإنجليزية أن يمحص صدور العرب من الضغينة الدينية والدنيوية ؟ وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد (المهدى) بعد ماقام بدعوة عظيمة كهذه . . ؟ »[87] .

وفى مقال بعنوان « نصيحة » تقول المجلة :

---

(٨٦) العروة الوثقى ص ١٣٨ خاطرات جمال الدين الأفغانى ص ٢٢

(٨٧) العروة الوثقى ص ١٥٥

«أشد ما كانت هيبة الإنجليز وملكتهم «فكتوريا» على الشرقيين. إلا أن هذه الدولة ألجأتها حوادث السودان أن تسوق جيشاً للايقاع بجيش «عثمان دقنة» – أحد قواد المهدى – إلا أن عثمان دقنة دفع على الصفوف الإنجليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم، فهدموا قلاعها (أى بريطانيا) وقوضوا أبراجها، وبعد تدافع وتصادم، وتقدم وتأخر فى موقعتين عظيمتين فر الإنجليز إلى «سواكن» على البحر، وأخلوا ساحات القتال، ثم هربوا بطريق البحر إلى مصر أو إنجلترا. ولما اشتد القتال بمن فى «خرطوم» نهض الجنرال «غوردون» لفك الحصار، فلم تكن إلا كرة وتبددت فيها جيوشه ثم أعقبها فرة إلى داخل المدينة، ولكن ليستر هزيمته، أمر بإعدام ضابطين مصريين كبيرين بتهمة الخيانة، وهما حسن باشا، وسعيد باشا»[88].

وفى مقال ثالث تحت عنوان: «عودة إلى خرطوم» تقول «العروة الوثقى» ..... «نوهنا مراراً للمسلمين عموماً، والمصريين خصوصاً بالانقباض عن حرب إخوانهم (السودانيين) وإراقة دماء أبناء ملتهم، لمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفيهم فى الجنس والاعتقاد، لا يعلمون لها عاقبة. ولا يدرون من يجنى ثمارها. بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين، ولهذا لم يأخذنا العجب من خذلانهم لـ «هكس» فى السودان الغربى، ولا لـ «بيكر» فى السودان الشرقى، ولا مما بلغنا فى هذه الأيام من خذلان «غردون» فى الخرطوم[89]، ولم يختلج فى صدورنا ولا فى خطرات أنفسنا، أن انهزامهم (أى المصريين) منشأه الجبن، ولكن لأننا نعلم أنهم يفضلون الموت بين إخوانهم على الظفر بهم، لتكون أموالهم وديارهم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب وهو

(٨٨) المصدر السابق ص ٢٠٧

(٨٩) كان الكثير من قادة الجيش المصرى وضباطه. وجنوده يرفضون قتال إخوانهم السودانيين. وقد لجأ الكثير منهم إلى معسكر المهدى وخالفوا أوامر القادة الإنجليز بقتل وضرب أبناء دينهم.

« غوردون »[٩٠] .

إنها دعوة إلى الجيش المصرى بالتمرد والثورة ، وعصيان الأوامر للجنرال الإنجليزى . « غوردون » . . لأن منطق الإيمان والعقيدة يرفض أن يكون لغير المسلم ولاية على المسلم ، ومنطق الإيمان والعقيدة يرفض رفضاً باتًا محاربة المسلم لأخيه المسلم ، فإذا كانت هذه الأوامر صادرة من أجنبي فى الجنس والعقيدة ، ومن ظالم تلطخت صفحاته بالغدر والقسوة ، فإن طاعته فى هذه الحال تكون خيانة للأمة ، وردة بعد إيمان فى العقيدة . ولقد كان فى داخل مدينة الخرطوم – فى أثناء الحصار – عالم أزهرى من رجال الثورة العرابية اسمه الشيخ أحمد العوام – كان قد نفى إلى السودان بعد فشل هذه الثورة هذا العالم الأزهرى تصرف بمنطق إيمانه ودينه وهو محاصر كغيره .

يقول نعوم شقير فى تاريخه[٩١] : .

« وكان فى الخرطوم رجل من خطباء الثورة العرابية ، يقال له أحمد العوام . وهو مصرى الجنس . حسيني الانتساب . وقد نفى إلى الخرطوم بسبب الثورة العرابية . فرأى الثورة المهدية فى وجهه . فتشيع لها . وقد اطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ من رمضان سنة ١٣٠١هـ . ١١ يولية سنة ١٨٨٤م سماها « نصيحة العوام »[٩٢] فإذا هى ثورة محضة . وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهدية وكرهه للحكومة الخديوية (أى المصرية) ومما قاله مشيراً إلى موظفى حكومة الخرطوم : « . . . وطالما جادلتهم بالحق سرًّا . ونصحت لهم حتى فى دار الحكومة جهراً على مرأى ومسمع من وكيلها النصرانى – يقصد جوردون – أن يسعوا فى

(٩٠) العروة الوثقى ص ٢١٩ لقد كتب هذا المقال فى عام ١٨٨٤م ولاتزال حتى اليوم فى العالم الإسلامى والعربى حكومات تأمر جيوشها بقتال المسلمين لحساب أعداء المسلمين !

(٩١) جغرافية وتاريخ السودان ص ٨٢٨ – ٨٢٩

(٩٢) توجد نسخة منها فى المتحف البريطانى بلندن

الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملاً بأمر الله . فلم أجد بينهم محقًا . كلا ولا ساعياً بكلمة حق لإخماد هذه الحرب بين المسلمين . وعباد الله المؤمنين . . . ولذلك اعتزلتهم ، وجميع المحصورين ، إلا من جاءنى يسعى وهو يخشى فإنى أبذل له محض النصح حتى يفتح الله بيننا وهو خير الفاتحين » .

وقد أثرت أقواله تأثيراً سيئاً فى نفوس أهل الخرطوم . فسجنه غوردون وكبله بالحديد . . . ! ثم عفا عنه وجعله معاوناً فى الحكمدارية براتب ١٥٠٠ قرش فى الشهر ، ولكن ما لبث أن عاد إلى سابق عادته من انتقاد أعمال الحكومة وتهييج أهل البلاد ضدها ، ولما جاء الخبر بزحف المهدى على الخرطوم . وأعلن غوردون خبر قدوم الجيش الإنجليزى ، جاهر - الشيخ العوام - فى تكذيب غوردون وتصديق المهدى ؛ ولم يقتصر على ذلك . بل أغرى إحدى النساء فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكليك (الذخيرة) بقصد إحراقه فسقطت الجمرة على بعض الأوراق ، فأحرقتها فشعر بها الحارس فأطفأها . . . واعترفت المرأة أن أحمد العوام هو الذى أمرها بذلك فأمر غوردون بقتله ، فقتل فى سراى الشرق . . . ! »

• • •

لقد نشرت العروة الوثقى العديد من المقالات عن حركة المهدى وتابعت أصداء هذه الحركة على الصعيدين الإسلامى والدولى ، وهى إذ تفعل ذلك . إنما تفعله إيماناً بوحدة الحركة الإسلامية . وإلهاباً لمشاعر الحماس فى العالم الإسلامى ، وإحياء لروح الجهاد ضد الخطر الاستعمارى .

• • •

لقد عجزت بريطانيا بنفوذها وقوتها عن إسكات هذا الصوت . فلجأت إلى أساليبها المعروفة فى الإغراء والحيلة . وأرسلت إلى السيد جمال الدين تدعوه لزيارة لندن لمناقشته حول قضية المهدى .

وحين سافر إلى لندن ، والتقى هناك بالمسئولين فى الحكومة ، قال له اللورد سالسبورى :

« إن بريطانيا تعلم مقدرته ، وتقدر رأيه حق قدره ، وهى (أى بريطانيا) تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية مسلك الولاء والمودة . . لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه . . . ! فتستأصل فتنة المهدى وتمهد لإصلاحات بريطانيا فيه !

ويرد جمال الدين بقوة :

إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف فيه »[93] ! ! !

• • •

ومرة ثانية حاولوا مع الشيخ محمد عبده فدعوه لزيارة إنجلترا ثم قالوا له :

« . . . كثيراً ماسمعنا من الأجانب الذين يتمون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها . . . ! (لاحظ هنا مايحاولونه من الإيقاع بينه وبين جمال الدين) أما أنت فلكونك عريقاً فى المصرية ، وعالماً من علماء المسلمين . فنحب أن تبين أفكارك ، وما تعلمه من أحوال الأهالى المصريين وشئون أمرائهم واستعدادهم ومايليقون له ، وما يليق بهم » .

فقال الشيخ محمد عبده :

أما بالنسبة للخديو توفيق : فإنه أساء إلينا إساءة بالغة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ! ورجل مثله انضم إلى أعدائنا فى قتالنا ، لا نشعر إزاءه بأى احترام ! لكنه إذا ندم على مافرط منه ، وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته ، إننا لانريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية .

فلما سئل عن حركة « المهدى » وما يقال من أن حركته تهدد مصر بالخطر قال الشيخ محمد عبده :

---

(٩٣) العروة الوثقى ص ٣٥

لاخطر على مصر من حركة المهدى ، إنما الخطر على مصر من وجودكم فيها ، وإنكم إذا غادرتم مصر ، فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، ولن يكون فى هجومه أدنى خطر ، وهو الآن محبوب من الشعب المصرى ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى ، وسينضمون إليه عند قدومه . . . ![٩٤] .

وتثور ثائرة بريطانيا . . . فتلقى بكل قوتها ، وتثور مراجل الغضب والسخط فى قلبها ، وتتعقب الصحيفة المجاهدة ومحرريها ، حتى تقضى عليها قبل أن تتم عاماً واحداً من حياتها[٩٥] .

ولكن الرجل العظيم لايضيره مثل هذه الأمور الصغيرة.فقد كان « جمال الدين » يجد مادة الكلام فى كل شىء تقع عليه عينيه . . فى السيجارة يشعلها وفى الطفل حين يسأله . . وفى حادثة زواج أو طلاق ، كان يستطيع أن ينشئ أمتع الحديث فى الشىء الجليل ، والشىء التافه . وكانت له القدرة على أن يلهب مستمعه ، فلا يزال يروح على « الفحم » حتى يلهبه ، فإذا جليسه يرى بعد الجلسة راحته فى السير لافى الركوب ، وفى العمل لافى السكون ، فكان بهذه الخصائص فى غنى عن المجلة أو الصحيفة .

ولكن الشىء المحزن فى هذا الأمر هو الفراق . . . فراق الأستاذ لتلميذه بعد أن التأم شملهما من جديد فى باريس وقد فرقت بينهما الأحداث قبل ذلك فى القاهرة . إن الذى أهمه كان انفراط عقد صحبته للشيخ محمد عبده ومن يدرى؟ماذا يكون بعد هذا الفراق؟ إن أحداث العالم الإسلامى ، وطبيعته الحكم والحكام فى أقطاره ، واضطراب الأمور والأحوال فى أرجائه ، وصراع القوى الخفية والظاهرة فى أنحائه ، كلها أشياء تقبض النفس ، ويضيق بها الصدر .

---

(٩٤) انظر العروة الوثقى ص ٢٧٧ ومحمد عبده تأليف العقاد ص ١٣٨

(٩٥) صدر العدد الأول من مجلة العروة الوثقى فى ٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ وصدر العدد الأخير منها فى ذى الحجة ١٣٠١ هـ .

وقد لبث جمال الدين قليلاً فى أوربا بعد إغلاق المجلة ، يحاول فى عواصم الغرب محاولاته السياسية على خطته المعهودة . فقد بدا له أن يذهب إلى روسيا ، وهو ينوى أن يستخدم مقامه فيها لتخفيف الظلم عن المسلمين وإطلاق حريتهم الدينية ومحاولة التوفيق بين الروسيا ودولة الخلافة ، واستغلال الخلاف بين السياستين الروسية والبريطانية لصالح الشعوب الشرقية .

وحين قابل القيصر سأله عن آرائه فى الشرق . . . ثم يسأل - أى القيصر - السيد جمال الدين عن سبب خلافه مع الشاه فى فارس .

فقال جمال الدين : إنه الحكومة الشورية . . . أدعو إليها ولا يراها أى - لا يوافق الشاه عليها .

فقال القيصر : الحق مع الشاه . . فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ !

فقال جمال الدين :

أعتقد ياجلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه ، من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص (فلم يعجب القيصر هذا الكلام وقام علامة الإذن بالانصراف) [٩٦] . .

وقد عاد جمال الدين بعد ذلك إلى أوربا ، وتقابل هناك مع الشاه ناصر الدين فعرض عليه العودة إلى فارس ، ووعد بتنفيذ الإصلاح الذى يريده وبعد إلحاح قبل السيد أن يعود إلى طهران ، وسرعان ما اجتمع حوله العلماء ، وطلاب الإصلاح من كل مكان ، غير أنه لم يهنأ طويلاً بهذا الحلم فقد فوجئ بالجنود

---

(٩٦) لقد كان جمال الدين أبعد نظراً من القيصر ألف مرة ، فلم يكد يمضى على هذا الحديث حوالى ثلاثة وثلاثين عاما حتى كان القيصر وأسرته وطبقة الأشراف والنبلاء فى بلده أشلاء ممزقة بأيدى هؤلاء الفلاحين ولو استجاب الطغاة والقلة لصوت العدالة والحق لأعفوا أنفسهم وشعوبهم تلك التجارب الدامية التى لاتزال تنشر ظلالها الكئيبة على أقطار شتى فى العالم كله

يهجمون عليه ، ثم حملوه مكبلاً على ظهر دابة ، وهو مريض وفى فصل الشتاء حتى أوصلوه إلى « خانقين » ثم تركوه ليواصل سفره إلى البصرة ، وقد اشتد عليه وطأة المرض ، وكادت تودى بحياته لولا لطف الله به[97] . . .

وفى هذه الآونة تجمع عند السلطان - عبد الحميد الثانى - من الأسباب ما حمله على دعوة السيد إلى الآستانة ، فأبى فى أول الأمر ، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع بدهائه أن يقنعه فى النهاية وزين له طريق الإصلاح ووعده بتنفيذ مايقترحه ويراه حتى قبل ووافق على السفر ، وما إن وضع قدمه فى الآستانة حتى وجد نفسه فى قفص من ذهب . وقد أمر السلطان باستقباله استقبالاً حسناً ، وأجرى عليه راتباً كبيراً ، وأنزله بيتاً ظريفاً ، وجعل تحت يديه خدماً وحشماً ، بعضهم للخدمة ، وأكثرهم للتجسس . .[98] .

وحين قابله السلطان فى قصر « يلدز » طلب منه أن يكف عن مهاجمة الشاه ، فقال له السيد :

من أجلك عفوت عنه ! فيرتاع السلطان لمثل هذا القول ، وينظر إلى السيد وهو يلعب بسبحته ، فيلفت نظره إلى ذلك رئيس التشريفات بعد خروجه فيقول له السيد جمال الدين :

إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة . . أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته ؟

وقد عرض عليه السلطان منصب « شيخ الإسلام » فرفضه ، إلا إذا عدل النظام من أساسه ، وأخيراً انتهى رأى جمال الدين فى السلطان عبد الحميد - بأنه سل فى رئة الدولة[99] ! ! !

---

(٩٧) زعماء الإصلاح ص ٩٧

(٩٨) المصدر السابق ص ١٠٠

(٩٩) زعماء الإصلاح ص ١٠١

أما الشيخ محمد عبده فقد عاد إلى بيروت وهو يزداد إيماناً بعقم المحاولات السياسية ، وضعف الأمل في الأمراء والملوك ، ووجوب التعويل بعد هذه المحاولات العقيمة ، على الأمم دون غيرها ، وحصر هذا الأمل كله في إعداد الأمة بعدة العلم الصحيح ، والتربية الاجتماعية الصالحة ، واتخذ من الأرزاء التي ابتلى بها أستاذه على أيدي الأمراء والملوك حجة جديدة على ضعف الأمل فيهم ، ووجوب التحول بالجهود إلى أممهم ، فقد شهر به خديو مصر ونفاه ، وعذبه شاه إيران وأهانه لتلاميذه : إن السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا . وأن السيد جمال الدين وطرده ، وخيب رجوات الهند رجاءه واعتقله السلطان في قفص من ذهب بالآستانة ، وقد ظل الشيخ محمد عبده يزداد اقتناعاً برأيه يوماً بعد يوم ، وكان يقول كان صاحب إقتدار عظيم لو صرفه ، ووجهه للتعليم لأفاد الإسلام أكبر فائدة ، وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات(١٠٠) ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنوات إلا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانه والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الانتشار . فقال : إنما أنت مثبط(١٠١) . . . !

• • •

ما أغرب تصاريف الدهر . . . !

لقد افترق الصديقان الحميمان . . رأيا . . ومكاناً . . جمال الدين في الآستانة يحاول ما استطاع أن يصلح ، والشيخ محمد عبده في بيروت ينتهج لنفسه أسلوباً جديداً على أمل أن يفلح .

« انظروا . . . لقد تحطمت حلقة الوحدة . . وفقد آل إبراهيم .

---

(١٠٠) يلاحظ في الاتجاه أنه متأثر بالحركة الـسوسية .

(١٠١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٨٩٤ تأليف السيد رشيد رضا

«أى المسلمون – لذة العهد والميثاق الذى أخذه الله عليهم . .

«اصطادتهم أوربا كما يصطاد المرء السمك . . فأصبح فى حلق كل مسلم شص أوربا .

«وآل حال الشرق للخراب بسبب الاستعمار .

«فهيا يازندة رود .

«وأشعل النار فى الوجود بأبيات من الشعر . .

«فناقتنا متعبة والحمل ثقيل[102] . . . »

• • •

يقول الرحالة الروسى الشيخ عبد/الرشيد[103] :

دخلت على الشيخ جمال الدين فى أخريات أيام مرضه . فأشار بيده أن ادن ، فدنوت منه ، وكان لايستطيع الكلام . . فأخذ قلماً وورقة وكتب فيها :

تشهد بالله أن كلام النبى ﷺ قبل وفاته :

أمتى . . أمتى . . وأنا أقول ملتى . . ملتى . . .

قال – أى الشيخ عبد الرشيد – وبعد نحو ساعتين رجعت إليه فإذا بهم يقولون : توفاه الله . . . !

• • •

والآن يحق لنا أن نتساءل . .

ماذا أخذ المهدى من هذه الحركات الثلاث . . وماذا ترك منها . . ؟ ماذا أخذ من محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية الكبرى . . هذه الحركة التى تجاوزت حدود السودان غرباً . . حتى انطلقت إلى نيجيريا على يد عثمان دنفديو . . . ؟ واندفعت شمالاً حتى وصلت إلى ليبيا على يد السنوسى وطارت شرقاً ليحمل لواءها

---

(١٠٢) العلامة محمد إقبال : جاويد نامة كوكب عطارد . ترجمة الدكتور محمد السعيد .

(١٠٣) جمال الدين الأفغانى – عبد القادر المغربى ص ١٢٣

مصلحون في الهند وسومطرا؟

ثم أخذ من الحركة السنوسية، وأفكارها، وتنظيماتها... ؟ لقد توغلت السنوسية في السودان نفسه، وأقامت زواياها بيد السودانيين أنفسهم. ثم ماذا أخذ من حركة الأفغاني التي هزت العالم من حوله هزًّا وارتجت أركان الاستعمار بسببها خوفاً ورعباً، وكانت صلتها بالسودان أكثر عمقاً وأوسع مجالاً.. وأفقاً.. فلم يكن السودان ومصر في ذلك الوقت إلا بلداً واحداً.. وكانا شريكين في الألم والأمل معاً...

ثم إن السودان بوضعه الجغرافي أكثر شعوب أفريقيا تأثراً.. وكل ما يدخل إلى القارة لابد أن يمر به عابراً، أو يستقر فيه مقيماً..

لقد دخل الإسلام إلى السودان من ثلاثة منافذ رئيسية.. من الشمال عن طريق مصر، ومن الشرق عن طريق الحجاز وباب المندب، ومن الغرب عن طريق ليبيا، وجنوب الصحراء الكبرى. انتشر الإسلام في السودان عن طريق هذه الجهات والأماكن، فما الذي يحول بين انتشار هذه الحركات الثلاث في السودان، وقد كانت كل واحدة منها في موقع من هذه المواقع والصلة بينها جميعاً وبين السودان صلة محكمة الأواصر والروابط... ذلك ما سوف تكشفه لنا وثائق الحركة.. وتحدده الأعمال والوقائع في النهاية...

الفصل الثالث

الظروف السياسية والاجتماعية التى رافقت ظهوره

النظرة الإسلامية إلى هذا التقسيم ، أو الفصل بين السياسة والدين نظرة غريبة عن الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ذلك لأن الإسلام ليس كغيره من الديانات والعقائد التى تنظر إلى الإنسان نظرة مستقلة عن الكون والحياة ، وليس فى الإسلام من يقول : دع مالقيصر لقيصر ، وما لله . . لله . .

الإسلام عقيدة وشريعة ، وقانون ونظام ، ودولة ودين ، فهو يصاحب الإنسان منذ ولادته إلى أن يحين أجله ، وهو فيا بين الحياة والموت يرافق هذا الإنسان فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل حركة يفعلها[1].

وبالنسبة لقضية كهذه القضية التى نعالجها يصبح من الصعب الفصل بين هذه التيارات وبين العقيدة ، والفارق الوحيد بين التيارين فارق شكلى لا يمس الجوهر والحقيقة ، والأزمات الطاحنة التى تتعرض لها الجماعات الإنسانية ، سواء فى الاقتصاد أو فى السياسة ، ترجع فى النهاية إلى الخروج على تلك القواعد التى وضعها الدين لكيفية التعامل أو التصرف فى الثروة ، وكيفية الولاية وأسلوب الحكم فى الدولة .

وقد ضرب لنا العلامة ابن خلدون مثلا لاختلال الأمور عندما تفقد هذا

---

(١) انظر فى هذا الموضوع كتاب النظريات السياسية الإسلامية تأليف الدكتور محمد ضياء الدين الريس ص ١٧ ــ ١٨ الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

الشرط . وتخرج عن هذا الأصل نقلا عما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن « الموبذان » صاحب الدين عندهم أيام « بهرام بن بهرام » وما عرض به للملك فى إنكار ما كان عليه من الغفلة والظلم وأثر ذلك فى خراب العمران وسقوط الدول بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له : إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى ، وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام « بهرام » فقبل شرطها وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام . . !

فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده . فقال له :

أيها الملك . . إن الملك لا يتم عزة إلا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قيام للشريعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة ، نصبه الرب ، وجعل له قيما وهو الملك[٢] . . !

بعد هذه المقدمة . نعود إلى بحثنا الخاص بهذه القضية .

* * *

فى مطلع القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد ، فى عام ١٨٠٥ م استطاع (محمد على) أن يخدع بحيلته وذكائه علماء الأزهر .فبايعوه حاكماً على مصر ، وبايع الشعب من ورائهم أملا فى الخلاص والحرية والعدل . ولكن الطبع فى النهاية يغلب التطبع ، والشاة التى أرضعت جرو الذئب ليكون حملا ، لم تلبث غير قليل حتى تبينت خطأها الفادح وهى ترى الجرو يمزق بأنيابه صغارها الرضع . . !

سخرة وضرائب ، قسوة وظلم ، غدر ومؤامرات . . لقد كشف محمد على حقيقته . . لقد تذكر الجرو فجأة أنه ذئب . . ومصر الوديعة الطيبة صارت بين

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧ ط المكتبة التجارية القاهرة .

أثيابه ومخالبه غنيمة حرب . . . !

وفى هذا المقال الذى نشره الشيخ محمد عبده بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على قيام نظام حكم محمد على فى مصر . صورة وصفية لهذا الحكم ، ونوعية هذا الرجل الذى أقام فى مصر هذا الحكم .

يقول الشيخ محمد عبده[٣] :

« . . . لم يستطع أن يحيى ، ولكنه استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بالفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش على إعدام كل رأس من خصومه . . ثم يعود ثانية بقوة الجيش ويحزب آخر على من كان معه أولا فيمحقه . . . ! وهكذا . حتى إذا سحقت الأحزاب القوية ، وجه عنايته إلى أصحاب البيوت الرفيعة ، فلم يدع رأساً فيه ضمير « أنا » . . . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهالى حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة فيهم ، فلم يبق فى البلاد رأساً حتى خلعه من بدنه أو نفاه إلى السودان فهلك فيه »[٤] .

« أخذ يرفع الأسافل ، ويعليهم فى البلاد ، حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال ، جمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه لمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة ، واستقلال نفس ، لتصير البلاد المصرية إقطاعاً واحداً له ولأولاده . . اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة ، وزاد لهم فى الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك وصغرت نفوس الأهالى بين الأجانب بقوة الحاكم ، وانقلب الوطنى غريباً فى داره

(٣) العروة الوثقى ص ١٢

(٤) المصدر السابق ص ١٢

غير مطمئن فى قراره فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم ، غير واقف إلى حد ، أو مردود إلى شريعة ، كان رجال الحكومة إما من الأرناءوط أو الشراكسة ، أو الأرمن أو ما أشبه هذه الأوشاب ، وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون ، ولا يستحي بعض الأحداث من أن يقول : إن « محمد على » جعل جدران سلطانه الدين . . أى دين كان دعامة لسلطان محمد على . . . ؟ دين التحصيل . . . ؟ دين الكرباج ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين ؟ لا يذكرون إلا المسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين . . . لا للدين »[٥] .

• • •

هذا هو « محمد على » . . . كان عاصفة هبت على مصر . . فبدأ الشعب يرحل ويهاجر ، ولم يترك الطاغية للشعب هذه الفرصة ، فسد عليه منافذ الهجرة بالقوة . . ثم اتجه بشرهه إلى السودان فوجه إليه حملة إثر حملة . . يقول نعوم شقير[٦] :

فى عام ١٢٣٦ هـ - الموافق لعام ١٨٢١ م أرسل محمد على باشا أول حملة عسكرية لفتح السودان ، وقد وضع نصب عينيه جملة أسباب لإنفاذ هذه الحملة والعمل على تنفيذها بسرعة :

أول هذه الأسباب : الاستيلاء على مناجم الذهب فى « سنار » التى طبقت شهرتها الآفاق وبخاصة فى القاهرة .

ثانى هذه الأسباب : استئصال شأفة المماليك - أعدائه الخطرين - بعد أن فر

(٥) المصدر السابق ص ١٦

(٦) جغرافية وتاريخ السودان ص ٤٩١ ، ٤٩٢ ولم ترد هذه الأسباب عما كنا نتعلمه فى المدارس والأزهر قبل سقوط أسرة محمد على وقيام الحكم الجمهورى فى مصر .

بعضهم إلى الجنوب – عقب المذبحة التي دبرها لهم في القلعة .

ثالث هذه الأسباب : التخلص من المتاعب التي سببها له الجنود المرتزقة من الأتراك والشراكسة ، وأسباب أخرى تتعلق باكتشاف منابع النيل . وتوسيع نطاق الزراعة والتجارة .

* * *

هذه الأسباب التي حفزت « محمد علي » إلى غزو السودان وفتحه ، تحدد لنا بدقة هدف هذا الرجل من فتح السودان وغايته ، وتضاف كذلك إلى هذه الصورة التي وصفها الشيخ محمد عبده بقلمه .

ولم يستح بعض المؤرخين أو – الأحداث – كما وصفهم الشيخ محمد عبده ، لم يستحوا من القول . إن هدف « محمد علي » كان تحقيق وحدة وادي النيل بين السودان ومصر . .

ماذا كان يعرف « محمد علي » عن السودان حتى يسعى إلى تحقيق وحدة بينه وبين مصر ؟ . . . لقد كان جنديًّا ألباني الأصل ، جاء في حملة أرسلتها دولة الخلافة لإخراج الفرنسيين من مصر ، واستطاع بحيلته ودهائه – كما ذكرنا – أن يجلس على كرسي الحكم ، ثم انقلب بعد ذلك على دولة الخلافة كما انقلب قبل ذلك على العلماء والشعب في مصر . . .

وذهب محمد علي . . مات بعد أن أصابه العته والجنون من الظلم ، وخلف من بعده خلف ، كانوا على شاكلته في العدوان والبغي ، وسارت الأمور على هذا المنوال حتى وصل إسماعيل إلى الحكم ، فأغرق – بسفاهته – البلاد في الديون ، ووقعت مصر بذلك في قبضة المرابين ، وفي هذا الوقت وصل إلى مصر الحكيم الأفغاني جمال الدين . . .

يقول الشيخ محمد عبده في وصف أحوال مصر قبل مجيئه[7] . .

---

(٧) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ٥٥ ٥٦

« إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة ، بل الخاصة ملكاً للحاكم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيها صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة ، وتضربه عليهم وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء أكانت إسلامية أم أوربية ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها ، من عهد محمد على باشا إلى ذلك التاريخ ، وذهاب الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية . . لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف ، ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر ١٢٨٣ هـ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها . لم يحس أحد منهم ، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق ، الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام والعمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة غير التى يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك . فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن . . ! أو إزهاقاً للروح . . ! أو تجريداً من المال . . !

فى هذا الجو المعتم . . جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٣٨٦ هـ رجل بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب واللسان ، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، فعرف عليه فى بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم ، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان ثم انتشر عنه ما تخالف آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً إلى رغبة الناس فى الاجتماع به لتعرف ما عنده . . وهو فى جميع الأوقات يجتمع بالناس ولا يسأم من الحديث فيما ينير العقل ، ويطهر العقيدة ، أو يذهب بالناس إلى معالى الأمور أو

يلفت النظر إلى الشئون العامة ، مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم يتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الإجازة ، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرونه فى الناس ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف البلاد ، وبخاصة فى القاهرة[8] . .

• • •

ثم زاد مركزه خطراً لأنه تدخل فى السياسة ، وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم : إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ ملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون . بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم التى تجمعت مما يتحلب من جباهكم بالعصا ، والمقرعة ، والسوط ، وأنتم صامتون !

فلو كان فى عروقهم دم فيه كريات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة لما رضيتم بهذا الذل ، وهذه المسكنة . . أفيقوا من سكرتكم . . ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء[9] . .

وخطب مرة فى مدينة الإسكندرية فقال[10] :

أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . . فلماذا لا تشق ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك . . . !

بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ، ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق فى إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين فاتجه الناس إلى نقد

---

(٨) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٩) زعماء الإصلاح ص ٧٢

(١٠) رائد الفكر الحديث – د عثمان أمين ص ٢٢

أصحاب السلطان ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم ، وحقه المطلق فى التصرف .

* * *

كان الحاكم لمصر فى ذلك الوقت هو الخديو إسماعيل الذى جرت سياسته الخراب والدمار على مصر كما قدمنا ، وزاد الطين بلة أن أصحاب الديون فقدوا ثقتهم فى الحكم ، وفى الطريقة التى تساس بها الأمور ، ولم تهدأ ثائرة هؤلاء المرابين إلا بعد تعيين وزيرين فى الحكومة . . أحدهما إنجليزى ، والآخر فرنسى . شىء غريب حقاً . . ! صورة مضحكة ومبكية معاً : وهى صورة تحدد لنا بوضوح مدى الانحدار الذى وصل إليه الحكم ، ومدى الضياع الذى انتهت إليه شئون الأمة ، وقد انطلقت الألسنة بانتقاد الارتباك الشديد الذى أوقع البلاد فى هذه الورطة .

« . . . وكانت الآراء السياسية التى يبثها جمال الدين فى تلامذته ومريديه وما بينه لهم وللناس من أنواع الحكومات الاستبدادية[11] والدستورية تؤثر فيهم وفى غيرهم من الطبقات ، ولكن الشعور بحقوق الأمة فى أمر حكم نفسها ، ومراقبة أعمال حكامها لم يسر فى هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الأجنبى فى حكومتهم ، والتحكم الأوربى فى شئون بلادهم ، فتعلقت آمال البصراء من المواطنين بإصلاح عظيم ، غير أن سوء حال الحكومة الوطنية ، وفساد رجالها ، والخوف من السلطة الأجنبية ، كل ذلك . كان عقبة فى طريق الإصلاح[12] . .

ولما كان جمال الدين عنيفاً بطبيعته ، لا يثنيه شىء عن هدفه ، ولا يتراجع أمام عقبة تعترض سبيله ، فإنه عندما شاهد الخطر يزحف على مصر ، وأيقن بفساد

---

(١١) اقرأ فى هذا الموضوع كتاب (طبائع الاستبداد) تأليف عبد الرحمن الكواكبى

(١٢) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ٥٩

إسماعيل فساداً لا منجاة منه ، اقترح على تلميذه الشيخ محمد عبده أن يقتل الخديو إسماعيل . . !

يقول الأستاذ الإمام : وكنت أنا موافقاً على قتل إسماعيل ، لو أننا عرفنا « عرابى » فى ذلك الوقت ، فربما كان فى إمكاننا أن تنظم الحركة معه ، لأن قتل إسماعيل فى ذلك الوقت ، كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله[١٣] . . .

• • •

وعلى أية حال . . فقد كفى الله المؤمنين شر القتال ! وأرغم إسماعيل على التنازل عن الحكم ، وجاء ابنه الخديو توفيق طبقاً للخطة التى رسمها جمال الدين مع الزعماء ورجال الفكر .

وكما فعل محمد على مع العلماء الذين بايعوه حاكماً على مصر ، تكررت المأساة من جديد على يد توفيق مع جمال الدين الذى مهد له الطريق إلى الحكم .

استدعاه مرة - أى الخديو توفيق - إلى قصر عابدين وقال له :

إنى أحب كل الخير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الفلاح والرقى . ولكن مع الأسف . إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس ، والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة .

فأجاب جمال الدين :

إن الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم . . ! وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى إشراك الأمة ، فى حكم البلاد عن طريق الشورى . فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن

(١٣) العروة الوثقى ص ٣١

الأمة تسن القوانين ، وتنفذها باسمكم وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

ثم خرج من عنده يخطب في الموضوع ، ويستحث تلاميذه ، وأعوانه على الكتابة فيه في حماسة وقوة[١٤] .

• • •

لقد أحدثت هذه الأفكار انفجاراً هائلا زلزل أقدام الطغاة في مصر وأثارت من الحقد والضغينة ضد هذا الثائر المصلح بقدر ما كان في هذه الأفكار من قوة وعنف . . وكان وكلاء الدول الأجنبية ، قد تقدموا إلى الخديو بإقامة الأدلة على خطر الرجل ، وأخافوه منه ، فأخذ في الطريق آخر الليل وهو ذاهب إلى بيته . هو وخادمه وحجز في « الضبطية »[١٥] ، ولم يمكن من أخذ ثيابه ، وبعد أن انتشر ضياء النهار ، حمل في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ، ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة إلى السويس ، ومنها أنزل إلى البحر ليسافر إلى بومباى Bombay فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه ، والوقت صيف والحرارة شديدة ، حتى تقرح جسده ، ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهات عثمانية ، وبعض قروش من الفضة ، وهذا المبلغ أخذ منه في السويس ولم يبق معه شيء . .

« ولما علم بذلك لأحمد بك النقاوى ، وكان قنصل دولة إيران في السويس ذهب لتوديعه ، وعرض عليه مبلغاً وافراً من المال ، فأبى أن يأخذ شيئاً . . ولا ريب أن الانزعاج بنفي جمال الدين كان عاماً ، والكدر كان تاماً ، ولكن الخديو أظهر سروره مما فعل ، وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار في رمضان ، فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل . . وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفي ، وفيه من التقريع الشديد مالم يكن

(١٤) زعماء الإصلاح ص ٧٦

(١٥) هي مايعرف بـ «قسم البوليس» في القاهرة



أحمد عرابي باشا

يستحقه الرجل ، كما أنه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض ، وأبت إحدى الجرائد نشره ، لأن محررها كان من تلامذته فعطلت . .

على أن هذه الشدة لم ترد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة ، ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نمواً وظهوراً »[١٦].

• • •

وتحرك الجيش . . وكان تحركه فى أول الأمر احتجاجاً على التفرقة والمحاباة التى يتمتع بها الضباط الأجانب من الترك والشركس ، والأرناءود ثم تحول بعد ذلك إلى ثورة شعبية وقف فيها الشعب كله وراء الجيش .

كان أحمد عرابي ، وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى ، وغيرهم من كبار ضباط الجيش المصريين قد اجتمعوا فى بيت أحمد عرابي وكتبوا عريضة حددوا فيها مطالبهم ، ثم حملوها بعد ذلك إلى رياض باشا رئيس الوزراء طالبين رفعها إلى الخديو توفيق . وحين قابلوا رياض باشا قال لهم :

إن أمر هذه العريضة مهلك . . فقال له عرابي : إننا لم نطلب إلا حقاً وعدلا .

---

(١٦) مذكرات محمد عبده ص ٧٢ ٧٣

وليس فى طلب العدل والحق من خطر ، وإنا لنعتبرك أباً للمصريين فما هذا التلويح بالتهديد ؟ !

فقال رياض باشا : ليس فى البلاد من هو أهل لأن يكون عضواً فى مجلس النواب . فقال له عرابى : إنك مصرى ، وباقى النظار (الوزراء) مصريون والخديو أيضاً مصرى أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا . فإن فيها العلماء والحكماء ، والنبهاء ، فقال رياض باشا : ستنظر بدقة فى طلباتكم هذه . . ثم انصرفنا . ثم فوجئ عرابى وزملاؤه بعد ذلك بصدور الأمر بإيقافهم ومحاكمتهم عسكريًّا ، فألقى القبض عليهم ، ثم جردوا من رتبهم ، وأودعوا السجن ، ولم يكد خبر اعتقالهم يصل إلى الجيش ، حتى تحرك لإنقاذهم وإخراجهم من السجن . ثم بدأت الأمور تتوتر وتتأزم بينهم وبين الخديو حتى كان ذلك اليوم الذى خرج فيه الجيش فى مظاهرة عسكرية إلى القصر.

يقول أحمد عرابى :

« . . . فلما كمل اجتماع الجيش فى « عابدين »[١٧] ، كان الميدان غاصًّا بجماهير المتفرجين من الوطنيين والأجانب ، ونوافذ البيوت المجاورة للسراى وأسطحها ملأى بالمتفرجين والمتفرجات . وأما الخديو . فقد نزل من القصر ومشى فى الميدان ، ومن حواليه المستر كوكسن – قنصل إنجلترا فى الإسكندرية والجنرال جولد سميث – مراقب الدائرة السنية – ونفر من جاويشية المراسلة الخديوية ، حتى إذا ما توسط الساحة طلبنى . فتوجهت إليه لأعرض مطالب الأمة[١٨] ، وكنت راكباً جوادى ، وسيفى فى يدى ، ومن خلفى نحو ثلاثين ضابطاً . فلما دنوت منه . صاح بى

---

(١٧) « عابدين » هو قصر الحكم فى مصر وأمامه ميدان فسيح يتسع لحوالى مائة وخمسين ألفاً من الناس . مذكرات عرابى ص ٧٨

(١٨) كانت هذه المطالب تنادى بضرورة إنشاء مجلس الشورى . وحكم البلاد حكماً دستوريا وهى نفس المطالب التى كان جمال الدين يطالب بها للشعب المصرى

أن ترجل واغمد سيفك . . ففعلت ، ثم أقبلت عليه . وفى تلك اللحظة أشار عليه المستر كوكسن أن يطلق غدارته على !

فالتفت إليه وقال :

أفلا تنظر إلى من حولنا من العساكر ؟ ! ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن أغمدوا سيوفكم ، وعودوا إلى بلوكاتكم (أى الثكنات) . . . فلم يفعلوا . . . !

وظلوا وقوفاً خلفى ، ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم . . ولما وقفت بين يديه مشيراً بالسلام خاطبنى بقوله :

– ما هى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ .

فأجبته بقولى : جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة . .

فقال : وما هى هذه الطلبات ؟

فقلت : هى إسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس نواب على النسق الأوربى .

فقال : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا . . !

فقلت له : لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً . فوالله الذى لا إله إلا هو . إننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم . . ! !

ويقول عرابى :

كنت أرى الجنرال جولد سميث كلما سمع جملة من كلامى رجع القهقرى خطوات . . . ثم يعود إلى محله فى الدائرة المحاطة بالضباط ، والجاويشية ، فأشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع إلى السراى ، زاعماً أنه يخشى عليه سوء العاقبة ، إذا زادت المخاطبة عن هذا الحد .

وبعد رجوع الخديو إلى السراى عاد المستر كوكسن ، ومعه المستر كلفن المراقب

المالى الإنجليزى ، وخاطبنى بالنيابة عن الخديو كرسول من طرفه قائلا :

إن طلب إسقاط الوزارة ، وطلب تأليف مجلس النواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش .

فقلت له : اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم إخوانهم وأولادهم . فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لن نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ . .

فقال القنصل : علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها !

فقلت : كيف يكون ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

فقال القنصل كوكسن : وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ !

فقلت : عند الاقتضاء يمكن أن يحشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم يسمعون قولى ، ويلبون إشارتى .

فقال كوكسن : وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟ !

فقلت : أقول كلمة أخرى .

فقال : وما هى . . . ؟

فقلت : لا أقولها إلا عند اليأس . . ! ! »

• • •

ماذا يمكن أن يقال عن الخديو توفيق بعد ذلك ؟ ماذا يقال عن هذا الحاكم الذى ينظر إلى شعبه هذه النظرة المقيتة ، ويعتبره ميراثاً ورثه عن آبائه وأجداده ،

كأنهم ليسوا بشراً لهم حقوق البشر ، وليسوا شعباً لهم ما للشعوب من حقوق مقررة فى كل الشرائع والدساتير والنظم ؟

ماذا يقال عن الحاكم الذى يفوض « أجنبياً » هو المستر كوكسن فى الحديث نيابة عنه إلى ممثل الشعب ، وقادة الجيش ، وفى الحديث عن حقوق الأمة التى أهدرت على أيدى الأجانب والمتمصرين وأعداء الشعب ؟

إن المستر كوكسن لم يكن مخلصاً حتى للرجل الذى أنابه عنه فى التحدث باسمه ، لم يكن حريصاً على حل هذه المعضلة التى دفعت بعرابى وزملائه إلى هذا الموقف الذى وقفوه من أجل مصر . وهل كان من الإخلاص ، أو الحكمة ، أو المصلحة . أن يطلب المستر كوكسن من الخديو قتل عرابى على مرأى ومسمع من الجيش والشعب . . ؟ لقد كان المستر كوكسن يعمل لحساب دولته ، وكان حريصاً على إثارة الشعور ، وتوسيع شقة الخلاف لحاجة فى نفسه ، وفى حديثه إلى عرابى ، وطريقة سؤاله يمكن إدراك الهدف الذى كان يسعى إليه بالتعرف على مدى القوة التى يمكن أن تساند الثوار إذا حزب الأمر ، ودق ناقوس الخطر .

والخديو نفسه كان شخصيته باهتة لا أثر فيها للحكمة ، وكان شخصية غريبة الشعور عن الجيش وعن الأمة ، كان يفكر بعقل غيره ، ويتكلم بلسانه ، ولو كان هذا العقل وهذا اللسان مصرياً مسلماً لهان الأمر ، ولكنه كان يفكر بعقل كوكسن وجولد سميث ! ومن كلام أخصائه الإنجليز ، وبينهم المؤرخ الشهير « ألفريد بتلر » . . إنه كان يحتفل بمجاملتهم بين كبار موظفيه ، فيقضى الساعات يتكلم معهم باللغة الإنجليزية التى لا يعرفها أولئك الموظفون ، ويذكر الأسماء بالحروف الهجائية فى سياق أحاديثه ليخفى موضوع الكلام عن سامعيه الذين يعرفون أصحاب تلك الأسماء ، ويفضى فى هذه الأحاديث بأخبار من المعلومات الخاصة والأوراق المحفوظة تتعلق بالأسرة ، وعظماء البلاد[19] . . . !

---

(١٩) محمد عبده - تأليف عباس العقاد ص ١٢٩

وقد لخص المرحوم عبد الرحمن الرافعي الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة العرابية واندلاعها فيما يأتي :

أولاً : تذمر الضباط المصريين من سوء المعاملة التي كانوا يلقونها من رؤسائهم من الأرمن والشركس والترك .

ثانياً : سوء نظام الحكم القائم ، ورغبة المصريين في التخلص منه ، فقد كان قوام هذا الحكم اضطهاد الوطنيين ، والاستبداد بهم ، فلم يكن هناك عدل ولا قانون . ولا قضاء ينصف للمظلوم ، ولا حرية ، ولا مساواة ، وكان الضرب بالكرباج شائعاً يتخذه الحكام وسيلة لجمع الأموال ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنافع والأعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السلطة والجاه ، وكان النفي إلى أقاصي السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية وقد بلغ عدد المنفيين إلى السودان ٩١٢ منفياً .

ثالثاً : كانت سياسة رياض باشا سبباً من أسباب الثورة العرابية فقد وقف موقفاً عدائياً من مطالب الأمة ، والعمل على إقامة حياة دستورية ، ومالأ الأجانب على حساب المصلحة العامة ، وحارب الرأي وحرية الفكر في الصحافة وقد أمر بمصادرة الصحف وإلغاء امتيازها إذا كتبت رأياً يخالف رأى الحكومة .

رابعاً : قيام حزب وطني بين صفوفه كل العناصر الوطنية ورجال الفكر والصحافة ، وقد عكف هذا الحزب على دراسة كل الأسباب التي تشكو منها الأمة وعمل على إزالتها بكل وسيلة . (وكان الشيخ محمد عبده وزملاؤه في مدرسة جمال الدين) في مقدمة العاملين في هذه الحركة .

خامساً : تدخل الأجانب في سياسة الدولة ، ونظرتهم إلى المصريين نظرة احتقار ومهانة .

سادساً : سوء الحالة الاقتصادية ، وسيطرة المرابين وأصحاب الديون على الميزانية العامة . واعتراضهم على كل مشروع يعود بالخير والنفع على الأمة .

سابعاً : الثورة الفكرية التى أحدثها جمال الدين الأفغانى فى أثناء إقامته فى القاهرة ، والتى هزت الشعب المصرى من أعماقه ليثور على هذه الأوضاع الجائرة ، كما كان إخراجه من مصر على هذه الصورة البغيضة عاملا من عوامل اشتعال الثورة ، وتأجج مشاعر البغض والسخط ضد الخديو والحكومة »[٢٠].

فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة ، وكانت ثورة شعبية اشتركت فيها كل طبقات الأمة برغم أنها بدأت كثورة عسكرية.

• • •

لقد انتصرت مصر على كل حال فى هذه المعركة التى قادها الجيش ، فقد أرغم الخديو على إقالة الوزارة المستبدة – وزارة رياض – وجاء محمد شريف باشا رئيساً للوزراء كما أشار الضباط . وبدأ الجانبان يتعاونان معاً لما فيه خير العباد وإصلاح البلاد.

ولكن الدول الأوربية التى كانت تخطط لابتلاع البلاد الإسلامية ما كانت لتوافق على هذا الإصلاح ، وتحرير مصر من قبضة المستبدين والطغاة ، كانت هذه الدول حريصة على إبقاء الحال على ما كان عليه من الظلم ، وإطلاق سلطة الخديو ليمارس جريمته ضد الشعب فى هذه الأحوال تنتشر الفوضى ويعم السخط ويصبح الطريق ممهداً أمام الطامعين لاحتلال مصر.

فالاستعمار لا يعيش إلا فى جو الفتن ، وفى بلاد مشحونة بالبغضاء والكره وفى أحوال تسمح له بممارسة لعبته ، وارتكاب جريمته . .

يقول الشيخ محمد عبده[٢١] :

« . . . وفى أواخر سنة ١٨٨١ م أراد « غمبتا » رئيس وزراء فرنسا إرسال ٢٥ ألفاً من العساكر لتقرير النظام فى مصر ، مع أنه لم يكن حصل فيها شىء ، وقد قال «غمبتا» فى محادثة له مع اللورد جرانفيل وزير خارجية إنجلترا : قلبى يغلى

(٢٠) الثورة العرابية من صفحة ٧١ – ٧٨

(٢١) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٧٠

رعباً . . لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين أن إنجلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تتحملا شيئاً من هذه المطالب ، ولا تلك النزعات . . كما كان من رأى « غمبتا » : أن أوربا بوجه عام ، وفرنسا بوجه خاص لا تصنع الديمقراطية للتصدير ! وكان ينظر إلى الحركة الوطنية فى مصر بعين الاحتقار ، يعدها تعصباً إسلامياً وأوهاماً ثورية[٢٢] . . .

وأخيراً اتفقت بريطانيا وفرنسا على توجيه مذكرة إلى الحكومة المصرية ، وقد جاء فى هذه المذكرة :

« إن الحكومتين على تمام الاتفاق فى هذا الصدد وإن الحوادث الأخيرة وبخاصة الأمر الصادر من الخديو باجتماع مجلس النواب قد هيأت الفرصة لتبادل الآراء مرة أخرى فى هذا الشأن . فالمرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية تعدان تثبيت سمو الخديو على العرش هو الضمان الوحيد فى الحال والمستقبل لاستتباب نظام تقدم وسعادة مصر ! والحكومتان متفقتان اتفاقاً وطيداً على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر ! ولا يخامرهما شك فى أن الجهر بعزمهما فى هذا الصدد سيكون له أثره فى اتقاء الأخطار التى يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو ، ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وإنجلترا اتحاداً وثيقاً بالتغلب عليها ، . . وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة التى هو فى حاجة إليها[٢٣] . . . ! »

وباختصار . . . إن الدولتين تضمنان بقاء توفيق حاكماً على مصر فليفعل كما يشاء إذاً ضد الشعب . . !

وبريطانيا وفرنسا مستعدتان للتدخل فى الشئون الخاصة بمصر ولو أدى ذلك إلى

---

(٢٢) الثورة العرابية - دكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى ص ٧٧

(٢٣) الثورة العرابية دكتور أحمد عبد الرحيم ص ٧٨

تشوب الحرب . . !

وكان من الطبيعى أن تقابل هذه المذكرة بالغضب والسخط ، ولم يفهم أحد من المصريين لماذا قدمت ، حتى الخديو نفسه لم يطلب من الدولتين إصدار هذه المذكرة التى فصلته فصلا تاماً عن الأمة ، وزادت الطين بلة ، واعتبر الضباط هذه المذكرة ضدهم فقرروا الاحتجاج لدى الخديو بقوة ، وعلا المد الثورى فى مصر بشكل خطير غطى على كل نداء بتوخى الحكمة ، وأرسل السلطان فى تركيا احتجاجاً إلى الدول الأوربية مؤكداً أنه لا يوجد فى مصر ما يبرر هذه الخطوة . وتطورت الأمور فى مصر فاستقال شريف باشا تاركاً لمحمود سامى باشا البارودى تأليف وزارة ثورية اشترك فيها عرابى كوزير للحربية ، وكان تأليف هذه الوزارة يعتبر تحدياً لإنجلترا وفرنسا ، ولم يكد يتم تشكيل هذه الوزارة حتى أرسل المستر مالت – المعتمد البريطانى فى القاهرة – إلى وزير الخارجية الإنجليزية قائلا :

لقد توفرت لنا الآن فرصة ممتازة للتدخل . ونشرت جريدة « الأجيشيان جازيت » الوثيقة الصلة بالقنصلية الإنجليزية مقالات عنيفة ضد عرابى والحركة الوطنية ، ونصح القنصل الإنجليزى الأسر الإنجليزية بأن ترحل من القاهرة إلى الإسكندرية وأشار على الخديو الاستعانة بالبدو للقضاء على الثورة . ثم قدم ممثلا الدولتين مذكرة إلى الخديو يطالبان فيها باستقالة الوزارة ، وترحيل عرابى إلى خارج الديار المصرية . . ! وقد رفضت المذكرة من زعماء الثورة ، وقدموا احتجاجاً إلى الخديو لقبوله هذه المذكرة ، ثم استقالت الوزارة بعد ذلك وبدأت المساعى لإغراء عرابى . فرفض خيانة الأمة ، ثم خرج العلماء وشيخ الأزهر يطالبون بعودة عرابى إلى وزارة الحربية . واشترك معهم فى هذه المسيرة ، رؤساء الطوائف الدينية ، فاضطر الخديو وهو صاغر إلى إعادة عرابى إلى الوزارة ، وهكذا عاد زعيم الثورة إلى مركز القيادة ، وطبقت شهرة عرابى الآفاق فى العالم الإسلامى كله ، وعلت الأصوات تطالب بخلع الخديو توفيق رأس الخيانة ، وبدأت إنجلترا وفرنسا تفكران

فى استعمال القوة المسلحة[٢٤]

• • •

ولكن كيف؟ لقد تولى الخديو وأذنابه القيام بهذه المهمة «فقد استدعى «الخديو» إبراهيم[٢٥] توفيق مدير البحيرة ، وطلب إليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ، ويحضرهم إليه ، ففعل ، وبالغ الخديو فى حسن استقبالهم ثم أوعز إلى المدير أن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوى وإحضارهم إلى القاهرة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد ، ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو ، ولما أخفق فى مسعاه هذا أرسل تلغرافاً رمزياً إلى محافظ الإسكندرية هذا نصه : قد ضمن عرابى أمر الأمن والنظام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل . وإذا نجح فى ضمانه هذا ، وثقت به الدول وصغر شأننا ، أما الآن . . وأساطيل الدول فى مياه الإسكندرية وعقول الناس مهيجة ، فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل . فاختر لنفسك ، إما خدمة عرابى أو خدمتنا .

ويقول الشيخ محمد عبده[٢٦] :

فى يوم الأحد «١١ يونيو ١٨٨٢ م كانت القهاوى Cafes غاصة بطالبى الراحة من الأشغال ، فحدثت مشاجرة على قرب من قهـــــوة cafe (القزاز) فى آخر شارع البنات نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسى و «الطرابيزات» وأشخاص منهم القائم والقاعد ، وحدث أن سكر مالطى[٢٧] يقال إنه خادم المستر كوكسن – المعتمد البريطانى فى الإسكندرية – وأخذ عربة وطاف بهـــا من محل إلى محل يشرب ويتنزه ،

(٢٤) الثورة العرابية دكتور أحمد عبد الرحيم ص ٩٦

(٢٥) محمد عبده ، تأليف العقاد ص ١٥٢ - ١٥٣

(٢٦) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٨٢ ومابعدها

(٢٧) رجل من جزيرة مالطا

إلى أن وصل إلى خمارة Bar أحد مواطنيه ، فطلب منه سائق العربة المصرى الأجرة ، فأعطاه المالطى قرشاً واحداً أى ما يعادل بنسا ، ثم دخل الخمارة ، فتبعه المصرى فتناول المالطى سكيناً كانت معلقة وطعن بها المصرى فسقط لا حراك به ، فاجتمع بعض المصريين من أقارب القتيل ، وأرادوا القبض على القاتل فجاء خباز يونانى ، ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين ، والطبنجات ، وأخذوا يضربون يميناً وشمالا ، ومضى نحو نصف ساعة قبل أن تصل عساكر البوليس ، ثم تطور النزاع بين المسلمين والمسيحيين - من الأجانب - حيث أخذ الأروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع أنهم كانوا فى مأمن ، وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بالعصى وبعضهم بأرجل الكراسى المهشمة ، واشتدت المعركة بين الفريقين وتطورت إلى مذبحة ، وفى هذه الحالة رؤى المستر كوكسن نازلا من بيت أحد المالطيين ! فتبعه المتشاجرون ، وضربوه ضرباً خفيفاً ، ففر ونجا منهم ، وصحبه عمر لطفى محافظ الإسكندرية فى الطريق .

وبعد فترة قصيرة شاهد أحد المواطنين محافظ الإسكندرية واقفاً فى أحد الميادين . فسأله :

كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ فقال له المحافظ :

هذا لا يعنينى ! فقال له المواطن : لم لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهراً سيفك مع خمسين من العساكر وبذلك كان الأمر قد انتهى ؟ فأجابه المحافظ : انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد . . . ؟ !

ويقول الشيخ محمد عبده :

وفى يوم هذه الحادثة (مذبحة الإسكندرية) توجهت إلى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث ! وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ، ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام . وبعد ١٢ يوماً من هذا التاريخ كنت بالإسكندرية ، فسمعت الناس أجمع يقولون : إن المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار

الفتنة إلى هذا الحد ، ولم يصدر أمراً بتوقيفها ، ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع أنهم كانوا على مقربة منه ، وقد أجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو[٢٨] . . .

• • •

لقد أصبح الطريق الآن ممهداً أمام الأميرال بوشامب سيمور قائد الأسطول البريطانى ليضرب ضربته ، ويطلق مدافعه . . ! ماذا ينتظر بعد ذلك إذا كان الخديو نفسه على رأس المؤامرة ، وهو لى الخديو نفسه يدبر هذه المذبحة لتكون ذريعة لتدخله ؟ إن الاستعمار ليس فى حاجة إلى حجة لفرض نفوذه ، وعنده من الوسائل والذرائع ما يكفى لتدمير العالم الإسلامى كله . فكيف إذا كان الحاكم نفسه هو الذى يدعوه لاحتلال بلده ، وقهر شعبه ، وتعليق المشانق للأحرار والوطنيين فيه ؟

اضرب ضربتك يابو شامب !

لقد تحقق الآن حلم ريتشارد[٢٩] . . .

فمصر قلعة الإسلام وقلبه النابض أصبحت فى متناول اليد . . . !

• • •

وفى الحادى عشر من شهر يولية ١٨٨٢ م أصدر الأميرال بوشامب سيمور أوامره إلى البوارج والسفن بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية . .

وقال اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية فى تفسير هذا الإجراء إنه لما يضعف مركز دولة كبرى تقوم قوتها فى أساسها على الأساطيل أن تقوم بمظاهرة بحرية

---

(٢٨) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٨٨

(٢٩) ريتشارد الملقب بقلب الأسد أحد ملوك الإنجليز الذين قادوا إحدى الحملات الصليبية

دون (وخز)[30] مّا . . . ! ومالبثت النار أن شبت فى المدينة الآمنة وأخذ أهلها فى الرحيل عنها .

وتقهقر الجيش إلى داخل البلاد استعدادا للمعركة الفاصلة ، وتأهباً للتوقعات المحتملة ، وفى هذا الوقت أرسل عرابى إلى الخديو قطاراً خاصًّا ليعود به إلى القاهرة فرفض وانحاز إلى الإنجليز ، وأعلن دخوله فى حمايتهم ، ثم أصدر منشوراً بعزل أحمد عرابى من منصبه كوزير للجهادية ، وطالب الجيش بمخالفته ، وعصيان أوامره .

وفى يوم ٦ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ الموافق ٢٢ يوليو ١٨٨٢ م انعقد مؤتمر عام فى ديوان الداخلية ، « وبعد تلاوة الأوراق المعروضة للتذاكر فى شأنها صدرت فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله شيخ الإسلام والمسلمين السيد محمد عليش ، وشيخ الإسلام الشيخ حسن العدوى ، والشيخ الخلفاوى وغيرهم من العلماء ، بمروق الخديو توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية لخيانته لدينه ووطنه ، وانحيازه لعدو بلاده ، وقر قرار المجلس بما يلى[31] :

بعد تلاوة الأوامر الصادرة من الخديو توفيق باشا أولا وآخراً وفيها الأمر الصادر إلى أحمد عرابى باشا ، وتلاوة منشورات عرابى باشا وهو : هل وجود الخديو فى الإسكندرية هو ونظاره (وزراؤه) تحت عساكر الإنجليز يقتضى عدم تنفيذ أوامره أو لا ؟ وإذا صدرت له أوامر من الخديو هل يعمل بها أو لا ؟

وقد رأينا أن وجود العساكر الإنجليزية فى الإسكندرية ، وبقاء مراكبهم الحربية فى السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا لمدافعة العدو ، كل ذلك يوجب بقاء الباشا المشار إليه (عرابى) فى نظارة الجهادية والبحرية مداوماً على قيادة العسكر ، وعدم انفصاله عن تلك الوظيفة .

---

(٣٠) الثورة العرابية ص ١٠٩

(٣١) مذكرات عرابى ج ١ ص ١٩٦ ١٩٧

ورأينا توقيف أوامر الخديو ، وما يصدر من نظاره (وزرائه) الموجودين معه فى الإسكندرية ، كيف كانت ، ولأى جهة من الجهات ، وعدم تنفيذها حيث إن الخديو خرج عن قواعد الدين الحنيف ، والقانون المنيف . . » .

* * *

وقد كتب « عرابى » إلى المستشرق البريطانى مستر بلنت Blant وكان فى لندن بما يأتى :

« لتتأكد إنجلترا أن أول بندقية تطلقها على مصر ، ستحرر مصر من كل المعاهدات ، والاتفاقيات ، ومعنى هذا انتهاء الديون ، والمراقبة ، سندمر قنواتنا ، ونقطع مواصلاتنا ، ونستغل الحماسة الدينية الإسلامية لإعلان الجهاد المقدس فى سوريا ، والجزيرة العربية ، والهند . وقد ألقيت الخطب بهذا المعنى فى مساجد دمشق ، وتم الاتفاق مع الزعماء المدنيين فى كل بلد فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وإنى أحذر مراراً وتكراراً من أن أول ضربة توجهها إنجلترا أو حليفاتها إلى مصر ، ستسبب فى إراقة الدماء أنهاراً فى طول آسيا وأفريقيا وعرضها »

وقد أرسل المستر بلنت فحوى هذه الرسالة إلى المستر جلادستون وأنذره بأن التهديدات التى تحتويها ستنفذ ، وبأن المصريين سيحرقون مدنهم كما أحرق الروس موسكو ١٨١٢ م ، وأنهم سيقطعون قنواتهم كما عمل الهولنديون فى عام ١٦٧٤ وأضاف مستر بلنت قائلا :

« إن هذا هو القرار اليائس الأخير الذى اتخذه شعب يرى نفسه مهدداً بخضوعه مرة أخرى للعبودية »[٣٢] . . .

* * *

وفى الوقت الذى استعد فيه المصريون للحرب قدر طاقتهم ، بعد أن بدأت إنجلترا أعمالها العدوانية ، اشتعلت نار الحماسة فى العالم الإسلامى وقد كتب قنصل

(٣٢) الثورة العرابية ص ١٠٧ - ١٠٨

إنجلترا فى دمشق إلى حكومته فى ١٤ يولية « لا شك أن ثمة اتجاهاً لدى بعض الأشخاص ، ومعظمهم من المسلمين إلى اعتناق آراء الحزب الوطنى المصرى ، وإنى أعتقد ، أن مبعوثين عن هذا الحزب ، قد أرسلوا إلى دمشق وإلى أجزاء أخرى من سوريا ، وفلسطين بقصد نشر أفكاره »[٣٣] .

وفى ٢٠ يولية كتب والى سوريا إلى السلطات التركية : لقد أخبرتكم تلغرافيًّا بهياج الخواطر التى تترتب على أحداث مصر ، ولكى يستميل عرابى باشا سكان البلاد المجاورة ، فإنه لا ينفك يرسل العلماء إلى دمشق . وقد ذهب معظم العلماء ، وأعيان المدينة وكثير من الناس لمقابلة مندوبه ، وهو أحد مشايخ الأزهر واجتمعوا به فى المسجد الأموى ، فعرض عليهم الفتوى التى تدعم مركز عرابى وقال لهم : إن مصر باب الكعبة وبيضة الإسلام ، وإن هدف الإنجليز هو القضاء على الإسلام ، والاستيلاء على الكعبة الشريفة ، وإن على كل مسلم أن يهب لمساعدة عرابى بقوته وأمواله ، طالما أن هذه الحالة تعيد إلى الأذهان قصة العرب فى أسبانيا ، وقد كان لهذه الخطبة أثر بالغ »[٣٤] .

كما أرسل عرابى خطابات إلى والى الحجاز ، وإلى أشخاص آخرين يذكر لهم ، أنه قد حمل السلاح للدفاع عن بلاده ، ويطلب منهم الدعاء فى صلواتهم بأن يكلل الله جهوده بالنصر ، كما أرسل مندوبيه إلى الهند ، وتونس ، وطرابلس ، لاكتساب عطف الرأى العام الإسلامى والإعداد للجهاد .

وقد أرسل القنصل البريطانى فى « غاليبولى » إلى حكومته فى ٢٨ يولية يؤكد أن شعور المسلمين معادٍ للأوربيين بعد ضرب الإسكندرية ، وأرسل القنصل البريطانى فى « سالونيك » يذكر : أن السكان بوجه عام يعتبرون عرابى بطل الإسلام ، وفى الأناضول اشتعلت المشاعر ضد إنجلترا ، بل إن بعض السكان هنا صرحوا : بأنهم

---

(٣٣) المصدر السابق ص ١١٠

(٣٤) المصدر السابق ص ١١٠

سيتقمون من المسيحيين إذا احتل الإنجليز مصر. وبدأ الناس فى الآستانة فى التطوع للانضمام إلى الجيش المصرى . ولم يكن هياج الرأى العام الإسلامى فى الهند بأقل منه فى العالم العربى ، وفى البلاد الإسلامية الأخرى[٣٥].

أما فى مصر . . فقد وقف الشعب كله وراء الثورة يساندها ويؤازرها . لم يكن فى الخزانة العامة فى ذلك الوقت قرش واحد . . فقد هرب المستشار المالى الإنجليزى بجميع الأموال ونقلها إلى الأسطول البريطانى . !

« ولما أعلن ذلك جاءت الأمة على اختلاف مذاهبها ، ونحلها بالمال ، والغلال والخيل ، والجمال والأبقار والجواميس ، والأغنام ، والفاكهة . والخضراوات حتى حطب الحريق . . ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه ، ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وكان نبهاء الأمة يعقدون الاجتماعات ، ويلقون الخطب الحماسية ويؤججون فى القلوب روح الجهاد والتضحية . وقد قال الشيخ على المليجى فى خطبة له[٣٦] :

قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم ، وما ذلك إلا لعدم الحمية الإسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم ! إذ كانوا منهمكين فى ميادين حظهم الدنيوى ، غافلين عن الدين ، وقد ظهرت الآن البشائر بعز المسلمين وسطوتهم ، حيث قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ فى أسباب قوة الدين ، ورد ما ضاع من شوكتهم ، باذلين الهمة فى التوصل إلى ما يبعد الأمة عن التشويش ، ولما يكونون به آمنين ، إذ قد شرع رئيس المجاهدين أحمد عرابى المؤيد بنصر من عند ربه فى المدافعة عن حوزة الأمة ، وباع نفسه وجيشه للجهاد فى سبيل الله . .

---

(٣٥) الثورة العرابية ص ١١١ ١١٢

(٣٦) مذكرات عرابى ص ٢٠٢ ومابعدها .

وقال الشيخ محمود إبراهيم[٣٧]: «إن الإنجليز قد طاشت عقولهم وعميت بصائرهم، فقد قابلوا تحيتنا بخداع، وفتشوا أكنافنا لغدر أضمروه ليوم الخداع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان، وفينا لهم بعقد الذمة والأمان، فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان فيهم ضعفاً ووهناً، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا بذلك، بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابي باشا هو المشار إليه في حديث: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» فإن البشائر دلت عليه ليمزق البغاة شر ممزق، ويحيي المندوب والمفروض للدين الموفق، وتموت البدع التي اسود القطر بظلماتها، ويختفي بلاء الظلم بأرجائها...»

وفي خطبة أخرى للشيخ محمد أبي الفضل يقول:

«مصرنا هذه قد كادت أن تكون دار حرب، لا دار سلام، فقد أهين فيها الوطني وعظم اللئام، فطغوا وبغوا وحق عليهم المثل السائر. وعلى الباغي تدور الدوائر».

وهكذا.. كانت المقالات الضافية الذيول، والخطب المسهبة، والقصائد تتلى وتلقى في مجالس المصريين من غير انقطاع تحميساً للأمة، وتشجيعاً لها[٣٨]».

• • •

ماذا كان الموقف الذي اتخذه الخليفة العثماني من هذه الحرب؟ ومن هذا العدوان الأثيم على مصر؟

لقد حاول في أول الأمر اتخاذ موقف حيادي من الخلاف بين عرابي والخديو، وأوفد لهذا الغرض بعثة لتقصي الحقائق برئاسة المشير «درويش» الذي لم يجد مستمسكاً يدين به عرابي، إلا أن بعض الروايات ذكرت أن الخديو قدم إليه

(٣٧) مذكرات عرابي ص ٢٠٤

(٣٨) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٨١

خمسين ألفاً من الجنيهات رشوة ؟ كما قدم إليه هدايا أخرى بخمسة وعشرين ألفا . . . وأرسلت خطابات مجهولة إلى السلطان تهدده بالخلع إذا أعلن عرابى عاصياً ، واعترضت بعض الدوائر فى « الآستانة » على توقيع أى اتفاق مع إنجلترا ضد الثورة ، لما فيه من تحد للمشاعر الدينية ، وخطب أحد العلماء فى الآستانة فأعلن أنه إذا ما طلب عرابى مالا جمعناه له . وإذا ما طلب جنداً فسنحمل جميعاً السلاح لمساعدته . . إنه رجل مبعوث من قبل الله . . ومقيض له أن يحمينا نحن الأتراك المؤمنين . . ! كما أرسل ثلاثون من كبار العلماء فى الأزهر بياناً إلى السلطان يقولون فيه : إنهم إنما يطيعون أوامره وأوامر الخديو طالما أنها متمشية مع أحكام الشرع ، وأنهم سيعتبرون عرابى قائداً عامًّا للقوات المصرية طالما أن أعماله تتمشى مع الشريعة ، وأن المصريين لن يلقوا السلاح إلا إذا انسحب الإنجليز من الإسكندرية ، وأنهم مجمعون جميعاً على خلع توفيق(٣٩) .

إلا أن اللورد دفرين السفير البريطانى فى عاصمة الخلافة استطاع فى النهاية استصدار قرار من الصدر الأعظم يعلن فيه عصيان عرابى وخروجه على دولة الخلافة ، وتلقف الإنجليز هذا القرار فطبعوا منه الملايين ووزعوه على كل من يعرف القراءة . . وبهذا أصبح عرابى يحارب فى ثلاث جبهات لا فى جبهة واحدة .

جبهة ضد الإنجليز ، وجبهة ضد السلطان ، وجبهة ضد الخديو الذى قال له أحد الضباط إن الإسكندرية ستحرق . فقال له : فلتحرق المدينة جميعها ، ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب . . كل ذلك يقع على رأس عرابى ، وعلى رءوس الفلاحين أولاد الكلب . . . ! ! ! (٤٠) .

* * *

وبدأت عقارب الخيانة تزحف على ضمير الشعب ! كانت خطة عرابى تعتمد

---

(٣٩) مذكرات عرابى ص ٥٠٢

(٤٠) مذكرات محمد عبده ص ١٩٣

على حشد قواته فى «كفر الدوار» على الطريق بين الإسكندرية والقاهرة وترك الجبهة الشرقية (منطقة قناة السويس) اعتماداً على وعود «فردناند ديلسبس»[٤١] الذى أكد لعرابى احترام الإنجليز لحياد قناة السويس، واستحالة دخول أساطيلهم منها.
لكن! متى كان الإنجليز يحترمون القوانين وعدوانهم على مصر خرق فاضح لها! ثم إن «فردناند» لا يقدر حتى إذا أراد لاحترام هذه القوانين ومنع الإنجليز من خرقها وإحراقها، ثم إن دولته (أى فرنسا) ضالعة أيضاً فى هذا العدوان، وقد فكرت فيه قبل بريطانيا، كما أعلن ذلك «غمبتا» رئيس وزرائها، ثم.. أليس فردناند هذا هو الذى أرسل إلى البابا – بعد افتتاح القناة – يبشره بأن الطريق إلى قلب العالم الإسلامى أصبح ممهداً وميسراً..؟

لقد خدع فردناند عرابى وخانه، وفتحت القناة أمام الأساطيل لتحتل «بورسعيد» و«الإسماعيلية»، ثم بدأت القوات بعد ذلك تتجه إلى القاهرة.

وقد نقل عرابى قواته بسرعة إلى هذه الجهة. وعسكر بجيشه عند «التل الكبير» استعداداً للمعركة الفاصلة. فعادت الخيانة من جديد لتلعب دورها بأيد مصرية.. محمد سلطان باشا.. الذى كان رئيساً لمجلس النواب الذى دعت إليه الثورة، يخون الوطن والثورة، ويتولى نيابة عن الإنجليز تثبيط همة المجاهدين فى المعركة، والضابط «على خنفس» يخون وطنه فيطلع العدو على خطة الدفاع، ومواطن الضعف فى هذه الخطة.

لقد أحيط بعرابى من كل ناحية.. أطبق ليل الخيانة على جو المعركة فلم يعد إنسان يعرف إنساناً على حقيقته، فترجل الفارس الشجاع عن جواده وعاد إلى القاهرة ليحاكم هو ومن معه!

لقد سقط علم مصر.. سقطت قلعة ثالثة من قلاع الإسلام بعد سقوط الجزائر، وتونس، وأمسكت بريطانيا بالنيل من قدميه حتى تقطع رأسه..!

---

(٤١) صاحب مشروع شق قناة السويس، ورئيس مجلس إدارة شركتها، وهو فرنسى الجنسية

وترحف إلى السودان الذى ظهر فيه المهدى شاهراً سيفه !

كانت مصر والسودان بلداً واحداً كما قدمنا. وما يصيب أحدهما ينعكس على البلد الآخر تلقائياً وطبيعياً، كان الحكم فى البلدين واحداً، والظلم الواقع عليهما مشتركاً، والشعور بالثورة والسخط ضد هذا الحكم عامًّا . . . لم يكن السودان بعيداً عن الأحداث التى وقعت فى مصر، بل شارك فيها مشاركة إيجابية . . . . كانت الفرقة السودانية فى الجيش المصرى فى مقدمة الفرق الثائرة، وكان قائدها (الأميرالاى عبد العال حلمى) أحد زعماء الثورة. وكان الضباط السودانيون فى هذه ظهيراً لحركة المهدى فى القاهرة، وكانوا يمدونه بالمعلومات والأخبار الهامة . . . والمنفيون الذين نفوا إلى السودان من القاهرة، وكانوا فى جملتهم من الوطنيين أصحاب الاتجاهات الإصلاحية؟ ماذا كان دورهم فى الحركة المهدية؟ وهل يعقل وجود هؤلاء فى الخرطوم دون أن يساهموا بآرائهم فى الثورة، وفى إعلان الغضب والسخط على حكومتهم فى القاهرة؟ . . . إن قصة الشيخ أحمد العوام لأنصع دليل على مساهمة هؤلاء فى الثورة، واشتراكهم الفعلى فى الحركة، ووقوفهم وراء المهدى يساندونه بكل قوة.

لقد كانت المعركة واحدة فى كل من الخرطوم والقاهرة. ولهذا كان الضباط والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم إلى معسكر المهدية وقد أعدم غوردون ضابطين مصريين كبيرين فى الخرطوم قبل سقوطها فى يد الثورة[٤٢]

وفى الباب التالى – الخاص بتحليل أصول الحركة المهدية – سنرى إلى أى مدى كان التشابه والتطابق بين الثورتين السودانية والمصرية، وأن الثورة العرابية لعبت دوراً بارزاً فى الثورة المهدية، فهى التى أعطت المهدى الإشارة، وفتحت أمامه الطريق إلى الثورة، وهتفت بالسودانيين أن هيا . . . وحطموا قيود الذل والعبودية . . .

---

(٤٢) العروة الوثقى ص ٢٠٨

الفصل الرابع

كيف صار مهديًا

وأقبل اليوم الموعود ..

لقد أعلن محمد أحمد أنه المهدى المنتظر ، وإمام الزمان الذى تجب طاعته على جميع البشر[1].

إنه ليوم فصل دخل فيه السودان مرحلة جديدة فى تاريخه الحديث ودبت الحياة والعافية فى جسمه الجريح ، وانتفض المارد المصفد يحطم قيوده فى وجه الظلم القبيح !

«وحيث إن الأمر لله ، والمهدية المنتظرة أرادها الله ، واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد عبد الله . فيجب التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله ..

وبعد هذا البيان فالمؤمن يؤمن ويصدق ، لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب ، ولا ينتظرون لأخبار أخر ، فمن انتظر بعد ذلك ، فقد استوجب العقوبة ، لأنه ﷺ قال : من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله .. »[2]

• • •

لقد صدق أهل السودان – خاصتهم وعامتهم – دعوة المهدى ، وأقبل عليه

---

(١) بدأ المهدى إعلان دعوته فى غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ - الموافق ٢٩ يونية ١٨٨١ م انظر فى هذا مهدى الله . ص ٤٠ ، كجغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٠

(٢) منشورات المهدية ص ٢٧

الزعماء وشيوخ القبائل مبايعين قائلين : نبايعك على المهدية وإن لم تكن مهدياً .. نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها .. ![3]

لقد كان لظروف البلاد السياسية والاقتصادية أعظم الأثر فى تقبل الدعوة[4] وفى الإقبال على التأييد والمبايعة ، وفى مؤازرة محمد أحمد بقوة ، ومادام أنه المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً وظلماً فإن طاعته تصبح فرضاً . ومن لم يبايع طوعاً بايع كرها ..

وماذا ينقص محمد أحمد حتى يكون مهدياً ؟ إنه عالم وصالح وشريف النسب ، كما أنه أفرق الثنايا على خده خال ، وبينه وبين الرسول ﷺ شبه فى الاسم وشبه فى اليتم ، إن كل شىء مهيأ لهذه الرسالة والناس فى كل مكان يطالبون بالحق والعدالة . لقد آن الأوان بعد الفوت .. وظهر فى السودان - بعد حيرة وترقب - إمام الوقت .. !

لقد بدأت المعركة ..

بدأها المهدى بالخطب والبيانات والإنذارات والرسائل ، والحرب أولها كلام كما يقول الأوائل .. ، وقد كان كلام المهدى - فى كل ما كتب - مفعماً بالشعور والعاطفة ، والإيمان والحركة ، والبساطة والقوة .

وبنظرة متأنية إلى تلك المنشورات والبيانات التى كتبها المهدى ، يمكن تحليل عناصر فكره ، وإرجاعها إلى المصدر الأصلى .

وفيما يلى من الصفحات تلخيص واف لبعض هذه البيانات والرسائل ، وستعودنا قراءتها - فى نهاية الأمر - إلى المنبع الذى نهلت منه فى الأصول والمصادر .

• • •

(٣) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ص ٨٥

(٤) انظر الفصل الخاص بالجهاد والثورة .

«من العبد المفتقر إلى الله .. محمد المهدى بن عبد الله إلى أحبابه فى الله المؤمنين بالله وكتابه .. أما بعد[٥] .

فلا يخفى تغير الزمن ، وترك السنن ، ولايرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن .. بل أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن لإقامة الدين والسنن .

ثم أحبابى كما أراد الله فى أزله وقضائه ، تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرنى سيد الوجود ﷺ بأنى المهدى المنتظر ، وخلفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر عليه السلام ، وأيدنى تعالى بالملائكة المقربين ، وبالأولياء .. الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا . وكذلك (بالمؤمنين)[٦] من الجن والإنس وفى ساحة الحرب يحضر معهم سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر عليه السلام ، وأعطانى سيف النصر من حضرته ﷺ ، وأعلمت أنه لاينصر علىّ معه أحد ولو كان الثقلين الجن والإنس .

ثم أخبرنى سيد الوجود ﷺ ، بأن الله جعل على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى .. تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب . يحملها عزرائيل عليه السلام . فيثبت بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله .

وحيث إن الأمر لله ، والمهدية أرادها الله لعبده الحقير الذليل محمد المهدى بن عبد الله ، فيجب التصديق بذلك لإرادة الله ، وقد أجمع الخلف والسلف (على) تفويض[٧] العلم لله . فعلمه سبحانه لايتقيد بضبط القوانين ، ولابعلوم المتفننين ،

---

(٥) منشورات الإمام المهدى ج ١ ص ١١ وما بعدها ، انظر أيضاً :
منشورات المهدية ص ٢٣ ومابعدها .
(٦) فى الأصل المؤمنون وهو خطأ لغوى كما هو ظاهر .
(٧) فى الأصل : اجتمع الخلف والسلف فى تفويض

بل يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده علم الكتاب قال تعالى : (ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء)[٨] (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)[٩] (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[١٠] .

وقد قال الشيخ محيى الدين بن العربي في تفسيره[١١] « وعلم المهدى كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله .. » .

وقال الشيخ أحمد بن إدريس[١٢] : كذبت في المهدى أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله . ثم قال : يخرج من جهة لايعرفونها وعلى حال ينكرونها .

هذا وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ : بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله – كررها ﷺ ثلاث مرات – وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية . فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة خالياً من الموانع الشرعية ، لابنوم ، ولاجذب ، ولاسكر ، ولاجنون . بل متصفاً بصفات العقل . أقفو أثر رسول الله ﷺ بالأمر فيما أمر به ، والنهي عما نهى عنه .

وإنى لا أعلم[١٣] بهذا الأمر حتى هجم على من الله ورسوله من غير استحقاق لى بذلك . فأمره مطاع وهو يفعل مايشاء ويختار وحكم نبيه ﷺ كحكمه ، ولما

---

(٨) سورة البقرة : الآية رقم ٢٥٥ -

(٩) سورة الأنعام – ٥٩

(١٠) سورة آل عمران الآية ٧٤ .

(١١) يقصد بتفسير ابن عربي كتاب الفتوحات المكية . لا هذا التفسير الذى ينسب إلى ابن عربي .
انظر في هذا الموضوع : الفتوحات المكية

(١٢) هو الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي مؤسس الطريقة الإدريسية المنتشرة في السودان ومصر وبلاد الصومال واليمن ، وكان صاحب مدرسة بالإضافة إلى كونه شيخ طريقة ، وكان من تلاميذه السيد محمد بن على السنوسي الكبير وقد مات في بلدة صبيا سنة ١٨٣٧م .
انظر كتاب سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى ص ١٠٢

(١٣) منشورات الإمام المهدى ج ١ ص ٦ ، وانظر أيضاً منشورات المهدية ص ٢١

تكاثرت منه البشائر والأوامر لى فى هذا المعنى امتثلت قياماً بأمر الله ، وقد كنت قبل ذلك (ساعياً)[14] فى إحياء الدين وتقويم السنة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولما حصل بالأحيانى من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى . أمرنى سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى «ماسة» بجبل قدير ، وأمرنى أن أكاتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً[15] . فكاتبنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين . فأنكر الأشقياء ، وصدق الصديقون الذين لا يبالون بما لقوه فى الله من المكروه وما فاتهم من المحبوب المشتهى بل ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى بقوله : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)[16]

والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتابا وسنة : قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[17] . وقال ﷺ : من فر بدينه من أرض إلى أرض استوجب الجنة . وإلى غير ذلك من الآيات والاحاديث . فإذا فهمتم ذلك فقد أمرنا جميع المكلفين بالهجرة إلينا لأجل الجهاد فى سبيل الله ، وإلى أقرب بلد منكم لقوله تعالى : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)[18]

فمن تخلف عن ذلك دخل فى وعيد قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم) .. الآية .. وقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض)[19] فإذا فهمتم ذلك فهلموا للجهاد فى سبيله ،

---

(١٤) فى الأصل ساع وهو خطأ .
(١٥) منشورات الإمام المهدى ج ١ ص ١٦٢
وانظر فى هذا أيضاً : منشورات المهدية ص ٢٤
(١٦) سورة القصص الآية رقم ٨٣
(١٧) سورة الأنفال الآية رقم ٢٤
(١٨) سورة التوبة الآية رقم ١٢٣
(١٩) سورة التوبة رقم ٢٤ والآية رقم ٣٨

ولاتخافوا من أحد غير الله ، لأن الخوف من غير الله يعدم الإيمان بالله والعياذ بالله ..

من (أجل)[٢٠] ذلك قال الله تعالى : (فلاتخشوا الناس واخشون)[٢١] فمن كان مهتمًّا بإيمانه . حريصاً على أمر ربه ، أجاب الدعوة ، واجتمع مع من ينصر دينه ..

وليكن معلومكم : أنى من نسل رسول الله ﷺ . فأبى حسنى من جهة أبيه وأمه ، وأمى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباس . والعلم لله .. إن لى نسبة إلى الحسين ، وهذه المعانى الحسان تكفى لمن أدركه الله بالإيمان فلا عبرة لمن يراها ، ولم يصدق بها ..

«ومن البشائر التى حصلت[٢٢] لنا .. أنه حصلت لنا حضرة نبوية (حضرها)[٢٣] «الفقيه عيسى»[٢٤] فيأتى النبى ﷺ ويجلس معى ، ويقول للأخ المذكور : شيخك هو المهدى . فيقول «الفقيه عيسى» : إنى مؤمن بذلك فيقول ﷺ : من لم يصدق بمهديته فقد كفر بالله ورسوله . قالها ثلاث مرات . ثم يقول له الأخ المذكور : ياسيدى يارسول الله : الناس من العلماء يستهزئون بنا ، والخشية أيضاً من الترك ، فيقول ﷺ : ولله . والله . إن قوى يقينكم إن أشرتم بأدنى قشة تنقضى حوائجكم ..

---

(٢٠) غير موجودة فى الأصل

(٢١) سورة المائدة الآية رقم ٤٤

(٢٢) من رسالة إلى الشيخ محمد الطيب البصير

انظر منشورات للهدية ص ١٢ ومابعدها .

(٢٣) فى الأصل حاضر عليها

(٢٤) فى الأصل : «الفقه» وهى كلمة شائعة فى مصر والسودان . وتعنى الرجل المشتغل بشئون الدين ويطلقونها فى مصر «الفى» وتطلق على معلم الأولاد القرآن .

ثم يقول الشيخ عبد الله[٢٥] : ياسيدى الشيخ الطيب[٢٦] نحن مصدقون بمهدية شيخنا ، والناس ليسوا بمصدقين . فيقول الشيخ الطيب : إن شيخك حين ولادته (عرفه)[٢٧] أهل الباطن والحقيقة فلما أتم الأربعين يوماً عرفته النباتات والجمادات أنه المهدى . ثم يقول الشيخ الطيب : الطريقة فيها الذل والانكسار ، وقلة الطعام ، وقلة الشراب ، والصبر وزيارة السادات[٢٨] . فتلك ستة . والمهدية أيضا فيها ستة : الحرب ، والحزم ، والعزم ، والتوكل ، والاعتماد على الله واتفاق القول . فهذه الاثنا عشر لم تجتمع إلا لك ..

ثم يأتى الشيخ «التوم»[٢٩] ويلقى على السلام بالمهدية ويقول : اجتهد فى قومك على أن يكون الكبير أباً ، والصغير ولداً ، والمساوى أخاً . ثم يأتى جدنا الشيخ البصير[٣٠] ، ويلقى على السلام بالمهدية . ويتكلم بكلام فهمنا منه أنه قال لى : أشدد الحزام على سنة النبى العدنان . ثم يأتى الشيخ القرشى[٣١] . فيلقى على السلام بالمهدية ، ويتكلم بكلام المفهوم منه أنه يقول : كن ذاكراً ، ولمن معك ساتراً . فيقول الشيخ عبد الله : ياسيدى : الناس منكرون مهدية شيخنا . فيقول : إن النبى ﷺ أعلمنى قبل مماتى بأن شيخك هو المهدى بذاته .

ثم يأتى النبى ﷺ ، ومعه الشيخ عبد القادر الجيلانى لابساً جبةً وعليها سيور . فيقول الشيخ عبد الله : ياسيدى يارسول الله : الناس منكرون الجبة ، ويتعففون

---

(٢٥) المقصود عبد الله التعايشى . خليفة المهدى

(٢٦) كان أحد الأولياء السودانيين . وكان ميتاً

(٢٧) فى الأصل : عرفوه

(٢٨) المراد بالسادات هنا الموتى من الأولياء

(٢٩) كان رجلا صالحاً .. وكان ميتاً أيضاً .

(٣٠) كان الشيخ البصير ميتاً أيضاً ، وكان شيخاً من شيوخ الطريقة السمانية

(٣١) الشيخ القرشى .. كان آخر شيوخ المهدى فى الطريقة ، وقد بشره قبل موته بالمهدية وكان لكلامه تأثير كبير فى فكر المهدى كما سيأتى .

عنها . أفهى سنة واردة عنك أم لا ؟ .

فيقول ﷺ : وذات الإنسان رقم . فى رأسه رقعة زرقاء وباطن شفتيه رقعة حمراء ، وأسنانه رقعة بيضاء ، وأظفاره رقعة صفراء . ولولا أنى خشيت عليك أن تكون مغشيًا لأريتك جيب الخلفاء الأربعة[٣٢] .

وهذه الليلة المذكورة التى حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان[٣٣] ليلة الأربعاء .

ثم تلى «علينا»[٣٤] جميع الأحوال إلى دخول مكة ، ومنازعة أهلها ، ومبايعة الضعفاء والغرباء أولا . ثم مبايعة الشريف ملك مكة ، وجميع أشرافها .. »

• • •

لقد اخترنا هذه النماذج الوافية من بيانات المهدى وكتبه ، وهى بيانات وشواهد كافية للتعرف على منابع إلهامه . وتحدد لنا - بوضوح ودقة - أصول دعوته ومصادر فكره .

لقد بدأ محمد أحمد دعوته بإعلان أنه «المهدى المنتظر» ، وأن الرسول ﷺ أجلسه مراراً على كرسيه بعد أن استخلفه نيابة عنه وأن الخلفاء الأربعة . «أبو بكر وعمر وعثمان وعلى» حضروا «حفل» تنصيبه «مهديًا منتظراً» وكذلك الخضر عليه السلام والأقطاب والأولياء من لدن آدم – حتى يومنا هذا – شهدوا هذا المؤتمر .. إلخ .. إلخ ..

من أين جاء المهدى بهذا الكلام .. ؟

• • •

لقد نشأ محمد أحمد أو «مهدى السودان» صوفيًا كما قدمنا ، وهو لم يكن فى صوفيته هذه شخصاً عاديًا بل كان شيخ طريقة وقطباً ، وللصوفية عالم ملىء

---

(٣٢) انظر منشورات المهدية ص ١٧

(٣٣) وهى الليلة التى أعلن فيها مهديته .

(٣٤) فى الأصل . لنا

بالخوارق والكرامات ، وهي كرامات وخوارق لايعرفها إلا أهل الكشف والمقامات وعلى سبيل المثال ، لا الحصر نضرب هذه الأمثلة من الشواهد والحكايات .

أولاً – رؤية الله :

فقد ذكر محيي الدين بن عربي عن شيخه أبي مدين : أن بعض الفقراء من الصوفية رأى الله تعالى في المنام وهو يقول لأبي مدين : مادة سرك بسنا نوري ، وقلبك موضع عظمتي وجبروتي[٣٥] .

ويقول أبو الحسن الشاذلي : قيل لي يا علي اهبط فقلت يارب أقلني من الناس . فقيل انزل . فقد أصحبناك السلامة[٣٦] .

وقد ذكر الإمام الغزالي «أن التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال على الله بكنه الهمة ، يزيل عن عين القلب كل حجاب ، ويفتح من دون البصيرة كل باب وهناك يشهد العبد الرب شهوداً عينيًّا ، ويحيط بذاته إحاطة كاملة[٣٧] .. »

ثانياً – رؤية الأنبياء والملائكة :

وفي ذلك يقول الشيخ أبو العباس المرسي : كنت مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي بالقيروان . وكان شهر رمضان ، وكانت ليلة الجمعة ، وكانت ليلة السابع والعشرين ، فذهبت إلى الجامع مع الشيخ أبي الحسن . فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه تساقط الذباب على العسل . فلما أصبحنا وخرجنا من

---

(٣٥) الكتاب التذكاري لـ «محيي الدين بن عربي» ص ١٤٦ ط القاهرة – سنة ١٣٨٩هـ
(٣٦) أبو الحسن الشاذلي – تأليف الإمام الأكبر عبد الحليم محمود – ص ٣٥ ط القاهرة ١٣٨٧ هـ
(٣٧) الحياة الروحية في الإسلام – تأليف الدكتور محمد مصطفى حلمي – ص ١٢٨ القاهرة – ١٣٦٤هـ – ١٩٤٥م .

الجامع قال الشيخ : ماكانت البارحة إلا ليلة عظيمة وكانت ليلة القدر ، ورأيت رسول الله ﷺ يقول : ياعلى طهر ثيابك من الدنس ، تحظ بمدد الله فى كل نفس[٣٨] . كما حكى عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه ، فروى ذلك الفقيه حديثاً . فقال الولى : هذا باطل . فقال الفقيه : ومن أين لك هذا ؟ فقال : هذا النبى ﷺ واقف على رأسك يقول : إنى لم أقل هذا الحديث وكشف للفقيه فرآه[٣٩] !

كما ذكر السيوطى عن جماعة من الأولياء أنهم رأوا النبى ﷺ . يقظة حيًّا بعد وفاته ، وأن بعضهم التقى بسيدنا إبراهيم الخليل وسأله الدعاء لأهل مصر . فدعا لهم .. ففرج الله عنهم[٤٠]

وقد ألف السيوطى فى ذلك رسالة سماها «تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبى والملك[٤١] » ذكر فى مقدمتها « أن طائفة من أهل العصر ممن لا قدم له فى العلم بالغوا فى إنكار ذلك ، والتعجب منه ، وادعوا أنه مستحيل فألفت هذه الكراسة فى ذلك ، وسميتها «تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبى والملك » وتمسكت بالحديث الصحيح الوارد فى ذلك .. »

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال[٤٢] » فقال :

---

(٣٨) أبو الحسن الشاذلى ص ٧

(٣٩) الحاوى للفتاوى - الإمام جلال الدين السيوطى ج ٢ ص ٤٤٦ - ط القاهرة - ١٣٧٨هـ

(٤٠) الحاوى للفتاوى - تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى - ج ٢ ص ٤٤٣ الطبعة الثالثة - القاهرة - ١٣٨٧هـ

(٤١) المصدر السابق ص ٤٣٧

(٤٢) المنقذ من الضلال . تحقيق الدكتور رشيد أحمد ص ٥٠ ط هيئة الأوقاف بحكومة البنجاب ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م .

ويقول الشيخ العلامة محمد حبيب الله تعليقاً على أقوال العلماء فى الأحاديث التى رواها الإمامان البخارى ومسلم . وهى : «من رآنى فى المنام فقد رأى الحق » . و ... «من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولايتمثل الشيطان بى » و .. «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لايتمثل بى » يقول الشيخ : والذى يتحصل =

إنى لما فرغت من العلوم . أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، والقدر الذى أذكره لينتفع به . إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون بطريق الله خاصة وأن سيرهم وسيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس من وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، حتى إنهم وهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

= من كلام المحققين هو : أن رؤيته عليه السلام فى اليقظة ممكنة شرعاً وعقلا ، ولا وجه لإنكاره ..

وممن حقق الصواب فى هذا المقام « الجلال السيوطى » وألف فيه رسالة سماها « تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبي والملك » أطال فيها بذكر الأدلة والوقائع التى وقعت لأكابر السلف من ذلك .. وقال فى آخرها : فحصل من مجموع ذلك أن النبى ﷺ حيٌّ بجسده وروحه ، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء فى أقطار الأرض وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته ، وأنه لم يتبدل منه شىء ، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم . فإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد إكرامه برؤيته رآه على هيئته التى هو عليها ولا داعى إلى التخصيص برؤية المثال .

وقد سئل العلامة المحقق شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى : هل يمكن رؤية النبى ﷺ فى اليقظة ؟ فأجاب : أنكر ذلك جماعة وجوزه آخرون . وهو الحق .. !

واستدل على ذلك بحديث : « من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة » واحتمال إرادة ذلك يوم القيامة بعيد . لأن أمته كلها ستراه يوم القيامة . وقد تقرر أن ماجاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة ..

انظر فى هذا الموضوع :

(أ) صحيح الإمام البخارى ج ٩ ص ٤٢ طبعة الشعب القاهرة

(ب) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١٦٠ طبعة وزارة الأوقاف الكويتية .

(جـ) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم . تأليف الشيخ محمد حبيب الله ج ٣ ص ١٧٩ وما بعدها مطبعة الحلبي . القاهرة .

(د) الحاوى للفتاوى . للسيوطى ج ٢ ص ٤٣٧ - وكتاب الفتاوى الحديثية لابن حجر

ثالثاً – وجود الخضر عليه السلام :

كما يعتقد الصوفية بوجود الخضر عليه السلام ، وبقائه حيًّا إلى ذلك اليوم ، وقد رووا فى ذلك العديد من الحكايات والقصص ، وهم – أى الصوفية – يلتقون به ويستشيرونه ، ويحضر مجالسهم ويستقبلونه .

وفى ذلك يقول ابن عربى :

« اعلم أيها الولى الحميم أيدك الله أنه قد اتفق لنا فى شأنه أمر عجيب[٤٣] »..

ثم يذكر قصة خلاف وقع بينه ، وبين شيخه أبى العباس المرسى .. فلما ترك منزل الشيخ قابله فى الطريق رجل وقال له : صدق شيخك فيما ذكر لك . قال ابن عربى : فرجعت من حينى إلى الشيخ لأعرفه بما جرى . فلما دخلت عليه قال لى : يا أبا عبد الله أأحتاج معك إذا ذكرت مسألة يقف فيها خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض لك ويقول لك : صدّق فلاناً فيما ذكره لك[٤٤] .

ويقول ابن عربى : إنه اجتمع بالخضر ، وإنه – أى الخضر – ألبسه خرقة الصوفية ، وإن ذلك تم تجاه الحجر الأسود فى مكة ، وإنه أخذ عليه العهد بالتسليم لمقامات الشيوخ « أهل التصريف » وإنه كان متردداً فى لبس الخرقة من الخضر حتى أعلمه الخضر أنه لبسها من يد رسول الله ﷺ بالمدينة المشرفة منبع الفيض الأتم[٤٥] .

---

(٤٣) الفتوحات المكية ج ١ ص ١٨٥ ومابعدها – ط دار الكتب العربية – القاهرة

(٤٤) الفتوحات المكية ج ١ الفصل الخامس والعشرون .

(٤٥) الكتاب التذكارى ص ٣٠٤

وقد اختلف فى شأن الخضر اختلافاً كبيراً . ويرى أكثر المفسرين : أن الخضر هو الشخص الذى أمر موسى بالتوجه إليه ، والذى أشارت إليه الآية الكريمة « فى سورة الكهف » : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » لكن اختلفوا فى كونه نبيًّا أو وليًّا .

ولقد جاء فى تفسير الجلالين مايلى : « فوجدا عبداً من عبادنا » – هو الخضر – آتيناه رحمة من عندنا =

رابعاً– قطب الزمان والغوث[٤٦] :

ولم يكتف الصوفية بكل هذا . فقد ذهبوا إلى القول بأنه .. لما ذهبت النبوة ، وكان الأنبياء أوتاد الأرض ، أخلف الله مكانهم أربعين رجلا من أمة محمد ﷺ ، يقال لهم الأبدال ، لايموت الرجل منهم حتى يخلف الله مكانه رجلا آخر ، وهم أوتاد الأرض . يسق بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء[٤٧] ، وقد ألف العلامة جلال الدين السيوطى فى ذلك رسالة قال فى مقدمتها : بلغنى عن بعض من لاعلم عنده إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء ، من أن لهم أبدالا ، ونقباء ، ونجباء ، وأوتاداً ، وأقطاباً . وقد وردت الآثار والأحاديث بإثبات ذلك . فجمعتها فى هذا الجزء لتستفاد ، ولايعول على إنكار أهل العناد ، وسميته « الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد ، والنجباء والأبدال »[٤٨] .

فإذا ولى الله من ولاه النظر فى العالم ، وهو المعبر عنه بالقطب أو الغوث ، أو واحد الزمان ، أو الخليفة . نصب الله له فى حضرة المثال سريراً أقعده عليه فإذا نصب الله له ذلك السرير . خلع عليه جميع الأسماء التى يطلبها العالم وتطلبه وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة . فالسعيد من عرف إمام وقته فبايعه ، وحكمه فى نفسه ، وأهله وماله[٤٩] ..

= « نبوة فى قوله ، وولاية فى قول آخره ، وعليه أكثر العلماء وعلمنا من لدنا علماً » أى من قبلنا .

وجاء فى المصحف المفسر للمرحوم محمد فريد وجدى مايلى : فوجدا عبداً من عبادنا هو الخضر آتيناه النبوة من عندنا ، وعلمنا مما يختص بنا علماً هو علم الغيب .

« وحكى السهيلى عن قوم أنه كان ملكاً من الملائكة ، وليس من بنى آدم »

(٤٦) انظر فتح البارى ج ٧ ص ٢٤٤ ط الحلبى . القاهرة .

(٤٧) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٣٧

(٤٨) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٤١٧

(٤٩) الفتوحات المكية ج ٣ ص ١٣٧ وما بعدها .

وبما أن للقطب ، أو الغوث ، هذه الهيمنة والسلطة على العالم ، فلاعجب أن يتحدث إلى الموتى ، ويتكلم إليهم ، ويتبادل الرأى والمشورة معهم ، وقد ذكر الشعرانى : أن السيد البدوى كان يخرج يده من قبره ويصافحه ! وأنه - أى الشعرانى - كان يتحدث إليه ويكلمه[٥٠] ، وأن الشيخ الشناوى كان يذهب إليه فى قبره ويستشيره[٥١] بل إن بعض الأولياء أحيا الموتى وأعاد إليهم الحركة[٥٢] وكان بعضهم يتحدث إلى الحيوان والنبات بلغة فصيحة[٥٣] .

• • •

ولم يكتف الصوفية بهذا القدر من الكرامات والخوارق . بل ذهب بعضهم إلى القول إن مايكتبه فى جميع تآليفه ليس عن روية وفكر ، وإنما هو من نفث روعى على يد « ملك الإلهام » من إملاء إلهى ، وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى .

وفى ذلك يقول ابن عربى :

إن ترتيب الفتوحات المكية لم يكن لى من اختيار ، ولا عن نظر فكرى ، وإنما الحق يملى لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره[٥٤] .

---

(٥٠) صوفيات - تأليف الشيخ عبد الرحمن الوكيل - ص ٥٥ ط القاهرة

(٥١) السيد أحمد البدوى - شيخ وطريقة - تأليف الدكتور سعيد عاشور - ص ١٦٤ القاهرة - ١٣٨٧هـ .

(٥٢) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية - تأليف الشيخ عبد الرءوف المناوى - ص ١١ ط القاهرة - ١٩٣٨م

(٥٣) انظر فى هذا الموضوع :

غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٣٨ الجزء الثانى - ط القاهرة

الكتاب التذكارى لابن عربى ص ١٢٨

(٥٤) انظر فى هذا :

كتاب الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٨٧

وكتاب - محيى الدين بن عربى - تأليف عبد اللطيف نوفل - ص ١٦٩ - القاهرة ١٣٨٨ هـ

ويقول أيضاً : إني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة - رؤيا - أريتها في العشر الأواخر من المحرم سنة ٦٢٧هـ بدمشق وبيده كتاب فقال : هذا كتاب فصوص الحكم . خذه ، واخرج به إلى الناس[٥٥] .

كما ذكر ابن الفارض أنه كان يتلقى الأوامر من النبي ﷺ بتسمية قصائده التي ينشئها . ومن ذلك أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فسأله - أي النبي - عن قصيدته التائية الكبرى بم سماها ؟ فأجابه ابن الفارض بأنه سماها «لوائح الجنان وروائح الجنان» فقال له النبي : لا . بل سمها «نظم السلوك» .. ومن هنا كان الاسم عنواناً على هذه القصيدة . اشتهرت به[٥٦] .

بل إننا نجد رجلا مجدداً كالشيخ أحمد شاه ولي الله الدهلوي يقول عن سبب تأليفه كتاب «حجة الله البالغة» : بينا أنا جالس ذات يوم بعد صلاة العصر متوجهاً إلى الله .. إذ ظهرت روح النبي ﷺ وغشيتني من فوق بشيء خيل إلى أنه ثوب ألقى على ، ونفث في روعي في تلك الحالة أنه إشارة إلى نوع بيان للدين ، ووجدت عند ذلك في صدري نوراً لم يزل ينفسح كل حين ثم ألهمني ربي بعد زمان أن مما كتبه على القلم العلي . أن انهض يوماً لهذا الأمر الجلي .. ثم رأيت الإمامين الحسن والحسين في منام - رضى الله عنهما - وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطياني قلماً وقالا لي : هذا قلم جدنا رسول الله ﷺ . ولطالما أحدث نفسي أن أدون به رسالة تكون تبصرة للمبتدى ، وتذكرة للمنتهي[٥٧] ..

• • •

لقد وعى المهدى السوداني كل هذا المفاهيم واختزنها في عقله ، كما أننا لا نستبعد

---

(٥٥) الكتاب التذكاري - ص ١٣٥

(٥٦) ابن الفارض - دكتور محمد مصطفى حلمى - ص ١٩٦

(٥٧) حجة الله البالغة - ج ١ ص ٣ تأليف الشيخ أحمد شاه ولى الله الدهلوى .
ط المطبعة المنيرية - القاهرة - ١٣٥٧ هـ

أن يكون شاهد بعض هذه الأشياء وعاينها بنفسه . فقد كانت حياته الصوفية غنية بالتجارب الروحية . وكان تاريخه مفعماً بتلك الصور والإشراقات الجميلة . كما كان - على غير عادة أقرانه - مهتماً بالمسائل والقضايا العامة . فاستطاع بذكائه وشفافيته المزج «بين الظاهر والحقيقة» أو بين «الواقع والأمنية» وكان لكل ذلك أثره فى تكوين شخصيته ، وفى صياغة فكره وآرائه ، كما ظهر ذلك كله واضحاً فى بياناته ومنشوراته وكتبه .

وقد كان لمحيى الدين بن عربى تأثيره الكبير فى فكر المهدى . فقد كانت كتبه ومؤلفاته من أكثر الكتب رواجاً وانتشاراً ، وكانت «الفتوحات المكية» من أشد هذه الكتب تأثيراً ، وقد ذكر ابن عربى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب :

أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً ، فيملؤها قسطاً وعدلا ، ولولم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة من عترة رسول الله ﷺ . من ولد فاطمة . يواطئ (يشبه) اسمه اسم رسول الله ﷺ [٥٨] .. وأن لهذا الخليفة ملكاً يسدده من حيث لايراه .. أى ملك الإلهام . يبيد الظلم وأهله .. ويقيم الدين .. ينفخ الروح فى الإسلام . يعز الإسلام بعد ذله ويدعو إلى الله بالسيف . فمن أبى قتل ، ومن نازعه خذل[٥٩] .

يرفع المذاهب من الأرض .. أعداؤه مقلدة العلماء لما يرونه من الحكم بخلاف ماذهب إليه أئمتهم .. يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهى .. فشهداؤه خير الشهداء . وأمناؤه أفضل الأمناء ، يعرف من الله (علم الغيب) قدر مايحتاج إليه مرتبته لأنه خليفة مسدد .. يفهم منطق الحيوان . ويسرى عدله على الإنس والجان من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له . وهم أى الوزراء أو الخلفاء على أقدام رجال من الصحابة صدقوا ما عاهدوا الله

---

(٥٨) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٧

(٥٩) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٧

عليه[٦٠] .. وهو أعلم الخلق بالله .. ولايكون فى زمانه ، ولابعد زمانه أعلم بالله منه .. فهو والقرآن أخوان .. كما أن السيف والمهدى أخوان[٦١] .. والمهدى حجة الله على أهل زمانه .. وهى درجة الأنبياء ..

والمهدى لا يخطئ .. لأنه يقفو أثر رسول الله ﷺ[٦٢] والإمام – أى المهدى – يتعين عليه علم مايكون بطريق التنزيل الإلهى ، فما يحكم المهدى إلا بما يلقى إليه الملك من عند الله الذى بعثه إليه ليسدده ، فعرفنا بذلك أنه معصوم .. ولا يخطئ ولا معنى للمعصوم فى الحكم إلا أنه يخطئ[٦٣] .

• • •

من أين جاء ابن عربى بهذا الكلام ومامصادره ؟

لقد كان ابن عربى عالماً متبحراً فى آراء الشيعة فنقل آراءهم وأقوالهم إلى التصوف[٦٤] ، وضمن كتابه «الفتوحات المكية» كثيراً من آرائهم وأقوالهم فى صورة صوفية ، وقد تأثر المهدى السودانى بآرائه إلى درجة بعيدة ، وكان كتاب «الفتوحات المكية» من أهم هذه الكتب عنده «فالإمام عند الشيعة له صلة روحية بالله من جنس التى للأنبياء والرسل . وقد كتب الحسن بن العباسى المعروف بأبى الرضا يقول : جعلت فداك . أخبرنى ماالفرق بين الرسول والإمام والنبى ؟

فكتب أو قال : الفرق بين الرسول والنبى والإمام أن الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل فيراه ، ويسمع كلامه ، وينزل عليه الوحى ، والنبى ربما سمع الكلام ،

---

(٦٠) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٨
(٦١) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٩
(٦٢) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٣٢
(٦٣) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٣٥
(٦٤) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٥ ، منشورات المهدية ص ٢١

وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص »[٦٥].

« والأئمة هم أركان الأرض أن تميد بأهلها .. وحجته البالغة على من فوق الأرض أو تحت الثرى .. والملائكة تدخل بيوت الأئمة .. وتأتيهم بالأخبار .. وهم – أى الأئمة – معصومون من الذنوب صغيرها وكبيرها . فلا يقع منهم ذنب أصلا لا عمداً ولا نسياناً ولاسهواً ولا غير ذلك[٦٦] »

« والإمام بهذا المعنى يوحى إليه .. والله أعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل . إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم ، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم وهو حجة على عباده ، ولاتبقى الأرض بغير إمام .. ولو لم يبق فى الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة[٦٧] .. »

فالشيعة إذاً .. أول من كتبوا عن الإمامة كتابة علمية . وهم أصحاب الفضل الأول فى هذا النوع من العلم المسمى بالإمامة .. هم الذين أنشأوه . وهم الذين اختاروا مصطلحاته ، وقسموا أبوابه . وعينوا مجاله ورسموا حدوده .

وقد اتفق علماء السنة والشيعة على وجوب قيام الإمامة ، وإن اختلفوا فى كيفية قيامها . فالنظرة السنية للخلافة نظرة نابعة من الأمة التى يجب عليها اختيار أصلح الناس لقيادتها ، أما النظرة الشيعية فتختلف عن النظرة السنية حول من يجب عليه اختيار هذا الإمام .. فهم – أى الشيعة – يرون أن فعل « اللطف » واجب على الله – وهى فكرة اعتزالية متفرعة من القول بوجوب فعل الصلاح على الله – وقد نقل الرازى عن أحد أئمتهم أنه قال : اعلم أن مرادنا من اللطف الأمر الذى علم الله

---

(٦٥) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٣ .. وقد نقل ابن عربى هذه الصورة إلى التصوف وكساها إطاراً صوفيًا خاصًا .. انظر « الفتوحات » ج ١ ص ١٥٠

(٦٦) ظهر الإسلام جـ ٤ ص ١١٠ - الطبعة الخامسة - ١٣٨٨هـ

(٦٧) ظهر الإسلام ج ٤ ص ١١٣

تعالى من حال المكلف أنه متى وجد ذلك الأمر كان حاله إلى قبول الطاعات والاحتراز عن المعاصى ، أقرب مما إذا لم يوجد ذلك الأمر[٦٨] ..

ومن ثم فإنهم كونوا القياس الذى يستدلون به على مذهبهم على هذا النحو : قالوا : بما أن فعل اللطف واجب على الله ، وبما أن الإمامة لطف فإقامتها إذن واجب على الله ، لأننا نحتاج إلى الإمام ليكون «لطفاً» فى أداء الواجبات العقلية ، والاجتناب عن القبائح العقلية ، وليكون حافظاً للدين عن النقصان والزيادة ، وهذا مذهب الإمامة الاثنا عشرية ، وقد شرح الإمامية مذهبهم هذا فقالوا : إن الشريعة التى جاء بها النبى ﷺ لابد من وصولها صحيحة إلى الناس بعد عهده ليحصل عليهم التكليف ، فلا بد لها من حافظ يحفظها من التغير..

ولابد أن يكون هذا الحافظ والناقل غير جائز عليه الخطأ ، وإلا كان وصول الشريعة غير متحقق وقالوا : إن إثبات الإمامة باختيار الناس يفضى إلى الفتنة ، إذ يحدث الاختلاف بين الناس لأسباب كثيرة ، لرفع أسباب هذا النزاع إنما يكون بتعيين الإمام من الله . أى بنص الشرع لطفاً من الله بعباده ورحمة بهم[٦٩] .

وقالوا : إن الإمام يجب أن يكون واجب العصمة ، وأن يكون أفضل الخلق كلهم .. وأن يكون أعلم الأمة وأنه لو جاز الخطأ على الإمام .. لثبت أن الله أمر باتباع الذنب ، أو المعصية وهو غير جائز على الله[٧٠] ..

إن الإمام نائب عن الله ، ونائب عن رسوله . ونيابة الغير لاتحصل إلا بإذن ذلك الغير ، فوجب ألا يثبت الإمام إلا بنص الله ، ونص رسوله ، فثبت أن الإمامة لا تثبت إلا بالنص[٧١] ..

* * *

(٦٨) كتاب الأربعين فى أصول الدين – الفخر الرازى – ص ٤٢٩ طبعة حيدر آباد الدكن – ١٣٥٣ هـ

(٦٩) النظريات الإسلامية السياسية ص ١٥٠

(٧٠) المصدر السابق ص ١٥٠

(٧١) المصدر السابق ص ١٥٠

لقد أخذ ابن عربي عن الشيعة هذه الأفكار والمفاهيم ، ونقلها المهدى عن ابن عربي في فترة مبكرة من التلقى والتعليم .

ومما يلفت النظر في هذا المقام - كما يقول المرحوم عباس العقاد :

«إن دعوته الأولى كانت باسم الإمام الثانى عشر الذى ينتظره الشيعة الإمامية»[٧٢] .

ولم يكن في السودان يومئذ من يشك في اقتراب الساعة لسوء الحال ، وشيوع الفساد ، واجتراء المفسدين على الجهر بمنكراتهم ، حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، ووافق ذلك سخطاً عاماً بين العامة وكبار الزعماء والتجار الذين أرهقتهم الضرائب والمظالم ، فتهيأت العقول للإصغاء إلى دعاة الإصلاح أو دعاة التغيير كيف كان[٧٣] ..

• • •

لقد كان السودان يعيش هذه الفترة من تاريخه في ترقب وانتظار ، كان الجميع يتوقعون ظهور المهدى المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلا ، بعد أن ملئت جوراً وظلماً ، وكانت أحاديث أهل الورع والتقى تدور حول «حجة الزمان» و«إمام القرن» و«خليفة النبي» الذى لابد أن يظهر سريعاً ، ولم يكن السودان ، وشعب السودان وحدهما في هذا الانتظار والترقب ، كان العالم الإسلامى كله مهيئاً لقدوم هذا البطل المنقذ ، وكان المسلمون الأفارقة يستعجلون ظهوره . لإنقاذهم من الخطر الاستعمارى المحدق ، وكانت أول حركة من هذا النوع حركة مهدى السنغال المعروف بالحاج عمر ، وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط فظفر بكثير من الأتباع وكرم كمهدى جديد ، وما إن وافت سنة ١٨٤١م حتى بلغ جبال «فوتا جالون»

---

(٧٢) الإسلام في القرن العشرين ص ١٣٩

(٧٣) انظر في هذا الموضوع الفصل الخاص بالجهاد والثورة

حيث سلح أتباعه ، وبدأ سلسلة من الحملات فى نشر تعاليم الدعوة[٧٤] وكان الناس يعتقدون فى «السيد محمد المهدى بن السيد محمد على السنوسى الكبير» أنه المهدى المنتظر[٧٥] .

وقد فكر «لويس رين» Louis rinn أن هدف السنوسية كان الإمامة ، أو تشييد صرح الدولة الإسلامية[٧٦] . كما ترك لنا الشيخ المصلح «عثمان دنفديو» مخطوطة[٧٧] تحدث فيها عن «المهدى المنتظر» وعلاماته وقرب ظهوره قال فى مقدمتها : «ماأردت بتأليفى هذا الكتاب إلا قرار بأنى أنا الإمام المهدى ، وإنما أردت بتأليفه أن أبين لكم بأن الله تعالى قد من على بموافقة أحوالى أحوال الإمام المهدى التى أوردها العلماء فى كتبهم امتثالا لقوله تعالى : «وأما بنعمة ربك فحدث» . وللإمام المهدى رضى الله عنه أوصاف أسرار لايتصف بها مثلى ، وأين دوى الزنبور من نغمة الزبور ! »[٧٧] يؤكد ذلك تلك الرسالة - التى بعث بها «حياة بن سعيد» - حفيد عثمان دنفديو - إلى المهدي السودانى ردًّا على رسالته :

«إلى سيدنا[٧٨] ، وقدوتنا ، ووسيلتنا إلى ربنا خليفة رب العالمين ، ونجل سيد الأولين والآخرين ، ورحمة الله المهداة للمؤمنين ، والحجة الواضحة على المنكرين ، وسيفه المسلول على الكافرين ، ناشر العدل بأقصى البلاد على رغم أنوف الظالمين . الذى ننتظره كانتظار «شوال» من الصائمين . سيدنا محمد المهدى المنتظر بن السيد عبد الله الحسنى ، وابن ساداتنا إلى سيد الوجود ﷺ ، وعليهم

---

(٧٤) الدعوة إلى الإسلام - توماس أرنولد - ص ٣٦٧

(٧٥) السنوسية دين ودولة ص ٧١

(٧٦) السنوسية دين ودولة ص ١٨

(٧٧) مخطوطة خاصة بمكتبة الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر مبعوث الأزهر إلى نيجيريا واسم هذه المخطوطة «النبأ الهادى إلى أحوال الإمام المهدى»

(٧٨) منشورات المهدية ص ٣٣٤

أبرك تحية » ، وأطيب سلام بغاية رضا ، وأعلى إكرام .

وبعد : فقد وصلنا كتابك الكريم ، وتلقيناه بأسرع ترحيب ، وأيقن تسليم ، وقد روينا به بعد ظمأ ، وحيينا به بعد موت ، واهتدينا به بعد ضلالة ، وقمنا على بصيرة قائلين بلسان الحال والمقال . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

لقد جئت ياسيدى بالحق ، وزهقت الباطل ، «فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » ..

وقد أتيتنا بما سيجعل الله به كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا ، فآمنا بك مخلصين ومنقادين لك ظاهراً وباطناً ، وبايعناك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . معتقدين بل موقنين أن يدك الكريمة نائبة عن يدى الحق التي فوق أيدينا إن شاء الله تعالى ، وتركنا كل ما نحن فيه توفية لما عاهدتنا ، راغبين القرب منك في الدنيا والآخرة ولو كنا ظالمين . وإن متنا على بيعتك . فلله الحمد والشكر على هذه النعمة التي لا نعمة فوقها ، وقد رأينا الكرامات وصدقنا ووقفنا على الآيات ، واعتبرنا وأطعنا الأمر ..

وها نحن يا سيدى مهاجرون إلى الله ورسوله وإليك ، وأرجو أن نكون أنصار الله ورسوله وأنصارك . سيما أنت اليوم قبلة الله ومسجده الحرام ، فتوجهنا إليك إبراهيمى الوجوه ، وما خرجت من بيتى وأهلى ياسيدى وخليفة ربى إلا لكثرة ذنوبى وسوء أخلاق . راجياً لرحمة ربى ، قاصداً بيته ، وقبر نبيه ، لعله برحمته الواسعة أن يغيثنى بلقائك ، وما أقمت في ذى البلاد إلا لانتظارك وقد بايعتك أنا ووالدى وجميع من تعلق بى قبل ظهورك الحسى ، وشأننا مع شأنك معلوم عندنا .. سيما قد أوصانا جدنا الشيخ عثمان بن فودى – رضى الله عنه – بالهجرة إليك ونصرتك ومعيتك إذا ظهرت ، ونحن معك قلباً وقالباً فى نصر دين الله ، وسنة رسول الله إن شاء الله . إلا من سبق عليه القول والعياذ بالله » .

لكن ذلك كله لم يكن كافياً لمبايعة محمد أحمد كـ « مهدى » إن الأمر لم يكن بهذه السهولة فى مجتمع تتعدد فيه القيادات ، وتتصارع فيه الزعامات ويحتل فيه شيوخ الطرق مكانة الرسل والأنبياء ! إن رد الفعل سيكون عنيفاً ، وسيكون رد هذا الفعل عند الحكومة قويًّا ومخيفاً .

ماذا يفعل محمد أحمد ؟ إنه حتى الآن لم يقل إنه مهدى . كل مايعرفه الناس عنه أنه صالح وتقى ، وأنه فى ورعه وصلاحه ولى ، ولكن مقام المهدية شىء آخر . إن مقامها مقام النبى . فمن يجرؤ على ادعاء هذا المقام النبوى ؟

فى هذا الوقت مات شيخه القرشى ، وكان من كلامه قبل أن يموت : أن من يختن أولادى ، ويبنى قبة على ضريحى سيكون هو المهدى[٧٩] !

والتقطها محمد أحمد بأذنيه المرهفتين ، وإحساسه المرهف .. سيكون هو المهدى .. ؟ ولم لا أكون أنا ؟ إن أمر بناء القبة سهل ، وختان الأولاد أكثر سهولة . ومادام ثمن ذلك هو المهدية فلم لا أكون أنا المهدى !

وشرع على الفور فى بناء القبة . وبينما هو على هذا الحال « إذ وفد عليه رجل فارع القامة ، قوى الجسم ، وماكاد نظره يقع على محمد أحمد ، حتى سقط مغشيًّا عليه ، ولم يفق من غشيته إلا بعد ساعة ، ولما أفاق عاد فنظر إلى محمد أحمد وتقدم لمصافحته ، فأغمى عليه مرة ثانية ! ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبواً على الأرض ! فأخذ يده وشرع فى تقبيلها وهو يرتعد ويبكى . فقال له محمد أحمد : من أنت يارجل وماشأنك ؟ قال :

يا سيدى أنا عبد الله بن محمد ود تورشين . من قبيلة التعايشة وقد سمعت بصلاحك فى دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك ، وكان لى أب صالح من أهل الكشف ، وقد قال لى قبل وفاته : إنك ستقابل المهدى وتكون وزيره ! وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته ، فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى

(٧٩) انظر فى هذا الموضوع : الفصل الخاص بنشأة المهدى وثقافته .

أخبرني بها والدي بعينها ! فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله ، وخليفة رسوله ، ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيته[٨٠] !

لقد صادف هذا الكلام قبولا وهوى في نفس محمد أحمد ، وجاء مطابقاً تماماً لما ذكره الشيخ القرشي . وكان لهذا الإيحاء - أو هذه التمثيلية - التي قام بها التعايشي دور خطير في إعلان «ظهور» المهدي !

كان التعايشي رجلا قوي الشخصية ، وكان طموحه لايقف عند غاية ، وقد حال دون بلوغه أربه نشأته المتواضعة ، وسمعته الرديئة ، وقد وجد في محمد أحمد فرصته السانحة ، وشعر بما يشعر به السودانيون من سخط وثورة . ومن تطلعهم إلى منقذ يخلصهم من تلك المآسي الدامية المحزنة ، فاستعمل معه ذكاءه وحرفته[٨١] ، وزكي في نفسه الإحساس والشعور بأنه المنقذ الذي تنتظره الأمة .

وقد حفظ له المهدي هذا الجميل وكافأه ، فجعل منه خليفته وقائد جيوشه واعتبر المساس بشخصه عدواناً على شخصه هو وكرامته ، ووجه إلى الناس هذا البيان يحذرهم فيه من الخوض في عمله وتصرفه :

إن الخليفة عبد الله هو مني ، وأنا منه ، وقد أشار إليه سيد الوجود ﷺ . فتأدبوا معه كتأدبكم معي ، وسلموا له ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي ، وصدقوه في قوله ، ولاتتهموه في فعله ، فجميع مايفعله بأمر النبي ﷺ ، أو بإذن منا ، لابمجرد اجتهاد منه ، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ ، والقضاء بإشارته فإن فعله بكم ، وحكمه فيكم بحسب ذلك .

---

(٨٠) انظر في هذا الموضوع :

جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٤٣ وما بعدها

مهدي الله ص ٢٣

(٨١) كان التعايشي يشتغل بالتنجيم والسحر . وسوف نتناول شخصيته بالتفصيل في الفصل الخاص بتقويم الحركة المهدية .

واعلموا يقيناً أن قضاءه فيكم ، هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً[٨٢]) . فمن كان فى صدره حرج لأجل حكمه ، فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته ، وذلك بشاهد قوله تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً[٨٣]) ولاشك فى شرك من استنكف عن حكم الله ، وحكم رسوله ، سيما بقوله ﷺ «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفى» مع أنه خليفة الصديق ، وأول المصدقين فى المهدية فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن ، وانظروا لمن أورثه الله مكانة الصديق بالباطن - بالخضر عليه السلام - فهو - مسدد مؤيد من الله ورسوله ، ويد من أيادى الله لنصرة دينه بإشارة سيد الوجود ﷺ . فحيث فهمتم ذلك . فالتكلم فى حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الإيمان .

واعلموا أن جميع أفعاله ، وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب .. ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم ، فلا تعترضوا عليه ، ومن تكلم فى حقه ولو بالكلام النفسى فقد خسر الدنيا والآخرة ! ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه خليفة الصديق الذى قال الله فى حقه (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[٨٤] ، وقال ﷺ : «ماطلعت شمس على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر» وحيث علمتم ذلك . فهو بمنزلته الآن . لأن أصحابنا كأصحاب رسول الله ﷺ .

والمذكور خليفتنا فى الدين ، وخلافته بأمر من النبى ﷺ ، فمن كان منكم

---

(٨٢) سورة الأحزاب الاية رقم ٣٦

(٨٣) سورة النساء الآية رقم ٦٥

(٨٤) سورة التوبة الآية رقم ٤٠

مؤمناً بالله واليوم الآخر ، ومصدقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً ، وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن .

وإنما أنذرتكم بهذا رحمة بكم ، وشفقة عليكم ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب ..

وإن الخليفة هو (قائد)[85] جيوش المسلمين ، وخليفتنا ، والنائب عنا في جميع أمور الدين ، وإياكم والوسوسة في حقه . وظن السوء به وعدم الامتثال إليه في قوله ، والمشاجرة له أو لأحكامه ، ومن عاد فينتقم الله منه ويسلطه عليه .

وهذا بيان أمر الله ورسوله . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم[86] .

وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام . أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس يقولون : الحمد لله الذي أظهر المهدي ، وجعل عبد الله وزيره .. !

ثم وجد - أي الخضر - اجتماع الشياطين وهم يقولون : كان عيشنا بالغش والخداع ، والمكر والكذب . فأتى المهدي ، وقطع علينا عيشنا . ولولا أن عبد الله وزير له . وكان الخليفة غيره . لكنا نجد في المهدية دخولا[87] . !

• • •

هذا الاهتمام بالتعايشي ، وإنزاله هذه المنزلة الرفيعة ، وادعاء القداسة والعصمة لشخصه وتصرفاته - بالرغم مما عرف عنه ونسب إليه - يدفع الباحث المنصف إلى

---

(٨٥) في الأصل قادة

(٨٦) منشورات الإمام المهدي حـ ١ ص ٣٠ وما بعدها وانظر أيضاً : منشورات المهدية ص ٦٦ وما بعدها تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم

(٨٧) المصدر السابق ص ٧٧

تأكيد هذا الدور الذى لعبه التعايشى فى الحركة المهدية ، ومبايعة محمد أحمد مهديًا ..

وقد ذكر - على المهدى - فى كتابه « جهاد فى سبيل الله » ماخلاصته : إن المهدى كان ينوى إعلان المهدية بعد بلوغه سن الأربعين ، لأن كل الأعمال العظيمة تأتى بعد تمام الأربعين ، ولكن مجيء الخليفة عبد الله التعايشى قدمها سنتين ! ولو تأخر - أى التعايشى - عشر سنوات ، لتأخرت - أى المهدية - عشر سنوات[٨٨] .. ! حتى إن البعض كان يعده صاحب الفكرة والدعوة[٨٩] ..

• • •

لقد حصل محمد أحمد إذاً .. على « مهديته » عن طريق التصوف ، وكان لابن عربى وكتبه تأثير شديد فى اتخاذه هذا الموقف .

فالتصوف هو الذى فتح له الطريق ، ومنحه إلى « المهدية » جواز المرور ، وقدم له فى كل ذلك الأدلة والأسانيد .

كان التصوف فى السودان هو شعار غالبية الناس فى هذه الفترة ، وكان شيوخه هم المرجع الوحيد فى شئون العقيدة ، وكانت مفاهيمه وتصوراته هى « السند الصحيح » فى كل قضية ..

وقد لعبت كل هذه العوامل دورها فى إعلان « مهدية » محمد أحمد وزادها خطراً وتأثيراً ماكان يمر به السودان من ظروف صعبة وقاسية ، وما أعلنه الشيخ القرشى من تصريحات ألهبت مشاعره وطموحه ثم ماقام به عبد الله التعايشى ، وأسهم به فى هذه الحركة .

وبالرغم من أن المهدى قد ألغى الطرق الصوفية[٩٠] ، واعتبر كلمة

---

(٨٨) كتاب المستهدى بسيرة الإمام المهدى ص ٩٤

(٨٩) المصدر السابق ص ٩٠

(٩٠) انظر منشورات المهدية ص ٦١ وما بعدها .

درويش[٩١] جريمة يعاقب قاتلها بأشد العقوبة ، إلا أننا سنجد بالرغم من ذلك كله ، أن هذا الأساس الصوفى الذى قامت عليه دعوة محمد أحمد ظل ملازماً له طوال حياته ، وبقى كامناً فى عقله إلى آخر عمره ، وكان يلجأ إليه أحياناً فى محاججة أعدائه وخصومه .

لقد نشأ محمد أحمد صوفيًّا . لكنه كان صاحب عقل متمرد على كل ماحوله ، وكان فى تمرده على التصوف سلفيًّا شديد النزعة ، وكان فوق ذلك كله ثائراً تتأجج فى نفسه عوامل الانقلاب والثورة .

وبإعلان محمد أحمد مهديته إلى الشعب . وإقبال الناس لمبايعته من كل حدب وصوب ، كان البطل الذى يبحث عنه السودان قد استكمل كل عناصر الثورة والحرب .

شعب يرسف فى الأغلال .. سخط متزايد على الأوضاع . حكام جهلة . أغنياء غارقون فى الظلم والرشوة . والفساد .

لقد ظهر المهدى المنتظر ..

فإلى قاطبة العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين من عبد ربه محمد المهدى ابن عبد الله[٩٢]

اعلموا وفقنى الله وإياكم إلى اتباع الكتاب والسنة . أن قد أيدنى الله تعالى بالخلافة الكبرى . وأعلمنى سيد الوجود ﷺ بأنى المهدى المنتظر . وخلفنى بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر . وأوتيت سيف النصر من حضرته ﷺ ، وأعلمت أنه لاينصر علىّ معه أحد . وأيدنى الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا . وكذلك الجن إلى وقتنا هذا بعد أن أسلموا وصدقوا بمهديتى .

---

(٩١) المصدر السابق ص ٢٩٦

(٩٢) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٣٨ ومابعدها .

وفى حال الحرب يحضر مع الجميع أمام جيشى سيد الوجود ﷺ وسلم بذاته الكريمة . ثم قال ﷺ :

إن الله قد جعل لك على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وجعل علامة أخرى . تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب ، يحملها عزرائيل عليه السلام . فيثبت الله بها قلوب أصحابى ، وينزل الرعب فى قلوب أعدائى ، فلا يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله تعالى ولو كان الثقلين الجن والإنس ..

فمن له سعادة صدق بأنى المهدى المنتظر .. ولكن لايخفى أن البيان لايهدى .. وإنما الهادى هو الله تعالى . وقد أعلم الله نبيه ﷺ بأن ليس عليه إلا البلاغ ، وأنه لايهدى من أحب . ومعلوم أنه لايكذب على الله ورسوله إلا من لاخلاق له عند الله تعالى ، ومن يعلم علم يقين أن متاع الدنيا قليل لايزن عند الله جناح بعوضة لايؤثره على ما عند الله تعالى ، ولو آثر عليه لزال كأن لم يكن . ولولا أنى على نور من الله ، وتأييد من رسول الله لما قدرت على شىء ، ولاساغ لى أن أحكى بشىء . وما أخبرت عن النبى ﷺ بما أخبرت إلا بأمر منه ﷺ .

وقد أخبر ﷺ مراراً أن من شك فى مهديتى كفر بالله ورسوله ، وأن من عادانى كافر ، وأن من حاربنى يخذل فى الدارين ، وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين .

وقد بشرنى ﷺ أن أصحابى كأصحابه ، وأن عوامهم لهم رتبة عند الله تعالى كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى .. ولا تغتروا بالخطب التى ألفها فى ذمنا وتكذيبنا علماء السوء ممن وقع فى عرضنا . فهؤلاء ممن أدخل الله فى قلوبهم النفاق بحب المال وحب الجاه ، ولا يخفى عليكم أن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدى لأنه ليس معتقدهم الذى يظنونه ، ولأنه يخالف[٩٣] مذاهبهم . والتصديق بالمهدى أمر صعب لايوفق إليه إلا من أدركه الله بسابق سعادة .

وحيث إن الأمر لله ، والمهدية أرادها الله واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد

---

(٩٣) إنه هنا يردد قول ابن عربى ورأيه انظر الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٨

عبد الله فيجب التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله ..

وبعد هذا البيان فالمؤمن يؤمن ويصدق ، لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب ، ولا ينتظرون لإخبار آخر . فمن انتظر بعد ذلك فقد استوجب العقوبة .. ومن لم تنفعه الموعظة طهره السيف ..

لقد بدأ الطوفان ..

وفى سفينة المهدى لمن شاء الأمن والأمان .. ! !

الفصل الخامس

الجهاد والثورة

لقد أصبح محمد أحمد عبد الله مهديًّا !

والمهدى والسيف أخوان كما يقول ابن عربى ، ولكن المهدى السودانى لم يكن فى حاجة إلى هذا القول ليكون مهديًّا ، ولم يكن فى حاجة إلى مبرر ليحمل سيفاً .

لقد كان السودان كله معبئاً ومشحوناً ، وكان كل من فيه يتطلع إلى يوم يكون الخلاص فيه قريباً ، فلم يعد هناك أمل فى إصلاح تقوم به الحكومة .

الحكومة نفسها كانت لعنة ! ونظام الحكم فى القاهرة أصبح عاراً وسبّة ، لم يكن هناك قانون يحكم ، وحتى لو كان هناك قانون فلن يجد الرجل الذى ينطق به ويتكلم . كل شىء كان منهاراً . . فساد ورشوة وظلم ، وحكام جهلة قساة فقدوا كل إحساس بالكرامة والعدل ، وسياط محمومة لا تمل من التعذيب والجلد . ظلمات بعضها فوق بعض !

ماذا يمنع من الثورة إذاً ؟ لقد أصبحت هذه الثورة ضرورة دينية وقضية وطنية ، ضرورة دينية لأن الإسلام عدو الاستبداد والظلم ، وقضية وطنية لأن حق الشعوب فى الحرية ثابت وباق ما بقيت السموات والأرض ، لكن الثورة تحتاج لنجاحها إلى ظروف مهيأة ، وإلى فرص وإمكانيات كبيرة ، وقد قدمت الحركة العرابية فى مصر كل أسباب النجاح لهذه الثورة ، وكانت آثارها فى هذا النجاح سلبية وإيجابية . كما أنها – أى الثورة العرابية – قامت لنفس الأسباب التى دعت

المهدى والسودانيين إلى الثورة .

يقول المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى[1] :

كان من أسباب ثورة عرابى تذمر الضباط المصريين من سوء معاملة الأتراك والأرناءود ، ولم يكن الضباط المصريون يجدون منهم فى الجملة إنصافاً ولا مساواة ، ولا معاملة حسنة .

وكان من أسباب ثورة المهدى مظالم الحكام . وما عاناه المواطنون من العسف والظلم . فإن غالبية هؤلاء الحكام كانوا من الشركس أو الأرناءود أو الترك . وقد زاد فى ارتكاب هذه المظالم أن الحكومة كانت تعتبر السودان منفى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل إليه – فى الغالب – إلا الموظفين المغضوب عليهم . فالموظف الذى يذهب إلى السودان وهو شاعر بأنه مبعد أو منفى لا ينتظر منه العدل . أضف إلى ذلك أن حكام مصر لم يكونوا فى الغالب مثال العدل . بل إن مظالمهم هى التى أدت إلى قيام الثورة العرابية فى مصر[2] .

• • •

فما شكا منه المصريون ارتفعت بالشكوى منه ألسنة السودانيين ، وكما يقول ونستون تشرشل الزعيم البريطانى الشهير : إن أهل شمال وادى النيل وجنوبه كانوا فى البلوى سواء ، وقد تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه ، فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا ، وتطلع أهل الجنوب إلى زعيم ينقذهم مما حل بهم ، فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد[3] .

فالثورة العرابية كانت من أجل مصر ، وكانت ضد هذه الطغمة الحاكمة من الشركس ، والأرناءود والترك ، والثورة المهدية لم تكن ضد مصر ، بل كانت ضد

---

(١) الثورة العرابية ص ٧٣

(٢) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال - عبد الرحمن الرافعى ص ١٠٩

(٣) مهدى الله ص ٢٧

هذه الفئة الباغية التى تمسك فى مصر والسودان بمقاليد الحكم ، وقد التزم المهدى – فى بياناته ومنشوراته – بهذا الخط ، وكان فى تعبيره واضحاً وضوحاً لا يقبل الشك .

يقول المهدى :

« . . إن هؤلاء الترك لما بسط الله عليهم النعم ، ومد لهم فى العمر وطول العافية ، ظنوا أن الملك لهم . والأمر بأيديهم ، وخالفوا أمر الله ورسوله وأنبيائه ومن أمرهم بالاقتداء بهم ، وحكموا بغير ما أنزله الله ، وغير ما شرعه سيدنا محمد ﷺ ، وسبوا دين الله ، ووضعوا الجزية فى رقابكم مع سائر المسلمين ، وكل ذلك لم يأمرهم به الله ولا رسوله ، ومع ذلك أمهلهم الله وبسط عليهم النعم ، فلم يتفكروا حتى خذلهم الله ، وسلبهم ثوب الملك والهيبة ، بتعديهم حدود الله . فانظروا الآن كيف صاروا عندكم . ومكنكم الله من نواصيهم ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم مع آلة صولتهم ، وقد أهلكهم الله بالغرور والأمانى . أتريدون أن تكونوا مثلهم ؟ أو تهلكوا كما هلكوا ؟ أم تريدون أن يغضب الله عليكم ويستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم فتنقلبوا على أعقابكم بعد أن مَنَّ الله عليكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، فتوبوا إلى الله واشكروا نعمه عليكم . فإن النعم وحشية ، فقيدوها بالشكر .

إن الترك كانوا يسحبون رجالكم ، ويسجنونهم فى القيود ، ويأسرون نساءكم وأولادكم ، ويقتلون النفس التى حرمها الله بغير حقها ، وكل ذلك لأجل الجزية ، التى لم يأمر الله ، ولا رسوله بها ، ومع ذلك لم (يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم)[1]

كيف نسيتم هذا كله ؟ وتخلفتم عن الجهاد فى سبيل الله ، ولم تأخذكم الغيرة على الدين وانتهاك محارمه ؟ ومع إهانة الترك لكم . وذلكم إليهم . كنتم سامعين

(١) فى الأصل : ولم يرحمون . ولم يوقرون وهو خطأ لغوى ظاهر

طائعين منقادين لأمرهم حيثما أمروا . فكيف إذا أظهرنى الله من جود فضله وكرمه ؟ ألا توافقون على إقامة الدين ، وهلاك القوم الكافرين ؟[٥]

وكان من أسباب الثورة العرابية : سوء الحالة الاقتصادية ، وتدهور الأوضاع المالية بسبب الديون التى اقترضها إسماعيل ، وجلبت على البلاد الخراب والفقر ، هذا فضلا عن فداحة الضرائب ، وعدم توزيعها توزيعاً عادلا ، وتحصيلها بوسائل القهر والإرهاق ، فانضم الأهلون إلى الثورة بمجرد قيامها[٦] .

• • •

وكان من أسباب ثورة المهدى : فرض الضرائب على الأهالى ، وزادها ثقلا أنها لم تكن موزعة بالقسط ، بل كانت شديدة على الفقراء ، خفيفة على الأغنياء ، وفوق ذلك فقد استعملوا فى تحصيلها منتهى القسوة والعنف ، حتى إن الرجل ليبيع متاعه ، وكل شىء ليدفع الضريبة الباهظة « . . . فإن عجز يطرح أرضاً على وجهه ، وتدق أربعة أوتاد وتربط كل يد من يديه ، وكل رجل من رجليه إلى وتد منها ، ويقف الجلاد يجلده بالسياط حتى يدمى جسده ، أو يلقى مكتوفاً فى قيظ الهاجرة ، ولظى الشمس المتوقدة يلهب جسده ، أو أنهم ليضعون فى سراويله هرًّا بعد أن تغل يداه ، ويترك الهر داخل سراويله ، وأن المرأة كانت تحبس إذا تأخر زوجها ، أو وليها عن وفاء الأموال الأميرية ، وتبقى فى السجن إلى أن يدفع ما عليه فيضطر للدفع مهما كلفه ذلك »[٧] .

وشر من ذلك كله ، مما لم يكن له مثيل فى غير السودان . أن هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية ، بل فرضوا على الأهالى إتاوات غير رسمية ، يحصلونها مع الضرائب ، وذلك بسبب أن أكثر الولاة الذين تولوا شئون السودان كانوا لا يهتمون

---

(٥) منشورات المهدية – المنشور الصادر فى ٢٤ شوال ١٢٩٩هـ .
(٦) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ٧٣
(٧) مهدى الله ص ٣٠

فى الغالب إلا بالانتفاع بوظائفهم ، فيفرضون على المديرين أموالا باسم الهدايا ، فيضطر المديرون إلى استرجاعها من مأمورى المراكز الذين تحت إدارتهم ، وهؤلاء يفرضونها على الأهالى أضعافاً مضاعفة ، لأجل وفاء ما عليهم ، والاحتفاظ بالبخض لأنفسهم(٨) .

وقد ساعد أيضاً على تدهور الأحوال الاقتصادية فى السودان ،احتكار الحكومة تجارة العاج.– وهو من أهم مصادر الثروة فى السودان – وقد وقع هذا الاحتكار فى عهد « غوردون » أيام ولايته الأولى ، فاستأثرت الحكومة بالأرباح الطائلة التى كانت تعود إلى أصحابها من أهل التجارة والحرفة ، فنقموا من الحكومة هذا الاحتكار ، وسخطوا عليها ، وهؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوى على الظلم هو النواة الأولى للثورة المهدية ، أضف إلى هذا ذلك الأسلوب العنيف الذى اتخذه « غوردون » فى منع تجارة الرقيق دون مراعاة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التىكانت تتطلب منه الكياسة ، ومعالجة هذا الأمر بالأناة والتدريج ، حتى لا ينهار النظام الاجتماعى مرة واحدة .

«وقد ذكر الكولونيل لونج بك Long bye أن غوردون حين تولى حكم

---

(٨) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٣٢

وقد ذكر العلامة المقريزى فى كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» : أن الأصل فى هذا الفساد يرجع إلى ولاية الخطط السلطانية بالرشوة ، بحيث لايمكن الوصول إلى شىء منها إلا بالمال الجزيل ، فتخطى للملك كل جاهل ومفسد ، وظالم وباغ إلى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة ، والولايات العظيمة ، لتوصله بأحد حواشى السلطان ، ووعده بمال للسلطان على مايريده من الأعمال ، فلم يكن بأسرع من تقلده ذلك العمل ، وتسليمه إياه ، وليس معه مما وعد به شىء قل أو كثر ، فلا جرم أن يغمض عينيه ، ولا يبالى بما أخذ من أنواع الأموال ، ولا عليه بما يتلف فى مقابلة ذلك من الأنفس ، ولا بما يريقه من الدماء ، ولا بما يسترقه من الحرائر ، ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ويتعجل منهم أموالا ، فيمدون أيديهم إلى أموال الرعايا بحيث لايعفون ، ولايكفون ..

انظر فى هذا الموضوع

«إغاثة الأمة بكشف الغمة» ص ٤٣ وما بعدها ط لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٥٧م .

السودان . كان الأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره كان ينوء تحت أعباء الديون ، والثورة تتمخض فى أحشائه »[9] .

* * *

وكان من أسباب الثورة العرابية التدخل الأجنبى فى شئون الحكم ، وسيطرة المستشارين الأجانب على مقاليد السلطة فى مصر ، وقد أصبح هؤلاء الأجانب فى النهاية أصحاب الكلمة النافذة ، والسلطة الفعلية ، وأصبح الخديو والحكومة فى أيديهم ألعوبة .

وكان من أسباب الثورة المهدية تدخل الأوربيين فى شئون الحكم ، وتوليهم المناصب الهامة ، فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا صادقى النية ، وكانوا يثيرون بأعمالهم روح الحقد والكراهية ، وكان من رأى المهدى « . . إلقاء تبعة تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية ، لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء ، وولتهم أمور العباد ، فحكموا سيوفهم فى رقابهم ، وأتوا ما أتوه من الظلم ، وقتل النفوس ، وهتك الأعراض ، وكان من الواجب أن تتجسس أعمالهم ، وتتنسم أخبارهم ، حاسبة السودان عضواً من أعضائها ، يؤلمها ما يؤلمه ، ولكنها أهملت هذا الواجب ، وكان إهمالها دليلا على تركها حبلها على غاربها ، وترك مقادير السودان تجرى فى أعنتها . . إذاً ليس بدعاً انتفاض أهل السودان عليها ، بل البدع والغرابة ألا ينتفضوا ويثوروا لخلع النير القاسى ، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التى أبلغت أرواحهم حناجرهم ، ولم تعمل عملا يصلح دنياهم ، ويستجلب رضاهم ، بل وكلت أمورهم إلى أناس يحتبرون السود عبيداً أرقاء ، ولا يفرقون بينهم وبين العجماوات . ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان إذا كان قادراً على إصلاح حاله وإسعاد أهله . . . »[10] .

---

(٩) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١١١

(١٠) مصر والسودان تأليف الدكتور محمد فؤاد شكرى - ص ٢٩٣ ، ط دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٧ م .

يقول الدكتور جلال يحيى :

« كان السودانيون مسلمين متمسكين أشد التمسك بدينهم ، وكانوا بطبيعة الحال لا يعترفون لغير المسلم بأى حق فى ولاية أمورهم ، فماذا يكون الأمر عندما يكون هذا الحاكم مسيحيًّا أجنبيًّا يستخدم القوة كوسيلة وحيدة للتفاهم وإصدار أوامر تتعارض مع الدين والتقاليد والعرف ؟ »[11] .

لقد كان هذا التدخل الأجنبى سبباً من أسباب الثورة العرابية ، وكم كتب جمال الدين ومحمد عبده فى مجلة « العروة الوثقى » منددين بهذا التدخل ، ألم يقل الشيخ حسن العدوى لرئيس المحكمة التى تحاكمه بسبب اشتراكه فى الثورة : أعلن إليك الساعة ، أن الخديو الذى تسلم وطنه واستسلم لأعدائه مستحق للعزل .

ثم ألم يفت شيوخ الأزهر بخروج الخديو توفيق عن الشرع .

فلم يكن غريباً من المهدى أن يقف نفس الموقف ، وأن يوجه إلى الخديو إنذاراً يندد فيه بهذا التصرف :

من العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله إلى والى مصر .

لا يخفى على من نور الله بصيرته ، وشرح صدره أن الدين الذى يكون المتمسك به ناجياً عند الله هو دين الإسلام الذى جاءنا به نبينا محمد ﷺ ونزل به القرآن من الملك العلام قال تعالى : (إنَّ الدين عند الله الإسلام)[12] وقال تعالى : (ومن

---

(١١) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان ص ٩ وما بعدها . وقد ذكر عرابى فى مذكراته عن حرب الحبشة - أن قائد الجيش المصرى فى هذه الحرب كان جنرالا أمريكيًّا اسمه loring وقد هزم الجيش المصرى فى هذه الحرب بسبب خيانة هذا الجنرال وأركان حربه الأوربيين . فقد اتفق هذا الجنرال مع ملك الحبشة عن طريق مبشر فرنسى . وعن طريق هذا المبشر عرف ملك الحبشة كل شىء عن خطط الجيش المصرى وفى النهاية وقبل بدء المعركة أرسل ملك الحبشة إلى الجنرال الأمريكى يطلب منه خلع الطربوش عند احتدام القتال . وربط منديل أبيض حول عنقه . وأن يضع هو ورفاقه القبعات على رءوسهم إشارة أنهم مسيحيون حتى لاتصيبهم رماح الحبشة !

انظر فى هذا الموضوع . مذكرات عرابى ج ١ ص ٣٦ .

(١٢) سورة آل عمران : الآية ١٩

يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)[١٣] وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه الشيطان حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

ومن منحه الله عقلا يوازى به بين الخبيث والطيب . لا ينبغى له أن يصرفه إلا فيما ينتج خلاصة عند الله يوم تزل الأقدام . ويشيب الطفل . ويشتد الزحام . وإلا كان أسوأ حالا من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه. ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باتباع دينه ، وإحياء سنة نبيه وأمته . وإماتة ما حدث من البدع والضلال ، والإنابة إليه تعالى فى كل الأحوال . وقد تأكد ذلك فى هذا الزمان الذى عم الفساد فيه سائر البلدان . فإن دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الإسلام ، وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام . قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين . فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام . وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع . وأبيحت محارم الإسلام . واشتد الكرب على أهل الإيمان . فصار القابض على دينه . كالقابض على الجمر لتراكم البغى والعدوان .

فعند ذلك أظهرنى الله طبق الوعد الصادق رحمة لعباده . لأنقذهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وأدلهم إلى الله على هدى منه وتبيان . وطوقنى بالخلافة الكبرى على المهدية . وخلع علىّ حللها البهية وبشرنى سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعادينى ولو كان الثقلين ، وبأن من يقصدنى بعداوة يخذله الله فى الدارين . وقلدنى سيف النصر . وأيدنى بقذف الرعب فى قلوب أعدائى يسعى أمامى أربعين ميلا . وأخبرنى بأنى أملك جميع الأرض وبأن من شك فى مهديتى فقد كفر بالله ورسوله . ونفسه وماله غنيمة للمسلمين ، وبأن الله قد أيدنى بالملائكة الكرام . وبالجن أحياء وأمواتاً . وهكذا من البشارات والعجائب التى يطول شرحها . وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين ، والخلفاء الأربعة والخضر عليه السلام . وما كنت

---

(١٣) سورة آل عمران : الآية ٨٥

أترقب هذا الأمر لنفسي ولا سألت الله إياه ، بل كنت أسأله أن يجعلني معيناً لمن يقوم به ، فلما أراد الله وحتم الأمر عليّ من سيد الأكوان ، قمت بأعباء هذه الحالة (الدعوة) واعتصمت بالله ، وتوكلت عليه ، وأخبرت الحكمدارية بأني المهدى المنتظر ، وقد كان بها محمد رءوف وما تركت لأهلها في إيضاح هذا الأمر شيئاً .

وأنا في انتظار الأخبار وتسليم الأمر لله الواحد القهار ، فما كان منهم إلا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً ، وطووا عن قبوله كشحاً ، وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبت[14] في هذا الأمر الديني الذي جئتهم به من خير البرية فأيدني الله عليهم كما وعدني ، وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة ، وأقدم لهم الإنذارات ولم تنفعهم ، والله يؤيدني وينصرني عليهم كما وعدني ويقطع دابرهم ، إلى أن قلت حيلتك ، وتلاشى أمرك . فسلمت أمر أمة محمد ﷺ لأعداء الله الإنجليز وأحللت لهم دماءهم ، وأموالهم وأعراضهم ، فجاء الإنجليز بكبرهم وخيلاتهم ، واعتمادهم على غير الله . فلما سول الشيطان لهم واستولى على[15] إدراك « غوردونهم » بالخرطوم . وأيست من هداية أهله ، وعلمت أن تكرار الإنذارات لا ينفعهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)[16] عجل الله بفتحه . وإهلاك من فيه . وأحرقت النار أجسادهم عياناً كالذين من قبلهم إظهاراً للحقيقة . وتعجيلا للعقوبة . وصدق عليهم قوله تعالى:(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة)[17] .

ثم أنذرت الإنجليز فلووا رءوسهم ، فوجهت إليهم طائفة من الأنصار فقذف

---

(١٤) يقصد من غير تثبت

(١٥) يقصد أن الشيطان استولى عليهم . فلم يفكروا تفكيراً سليماً .

(١٦) سورة البقرة الآية ٦

(١٧) سورة الأنعام الآية ٤٤

الله فى قلوبهم الرعب فولوا هاربين . بعد أن أهلك الله منهم من أهلكه . وشتت شملهم . وهذا كله غير خاف عليك ، ولا زال حزب الله مقتفياً أثر باقيهم . وعن قريب يحل الله من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر . . هذا . . وإن المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما فى الحياة الدنيا من الفانيات قيمة . ولا يأسف على ما فاته من ملكها الذى مآله إلى الزوال ، وعظيم النكال ، وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من النوال فى دار الكرامة والإفضال ، فإن الدنيا لو بقيت للأول لم تنتقل للآخر ، ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموت أو عزل من كان قبلك ! وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك ؟ !

وحيث كان الأمر . كذلك فلا ينبغى لك إن كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد أن تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بحذافيرها ، فدقق النظر ، واجمع عليك فكرك ، وتدارك نفسك واسع فيما ينجيك عند ربك إذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك وسلم الأمر إليه تسلم .

وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله . وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ ! !

ألم تسمع قول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[١٨] وقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم . .)[١٩] وقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء)[٢٠] . (. . يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين)[٢١] .

فإذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ، ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم

---

(١٨) سورة المائدة الآية ٥١ .
(١٩) سورة المجادلة الآية الأخيرة
(٢٠) سورة الممتحنة الآية الأولى
(٢١) سورة آل عمران الآية ١٠٠

آخرته ، فاعتبر بذلك ، وبادر إلى النجاة والسلامة للعتبرة وهى سلامة الإيمان ، ونزه نفسك من أن تكون فى أسر أعداء الله دائماً ، ولا تهلك من كان معك من أمة محمد ﷺ واغسل ما جرى منك بدموع الندم ، ولا تكترث بجاه الدنيا الفانى . ولا بملكها الزائل ، فإن لله داراً خيراً منها ، وقد أعدها لعباده المتواضعين . وإياك والركون إلى علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال ، حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك ، ولا تغتر بقوة حصن بلدك ، وكثرة أسلحتك ، وعددك الظاهرية ، ومظاهرة دول أهل الكفر لك . فإنها لن تغنى عنك من الله شيئاً ، وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة ، ومن هو أشد منك قوة وأكثر جمعاً ، لما بغوا وعثوا فى الأرض مفسدين .

وليكن فى علمك . أن أمرنا هذا دينى مبنى على هدى من الله ، ونور من رسول الله ﷺ ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرة وباطنية ، وما قصدنا منه إلا إحياء الدين ، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين ، ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا مالا ، فإن نور الله بصيرتك ، وخالفت النفس الأمارة بالسوء ، وقبلت هدينا هذا وأتيت إلى الله بنية خالصة ، فعليك أمان الله ، وأمان رسوله وأماننا ، وما بيننا وبينك إلا المحبة الخالصة لوجهه تعالى ، ونكون جميعاً يداً واحدة على إقامة الدين ، وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين وقطع دابرهم ، واستئصالهم إلى أن يتوبوا ويسلموا .

وقد حررت لك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك ، وحرصاً على هدايتك ، فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله ، ويدلك على صلاحك ورشادك فى الدارين ، وها أنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب إن شاء الله تعالى فإن أمر السودان قد انتهى . فإن بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية ، والإنابة إلى الله رب البرية ، فقد حزت السعادة الأبدية ، وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك . وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد

فإنما عليك إثمك وإثم من معك ، ولابد من وقوعك فى قبضتنا ، ولو كنت فى بروج مشيدة ، وهذا إنذار منى إليك ، وفيه الكفاية لمن أدركه العناية ، والسلام على من اتبع الهدى . . . » [٢٢] .

• • •

وكما كانت حركة جمال الدين الأفغانى سبباً من أسباب الثورة العرابية فى مصر ، فقد كانت هذه الحركة أيضاً سبباً من أسباب ، الثورة المهدية فى السودان ، فقد كانت مصر والسودان فى ذلك الوقت بلداً واحداً ، وكان صدى ما يجرى فيها ينعكس على السودان تلقائيًّا ، فالتفاعل الثقافى والفكرى كان قائماً بين البلدين منذ عهد سلطنتى « دارفور » و « الفونج » متمثلا فى إرسال الطلبة السودانيين إلى الأزهر لتلقى العلم ، ولا يزال فى الجامع الأزهر رواق يحمل اسم « دارفور وسنار » إلى هذا اليوم « وقد أجمع جميع من أرخوا سيرة المهدى ، على أنه أمضى أغلب السنوات التى سبقت مجاهرته بالدعوة فى المطالعة والقراءة والتحصيل . ومن الخطأ النظر إلى الثقافة المتوفرة فى ذلك العهد نظرة سطحية ، ففى الأزهر الشريف ، وقبل عصر النهضة بقرون ، كانت علوم الفلسفة والمنطق تدرس وتهذب . وقد تسربت هذه الآراء عبر بصيص الرواق السنارى فى الأزهر - إلى القارئ النهم محمد أحمد عبد الله » [٢٣] .

وقد ذكر الشيخ محمد عبده أن أربعة وثمانين طالباً من السودان كانوا يتلقون الدروس فى حلقته بالأزهر . وكان هؤلاء الطلاب فى إجازاتهم ينقلون إلى بلادهم ما يقوله السيد جمال الدين . وما يروى عنه فى مجالسه الخاصة . كما كان الشيخ إسماعيل الكردفانى - مؤرخ سيرة المهدى - من علماء الأزهر ، وكانت له صلة

---

(٢٢) منشورات الإمام للمهدى ج ٢ ص ٢٧٧ . جغرافية وتاريخ السودان ص ٩٢٢ ومابعدها

(٢٣) كررى - تأليف الرائد عصمت حسن زلفو - ص ٤٦ ط السودان ١٣٩٣هـ .

بكبار شيوخه [٢٤] وقد فكر السيد جمال الدين الأفغانى فى إرسال الشيخ محمد عبده إلى السودان ليعمل مع المهدى ، وحقق مع الشيخ محمد عبده بتهمة جمع الأسلحة وإرسالها إلى السودان [٢٥] ، هذا بالإضافة إلى المئات من المصريين الذين نفوا إلى السودان بسبب اتجاههم الوطنى ، وتأييدهم لعرابى ، فمن غير المعقول أن يركن هؤلاء إلى السكوت بعد هذا النفى التعسفى ، وقد كان هدف الجميع واحداً فى القطرين السودانى والمصرى .

يقول المرحوم عبد الرحمن الرافعى [٢٦].

« لا يسعنا فى الجملة إلا القول بأن الثورة العرابية كانت من أسباب نجاح ثورة المهدى . لقد كان تأثير الثورة العرابية فى الثورة المهدية مضاعفاً . . كان تأثيرها إيجابياً وسلبياً معاً ، فقد شجع عرابى – بعد قيامه بحركته – المهدى على تقليده كما يقول المؤرخ الرافعى » [٢٧] ولم تتمكن مصر – بسبب الثورة العرابية – من إرسال القوة الكافية لإخماد حركة المهدى .

وفى ذلك يقول الشيخ إسماعيل عبد القادر الكردفانى المؤرخ المعتمد لسيرة المهدى « لعل المانع من إرسال جيش مصرى [٢٨] عدم تمكن الخديو بسبب مادهاه من قيام أحمد باشا عرابى عليه ، وخروجه عن طاعته ، وشروعه فى محاربته . وذلك بعد أخذه فتاوى علماء مصر بمقاتلة ومحاربة واليها إذ ذاك ، ووجوب الخروج عليه ومحاربته » .

كل ذلك كان صحيحاً ، ولكن الأهم من ذلك كله ، أن رجال الجيش

---

(٢٤) انظر كتاب سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى – ص ١٦ ط ١٣٩٢هـ .
(٢٥) محمد عبده – تأليف عباس العقاد – ص ٢٣٤ .
(٢٦) الثورة العرابية ص ١١٤ .
(٢٧) المصدر السابق ص ١١٤
(٢٨) المستهدى بسيرة الإمام المهدى ص ١٥٦ ومابعدها

المصرى لم تكن لديهم رغبة فى قتال خسيس تفرضه عليهم حكومة ظالمة خائنة . وقد رأينا ما كتبته العروة الوثقى بخصوص هذه القضية[٢٩] . وكيف حذرت المصريين من قتال إخوانهم فى العقيدة ، أضف إلى هذا ما كان يشعر به الضابط المصرى ، والجندى المصرى ، من أن سفره إلى السودان كانت الغاية منه التخلص من الجنود والضباط الذين شاركوا فى الثورة العرابية » . . . كما أنهم كرجال ثورة وطنية - كانوا لا يؤمنون بضرورة فرض سلطة الخديو على ثوار السودان وكثرت حوادث الهرب من المعسكر بشكل اضطر الحكومة إلى ربطهم بالسلاسل »[٣٠] . وكان رجال المدفعية يطلقون مدافعهم فى اتجاه خاطئ وكان العساكر يقولون لقادتهم : لم يؤت بنا إلى هنا إلا لإعدامنا ، لأننا عرابيون . ولهذا كانت الأكثرية منهم تنضم إلى صفوف المهدى[٣١] . وقد كان المهدى على علم تام بما يدور فى مصر ذاتها ، فقد كان له فيها من يوافيه بأنبائها وأحوالها ، وإن أحد هؤلاء الأعوان ليكتب إليه بأن « . . . الأحوال فى مصر تنتقل من سيئ إلى أسوأ . وأن حكومة مصر لا تقوى على مد يد المساعدة إلى السودان . وأنها - أى الحكومة المصرية - منقسمة إلى قسمين أحدهما وطنى ، والثانى خديوى . . . ! »[٣٢] .

لقد كان هنالك تشابه كبير بين الحركتين العرابية والمهدية . كانت كل منهما تطالب بإصلاحات إدارية واجتماعية ، وكانت كل منهما ضد الوضع القائم والتدخل الأجنبى . وكانت كل منهما عبارة عن حركة تحرر إسلامية ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله للمهدى . كما كان العرابيون يفكرون فى التحالف معه

(٢٩) العروة الوثقى ص ٢١٦

(٣٠) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ص ٤٩

(٣١) انظر فى هذا الموضوع

الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان ص ٥٠

جغرافية وتاريخ السودان ص ١٣٦٢

(٣٢) مهدى الله ص ٥٣

لإقامة جبهة موحدة ضد التدخل العسكري البريطاني[٣٣] .

ولا يسع الباحث المدقق بعد هذه المقارنات والحقائق إلا تأكيد أهمية هذا الدور الذي لعبته الحركة العرابية في ثورة المهدي ، وفي تمكين هذه الثورة من النجاح الذي أحرزته ضد الإنجليز والخديو ، وفي هذا التقارب والتعاطف بين الزعيمين السوداني والمصري .

يقول مؤلف « كرري » وقد أمر المهدي أتباعه بعدم قتل غوردون ، وأوصاهم قائلا : الغوردون يا إخواننا لا تقتلوه . بل اقبضوا عليه حياً وأحضروه إلينا ، لأن فيه فائدة عظيمة ، فإنا نريد أن نسلمه لأهله ، ونفدي به رجلين عظيمين : هما الزبير وعرابي[٣٤] .

• • •

« ومهما يكن من شيء ، فقد صادفت دعوة المهدي ذيوعاً ونجاحاً كان - دون ريب - لحالة البلاد السياسية والاقتصادية يد كبرى فيه ، فأقبل عليه الزعماء وشيوخ القبائل مبايعين قائلين : نبايعك على المهدية وإن لم تكن مهدياً . . نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها . . . ! »[٣٥]

• • •

لقد بدأت الثورة ، وأرسل محمد أحمد عبد الله المهدي ، إلى محمد رءوف باشا الحاكم العام للسودان ، أو الحكمدار كما كان يسمى في ذلك الوقت كتاباً ، أو إنذاراً يحذره فيه ويقول : « من عبد ربه محمد المهدي إلى الحكمدار بالخرطوم . وبعد فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق إلى السنة والهجرة بالدين أمر من سيد

---

(٣٣) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ص ٣٩ ومابعدها .

(٣٤) كرري . تأليف عصمت حسن زلفو - ص ٨١ . وقد كان الزبير الذي أراد المهدي افتداءه مع عرابي من رجالات السودان الذين نفاهم الإنجليز

(٣٥) السودان بين يدي غوردون وكتشنر ص ٨٥

الوجود ﷺ ، فمن تبع صار من المقربين ، ومن خالف خذله الله فى الدارين . فمن لم يصدق طهره السيف ! ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله ، إما بالخسف ، أو بالغرق . . وفيما ذكرته كفاية يكتفى به أهل العناية[٣٦] . . . » فجمع رءوف باشا العلماء وأطلعهم على كتاب محمد أحمد ، فالتمس بعضهم له عذراً بأنه قد حصل له جذب . ! ولكنهم أجمعوا على ضرورة القبض عليه قبل اتساع الخرق[٣٧] .

فندب رءوف باشا لهذا الأمر أحد معاونيه ، وهو محمد بك أبو السعود ، وحين ذهب إلى المهدى وجده جالساً ، وحوله جماعة من تلامذته ، فسلم عليه وقال : إن الحكمدار بلغه أمر الدعوة التى قمت بها ، وأرسلنى لآتى بك إليه ، وهو ولى الأمر الذى تجب طاعته .

فأجابه محمد أحمد : أما ما طلبته من الوصول معك إلى الخرطوم فهذا مما لا سبيل إليه ، وأنا ولى الآمر الذى تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية !

فقال له أبو السعود : ارجع عن هذه الدعوى فإنك لا تطيق حرب الحكومة ، ولا نرى معك من يقاتلها . فقال محمد أحمد وهو يبتسم : أنا أقاتلكم بهؤلاء . وأشار إلى أصحابه . ثم التفت إليهم وقال : أأنتم راضون بالموت فى سبيل الله ، فقالوا كلهم : نعم راضون بالموت فى سبيل الله ، وباذلون أرواحنا فى رضا الله ورسوله ومهديه . فالتفت المهدى إلى أبى السعود وقال له : قد سمعت ما أجابوا به ، فارجع إلى ولى أمرك فى الخرطوم وأخبره بما رأيت[٣٨] ، ورب الكعبة لقد كلفت برسالة سأؤديها ، ولو وقفت أمامى كل عقبات الدنيا . . . »[٣٩] .

• • •

---

(٣٦) سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى ص ١٢٠ .

(٣٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٢ .

(٣٨) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٢ ومابعدها .

(٣٩) كررى - ص ٢١ .

فلما قفل أبو السعود راجعاً إلى الخرطوم قال المهدى لأنصاره :

أيها الناس : إن الترك رجعوا لطلب المدد ، وسيعودون لحربنا ، فمن كان منكم خائفاً على أولاده وأمواله فليخرج منا ، فنحن مسامحون له ، وبيعتنا التى فى أعناقكم ليس عليكم فيها حرج ، فإن سلمنا فعودوا إلينا . فقالوا جميعاً بلسان واحد : يا سيدنا نحن بايعناك على الموت ورضينا بذلك ، ولا نرغب بأنفسنا عن نفسك ، بل نحن معك حيثما توجهت ، فمر بما شئت فنحن لك سامعون ، ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله[40] .

وصدقت نبوءة المهدى . . فقد عاد محمد أبو السعود على رأس قوة مسلحة للقبض عليه ، وحمله مكتوفاً إلى الخرطوم ، فكمن لها المهدى وأنصاره فأبادوها جميعاً إلا القليل ، ولم يكد أبو السعود يرى ما حل بجنوده حتى رجع هارباً من هذا الجحيم !

وتعرف هذه الواقعة « بواقعة أبا » . وكانت يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ، وقد انتشر خبرها فى السودان انتشار البرق ، ونسجت حولها الكرامات والخوارق ، ودارت حولها القصص والحكايات ، وفى ذلك يقول الشيخ الكردفانى : « إذا تأملت بعين البصيرة وطابت منك السريرة اتضح لك أن موقعة أبا من حيث كونها حصلت يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان ، قريبة الشبه من غزوة بدر فى كونها حصلت يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان ، وفى نقص هذه الواقعة عن البدرية بيوم ، أعنى أن تلك يوم السابع عشر ، وهذه يوم السادس عشر ، سر لطيف ، ومنهج من التأديبات الإلٰهية منيف يدركه الحاذق اللبيب ، ويفطن لدقيق مرماه الفطن الأريب »[41] .

• • •

---

(٤٠) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٣ - وكتاب سعادة المستهدى ص ١٢١ .

(٤١) سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى ص ١٣٤ .

كانت هذه الواقعة هي الشرارة التي أشعلت النار في السودان كله ، وقد تبوأ المهدي - بعد سحقه لقوات الحكومة - قمة الزعامة الروحية والوطنية . وقد أيقن المهدي بعد هذه المعركة ، أن الحكومة لن تتركه يهنأ بانتصاره عليها ، كما أنها - أي الحكومة - لم تزل قوية ومحتفظة بهيبتها ، والواجب يفرض عليه أن يحسب حسابها ، ويستعد لملاقاتها وقتالها . . إنه الجهاد والثورة . والجهاد والثورة في حاجة إلى تعبئة ، وهذه التعبئة لابد من أن تكون شاملة وعامة ، وأية تعبئة من هذا النوع لابد أن تكون مبرراتها قوية وصيغتها مقدسة ، وهنا تلعب براعته الفكرية . وتمتزج الزعامتان الروحية والوطنية في هذا النداء الموجه إلى الأمة يدعوها فيه إلى الهجرة . . .

لم يقل لهم تعالوا نجتمع لقتال الحكومة ، بل قال لهم هيا إلى الهجرة ، وللهجرة دلالات ومعان كبيرة ، إنها تعني الخروج من النفس والأهل والمال طاعة لله ورسوله ، كما أنها - أي الهجرة - تحتل في تاريخ الإسلام مكانةرفيعة ، وفي هذا يقول المهدي : « . . . لا يخفى عزيز علمكم ما ورد في فضل الهجرة ، وقد أعاد الله لنا الزمن الماضي من الصحابة ، وأعطني ﷺ بأن أصحابي كأصحابه رضوان الله عليهم ، وبشرني أن من يصحبني قبل بلوغ أصحابي اثنى عشر ألفا فهو من أنصار الله ، وفي رضاء الله ورسوله وأن له سبعين حجة ، ومعلوم أن نصر دين الله في القلة مع أسبقية الصحبة فضله عظيم ، لاسيما وقد قال الله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون)[42] . ومفهوم أن من لم يكن كذلك فليس من أهل الصدق . وقد قال الله تعالى في فضل الهجرة : (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنةً ، ولأجر الآخرة أكبرْ)[43] .

---

(٤٢) سورة الحشر الآية ٨ .

(٤٣) سورة النحل الآية ٤١ .

وقال ﷺ : « من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو شبراً من الأرض فقد استوجب الجنة » وكان رفيق إبراهيم خليل الله . ونبيه محمد ﷺ إلى غير ذلك . ومع ذلك كله فقد أمرنى النبى ﷺ بأن أكاتب بالهجرة جميع المسلمين إلى « جبل قدير » أمراً عامًّا ، وأوعد من خالفنى بوعيد شديد ، فإذا بلغكم هذا فأتوا إلى الله ورسوله بأنفسكم وأهليكم ، ولو على الأرجل ، ولو تركتم جميع الأمتعة اتكالا على الله تعالى ، وامتثالا لأمره ، ولا تخشوا من أحد فإن الله تعالى يقول : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾[44] .

فإذا وصلكم جوابى هذا فليحضر الذى أجاب الدعوة ولا يتأخر . فإن تأخر عنها فحضوره بعد هو والعدم سواء ، ولا تخافوا فى انتقالكم إلينا من أى مخلوق ، فإن خوف الخلق من دون الله ضعف فى الدين ، وأما الترك قطاعتهم بعد أمام الدين كفر وضلال ، لأنهم كفار مخالفون لحدود الله تعالى ، وساعون فى إطفاء نوره ، فإن تعرضوا (لكم)[45] فقد أجازكم الله فى قتالكم ، ووعدكم بالنصر عليهم مادامت نيتكم لله وبالله قال تعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[46] .

وكل من بلغته أجوبتى ومراسلاتى فلا عذر له فى التخلف عن الهجرة لتقويم الدين . بل هو من العاصين لأمر الله ورسوله ، ولا عذر بالترك فإن من آمن بالله ، وصدق بقول الله لا يخاف أحداً[47] .

• • •

بعد هذا البيان والإنذار . من يرضى بالبقاء فى أرض الكفر ، أو تحت حكم

---

(44) سورة المائدة الآية 44 . انظر منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ١٢ .

(45) فى الأصل عليكم .

(46) سورة الحج الآية 39

(47) انظر منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ١٦ .

الترك ويترك دار الإسلام ؟ لقد كان المهدى يعتبر حكام السودان كفرة لأنهم شرعوا فى محاربته ، وبما أنه مهدى الله وخليفة رسوله ، فإن محاربته محاربة لله ورسوله ، ومحاربة الله ورسوله كفر بنص الشرع !

إن المهدى يستخدم هنا أسلوب « محمد بن عبد الوهاب » فى القوة والعنف وينهج نهج « السنوسية » فى الهجرة - إلى دار السلام - من دار الحرب .

لقد كان من أهداف السنوسية دعوة المسلمين إلى الهجرة ، من دار الحرب أو دار الكفر ، إلى دار السلام أو الإسلام ، فى كل من كان فبلد غير مسلم ، أو يحكمه غير مسلم ، أو يحكمه حاكم مسلم خاضع لحكومة غير إسلامية ، أو دولة أجنبية ، أو خاضع لحكومة إسلامية استبدادية ، وجب عليه أن يهاجر ولا فرق فى ذلك بين « القسطنطينية » والقاهرة ، وتونس وفاس ، وقد تحدث هنرى دى كاسترى H. d. kasteries عن هذه الهجرة فقال :

« وعلم السنوسى ما أحزن المسلمين ، من حكم غير المسلمين فناداهم أن اخرجوا من دياركم إلى أرض الله الواسعة الفضاء ، فلحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين ، أو يود معاشرة الكافرين ، وأقبل الناس يعيشون معه فى هذه الصحراء من غير سخط ولا ضجر »[٤٨] .

كما وجد السنوسى أن من الحكمة أمام ازدياد عداء السلطات الحكومية والعلماء المتمسكين بالقديم ، أن يتخذ مقراً جديداً لدعوته غير الزاوية البيضاء فإن إنشاء هذه الزاوية فى محل قريب من الساحل ، جعلها قريبة من سلطان الحكومة التى لم تلبث أن زادت مخاوفها من هذه الحركة . فاختار لهذا الغرض واحة الجغبوب ، وكان اختياراً موفقاً يدل على شدة تفكير ، وبعد غور فى السياسة[٤٩] .

وهذه صورة منشور من منشورات « السنوسية » التى تدعو المؤمنين إلى الهجرة

---

(٤٨) السنوسية دين ودولة ص ٥٥

(٤٩) المصدر السابق ص ٣٦ .

لإقامة الدين والملة ، وبقراءتنا لهذا المنشور لانكاد نلمس فرقاً جوهريًا بينه وبين منشورات المهدية .

يقول منشور السنوسية[٥٠] : اخشوا الله دائما ، ولا تفعلوا إلا ما أمر به ، وابتعدوا عما نهى عنه ، وعظموا كلمة الحق سبحانه وتعالى ، وتجنبوا أولئك الذين شغلوا بمتاع الدنيا الزائل . لا تهملوا ما نوصيكم به ، وما يوصيكم به شيوخنا أيضاً إذا استطعتم ذلك . أو ليست أرض الله واسعة الفضاء . فلماذا لا تضربوا فى جوانبها إذن ؟

إن الذين يمتنعون عن المهاجرة فى سبيل الله ورسوله ، فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير ، وإنما الذين ينالون عفو الله وغفرانه هم الضعفاء من الرجال والنساء الذين لا يقدرون على المهاجرة ، ولا يجدون من يرشدهم إلى الطريق ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم . (ومن يُهاجر فى سبيل الله ، يجد فى الأرض مُراغماً كثيراً وسعةً)[٥١] الآية (والسّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار)[٥٢] الآية . وقال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .)[٥٣] .

• • •

لقد كانت الهجرة من وسائل الحركة السنوسية ، وأسلوبها فى التكوين والتربية ، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى البعد عن مراكز السلطة حتى لا تدخل معها فى صراع ، قبل أن تستكمل العدة لخوض الصراع الذى تمليه عليها الظروف كحركة إسلامية ، وكان المهدى يعرف الكثير عن هذه الحركة بحكم انتشارها فى السودان

---

(٥٠) السنوسية دين ودولة ص ٤٦ ومابعدها .

(٥١) سورة النساء الآية ١٠٠ .

(٥٢) سورة التوبة الآية ١٠٠ .

(٥٣) سورة التوبة الآية ١١١ .

والأقطار الأفريقية الأخرى . كما كان أثر هذه الحركة واضحاً فى تكوينه الثقافى والفكرى . وبالرغم من إلغاء المهدى للطرق الصوفية - كما سيجىء فى الفصل التالى - فقد بقى شعوره بالاحترام تجاه السنوسية قائماً . وعندما عين خلفاءه الذين يمثلون فى دعوته مقام خلفاء النبى الأربعة[٥٤] ، احتفظ بمقام الخليفة عثمان للسنوسى . ولن نجد دليلا أوضح على هذا الشعور بالاحترام والثقة من تلك الرسالة التى كتبها المهدى إلى السنوسى .

يقول المهدى :

« من عبد ربه الفقير إليه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى حبيبه فى الله الخليفة محمد المهدى بن الولى السنوسى كان الله فى عونه آمين . فيا أيها الحبيب القريب ، الواقف على سنة النبى[٥٥] . الأديب العرق . العباد إلى مقام التقريب . لا يخفاكم تغير الزمن ، وترك السنن . ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن ، بل يترك لذلك الأهل والوطن ، لإقامة الدين والسنن ، ولا يتوانى عن ذلك لكون غيرة المؤمن على الإسلام تجبره .

واعلم يا حبيبى : قد كنا ننتظرك ومن معنا من الأعوان . ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل[٥٦] ، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك

---

(٥٤) كان المهدى يعتبر نفسه خليفة رسول الله ، ووارث مقامه . وقد عين لنفسه أربعة خلفاء ، يمثل كل واحد منهم خليفة من خلفاء الرسول الأربعة . فعين عبد الله التعايشى خليفة عن أبى بكر ، وعين « على ود حلو » خليفة عن « عمر » وعين محمد شريف ابن عمه خليفة عن « على » أما مقام أو مكان الخليفة عثمان فقد احتفظ به للسنوسى كما سيجىء فى الرسالة .

انظر جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٦٨

(٥٥) يعترف المهدى فى هذا الخطاب أن السنوسى يسير على هدى السنة النبوية وذلك بخلاف رأيه فى أكثر علماء الدين والحكام الذين كان يعتبرهم مارقين عن الدين .

(٥٦) ويعترف المهدى هنا أيضاً بأن السنوسى كان مرجوًّا للعمل معه على إقامة الدين ، وهذا دليل على أن السنوسية كانت معروفة وشائعة فى السودان ، وأنها تحظى باحترام كبير هناك .

إلى الله على السنة النبوية ، وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك [٥٧] ولم ترد لنا المكاتبة ، وأظن ذلك من عدم وصولها إليكم ، حتى إني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء ، فأبوا ذلك ! لهوان الدين عندهم ، وتمكن حب الوطن والحياة من قلوبهم ، وقلة توحيدهم ، حتى بايعني الضعفاء على القرار بالدين وإقامته على ما يطلب رب العالمين ، وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا لما يرون للدين من الممات ، ولازال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب المشتهى يزدادون ، وفيما عند الله يرغبون ، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير – والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير – فأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدى المنتظر ، وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر عليه السلام . وقلدني سيفه ﷺ بحضرة الخلفاء ، والأولياء ، والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام ، وأعلمت أنه لا ينصر على أحد بعد اتياني سيف النصر من حضرته ﷺ .

ثم أخبرني ﷺ : أن الله جعل لك على المهدية علامة وهي الخال على خدك الأيمن ، وجعل لي علامة أخرى : تخرج راية من نور تكون معي ساعة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها قلوب أصحابي ، وينزل الرعب في قلوب أعدائي ، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله تعالى ، ثم قال ﷺ : إنك مخلوق من نور عنان قلبي ، فمن له السعادة صدق بأني المهدى المنتظر ، ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه ، والمال النفاق – فلا يصدقون ولا ينقادون للحق حرصاً على جاههم ، قال ﷺ : « الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل » .

ولما حصل لي يا حبيبي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود

---

(٥٧) وهذا دليل آخر بأن المهدى كان يفكر في الانضمام إلى الحركة السنوسية ليصير واحداً من جنودها .

ﷺ بالهجرة إلى جبل بالغرب يقال له « قدير » ، وأمرنى أن أكاتب بها جميع المكلفين أمراً عامًّا ، فكاتبت الأمراء والمشايخ فأنكر الأشقياء ، وصدق الصديقون الذين لم يبالوا بما لقوه من المكروه وما فاتهم من المحبوب المشتهى ، بل ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى بقوله : (تلك الدار الآخرة نَجْعلها للذين لا يُريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)[٥٨] مع أن أولئك المنكرين يزعمون أنهم يعلمون أن الأمر لله .

وقد أراد الله المهدية المنتظرة ، واختارها لعبده الحقير الذليل محمد المهدى بن عبد الله . ولا يزال التأييد يزداد من الله ورسوله ، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبى ﷺ أنك من الوزراء لى ! ثم لازلنا ننتظرك حتى أعلمنا الخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه . . ! ثم حصلت حضرة عظيمة عيّن النبى ﷺ فيها خلفاء أصحابه من أصحابى . فأجلس أحد أصحابى على كرسى أبى بكر الصديق ، وأحدهم على كرسى عمر ، وأوقف كرسى عثمان فقال : هذا الكرسى لابن السنوسى . . . ! وأجلس أحد أصحابى على كرسى « على » رضوان الله عليهم أجمعين . .

« . . . وأخبرنى سيد الوجود ﷺ ، بأن من شك فى مهديتى فقد كفر بالله ورسوله ، كررها ﷺ ثلاث مرات ، وحرضنى ﷺ على قتال الترك المخالفين ، المنكرين مهديتى ، ومن أتبعهم على مخالفتى وجهادهم ، وسماهم كفاراً ، بل هم أشد كفراً لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله ، وأخبرنى ﷺ مبشراً بأن أصحابى كأصحابه ، وأن عوامهم لهم رتبة كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهرا وباطناً ، والله ذو الفضل العظيم . هذا وإن جميع ما أخبرتك به من خلافتى بالمهدية وخلافه ، فقد أخبرنى به سيد الوجود ﷺ يقظة فى حال الصحة ، لا بنوم ، ولا بجذب ، ولا سكر ، ولا جنون ، بل متصف بصفات

---

(٥٨) سورة القصص الآية ٨٣ .

العقل ، اقفو أثر رسول الله ﷺ بالأمر به ، والنهى فيا نهى عنه ، وليكن معلومك أنى من نسل رسول الله ﷺ ، فأبى حسنى من جهة أبيه ، وأمه كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى ، والعلم لله . إن لى نسبة إلى الحسين رضى الله عنه .

وأخبرك أن الله فتح على يدنا كثيراً من البلاد ، وانقاد لنا كثير من العباد ممن كانوا تحت حكومة الترك ، فإذا بلغك جوابى هذا . . إما أن تجاهد فى جهاتك إلى مصر ونواحيها إن لم يسلموا ، وإما أن تهاجر إلينا ، ولكن الهجرة أحب إلينا كما علمت فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة إن تيسرت ، وعلى كل حال ترد إلينا منك الإفادة بما يصير إليه عزمك من جهاد أو هجرة ، ومثلك تكفيه الإشارة والسلام »[59] .

• • •

« لقد بدأت الهجرة ، وكانت استجابة الناس لها سريعة وواسعة . فقد شرع الناس فى تعدية النساء والأطفال إلى جهة الغرب ، وتركوا غالب مامعهم من الأمتعة والأموال ، وكانت نفوسهم راضية رغبة فيا أعده الله »[60]

لقد صار للمهدى فى مأمن من الحكومة ، وأصبح له جيش يتلهف شوقا إلى الجنة ، وأصبح الموت فى الجهاد أملا وأغنية حلوة ، وقد جر رجل صديقه إلى المحكمة ، لأنه تمنى له الحياة طويلة . . . ! « . . . فترك الجهاد بعد ذلك ، إما جهل بقدرة الله ، أوكفر بآيات الله ، أو جهل بعظيم ماعند الله ، أو معرفة بخسة الدنيا ، مع أن الأجل مؤقت معلوم ، وإذا تم الأجل المعلوم ، ومات الإنسان عند انقضاء أجله فى الجهاد ، فله من الخير مالا يحصى كما هو معلوم ، وإذا فر وترك

---

(٥٩) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٧٠ ومابعدها .
- منشورات المهدية ص ٧٠ وما بعدها .
- جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٠٧ ومابعدها .
(٦٠) سعادة المستهدى سيرة الإمام المهدى ص ١٤٠ .

الجهاد لا يزيد عمره ، ولا يزول عنه المكتوب . بل من فر وترك الجهاد ، وتخلّف عن أمر الله بالجهاد يميته الله أشنع ميتة حسرتها تدوم ، ولو كانت هذه الميتة بإقبال فى الجهاد لنال مانال مع عدم الإحساس بألم الموت »[٦١] . . .

وفيا أحبابى ويا أصحابى : إن الله غنى عن عباده ولو شاء أمراً أبرمه وقضاه من غير واسطة أحد . وقد أهلك القرون السالفة ، وأهل الأعصار الماضية الذين عصوا أنبياءهم بغير جهاد أحد . ولكن لعنايته سبحانه بهذه الأمة وليكسبوا المزايا الدائمة ، اختار أن يقهر أعداءه سبحانه على أيديهم . ويصفى قلوبهم بذلك ، ويختبر إيمانهم وعدمه هنالك فقال :

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[٦٢] .

واعلموا أن الله لا يخلف وعده ، فمن كان مؤمناً مصدقاً بقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين)[٦٣] . وقوله تعالى : (إنا لننصرُ رسلَنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[٦٤] وذلك أن من استشهد من المؤمنين أراه الله خزى أعدائه فى الآخرة . بعد أن أكرمه الله بما ناله فى سبيل الله . وأراه أن المؤمنين إخوانه فى الدنيا بعد منصورون . وإن حصلت للكفار دولة فى بعض الأحيان فهى لاستدراجهم ولكمال الخزى بهم ، فإن الله عالم بهم . وبيده تقلباتهم وتصرفاتهم وهو خاذلهم كما أوعدهم بذلك فى أكثر من آية . ووعد المؤمنين بالنصر فى أكثر من آية منها قوله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهمْ

---

(٦١) من المنشور الصادر فى ٢٩ من ذى الحجة ١٣٠٠ هـ

(٦٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٦٣) سورة الروم الآية ٤٧

(٦٤) سورة غافر الآية ٥١

المنصورون وإنّ جُندنا لهم الغالبون)[٦٥] . فمن ذلك يعلم المؤمن يقيناً أنه إذا حصلت للكافرين دولة فى بعض الأحيان فإنما هى استدراج . وذلك لا يدوم ، وإنما العاقبة للمتقين »[٦٦] .

« واعلموا أيها الأحباب : أن فى الجهاد تصفية الإيمان ، والفوز بحسن رضا الرحمن ، واعلموا أنه لابد من اختيار التوحيد والإيمان ، وتجرد الصادقين والصادقين بالامتحان ، فيظهر عند ذلك ما كان منطوياً فى سريرة العبد من الخلوص لله والخسران فعند المصائب تتضح الأحوال .

وقد حكى لى بعض الإخوان أنه كان فى خلاء يذكر الرحمن فأتى إليه ذيب فحضر فى باله أنه لا يخلص إلا بطلوع الفجر ، أو إدراك أحد من الإخوان . فتداركه عند ذلك نور الإيمان فصرف عنه طائف الشيطان فقال فى نفسه : إنه لا ينجيني إلا الله الواحد الديّان ، فرسى على حقيقة ما فى قلبه من التوحيد والإيمان ، فخلصه الله تعالى مما يخاف بتوحيد الرحمن قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظُلمٍ أولئك لهمُ الأمْن وهم مُهتدون)[٦٧] .

فافهموا يا أهل الإيمان واعلموا أن المدافع والرصاص اختبار لأهل الإخلاص ، وكذلك قعقعة السيوف والسنان ، وجميع ما يقع فى الحروب وغيرها من المصاعب والشنآن . فمن تحقق بالتوحيد علم أن بواطنها وتحركاتها بيد الرحمن ، ومن أبعده الله أضلّه الشيطان فزاغ عن توحيد الله ، وخاف من تصرفات العدو فى الميدان ، وغاب قلبه عن التحقق ، بأن ملكوت كل شىء بيد الله من جميع الأكوان . وقد حكى بعض الإخوان أنه زاغ من رصاصة ، وتذكر توحيد الله ، وقيامه بكل شىء ، فاعتدل وهجم على الأعداء بقوة صدق الإيمان حتى فرغت

---

(٦٥) سورة الصافات الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

(٦٦) المنشور الصادر فى ٨ من ذى الحجة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٤م .

(٦٧) سورة الأنعام الآية ٨٢

الحرابة فرأى عجباً من إكرام الله للقائمين بنصرة دين الرحمن ، فانظروا هذا مع قوله تعالى : (وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذن الله)[68]

« وإذا كان الأمر كذلك [69] . فيتعين على كل عاقل أن يتوجه لجهاد أعداء الله حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم ، أو تسلب نفوسهم من أبدانهم . فجيوش ذوى العناد مدبرة مدمرة ، وإن كانت بعقولهم مقدمة ومدبرة . وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغرة ، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة ! ألا ترى أن الله تعالى جعل كل مسلم يغلب منهم اثنين ؟ كما قرر سبحانه أن للذكر مثل حظ الانثيين . . ! »

• • •

هذه الكلمات البسيطة فى تعبيرها ، كانت تشق طريقها إلى قلوب السودانيين ، فيندفعون سراعاً إلى الموت ، طلباً للشهادة ، وأملا فى الجنة . « . . . وحتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ، ويقاتل راجلا ، ويتضاربون بالسكاكين للزحمة والالتحام الحاصل بين الفريقين حتى يسقط المسلم والكافر على الأرض جميعاً ، فتجد رجل المسلم على رأس الكافر. . . . ! والعمامة حول البرنيطة ! والبرنيطة حول العمة . . . ! »[70] ، وكان بعضهم يوصى بعضاً فيقول : إن أصبت قبل أن أتمكن من الوصول والدخول فى وسط العدو ، فجروا برجلى حتى تلقونى وسط العدو ، لعلى أتشفى فى أعداء الله ولو بضربة فى آخر رمق منى ، فأستريح من شؤم الدنيا [71] ، ولم تتخلف المرأة السودانية عن القيام بدور فى هذا الجهاد الذى شاركت فيه الرجل ، وكثيراً ما قامت النساء بدور مع الرجال فى حملات المهدى ،

---

(٦٨) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

(٦٩) الجزء الرابع من منشورات المهدى - الخطبة السادسة ص ٢٤ .

(٧٠) سعادة المستهدى - ص ٣٥٤ .

(٧١) المصدر السابق ص ٣٦٦ .

فقد كانت النساء السودانيات الجالسات يتسولن فى شوارع الخرطوم جاسوسات لحساب المهدى ، وهن اللواتى كشفن ضعف دفاع غوردون حول المدينة ، وتسللن ليخبرن المهدى بذلك ، وساعدنه على احتلالها . ويقول محمد أحمد محجوب - الرئيس الأسبق لوزراء السودان - : لقد حضرت جدتى لأمى إحدى المعارك مع جدى - وكان قائداً فى جيش المهدى - وهى تحمل على ذراعيها طفلة فى الثانية من عمرها . نعست الطفلة التى قدر لها أن تكون أمى ، وإذا برصاصة تكشط كتف الأم ، وتقطع نصف أذن الطفلة ، ولو أن الرصاصة كانت أعلى نصف بوصة لما كنتم تقرءون هذا الكتاب اليوم[٧٢] » .

• • •

إن المهدى لم يكن - فقط - صوفياً وفقيهاً ، كان فوق ذلك كله قائداً حربياً قديراً ، وقد عرف كيف يمزج بين هذه المواهب جميعاً - فى ساحة الحرب - ويستخلص منها المثل الذى يجعل الليل ضياء ونوراً ، ويملأ قلوب أنصاره ثقة وأملا « فقد ذهب إليه جماعة وقالوا له : يا سيدى . يقول الناس إن الترك قصدوا مدينة الأبيض ليستأصلوا من فيها ، ويحوزوا النساء والذرية ، حتى شاع الخبر فى الناس وأرجفوا بسبب ذلك . فالتفت المهدى وقال : أيها الناس أنصتوا ، ثم بصق فى كفه اليسرى وقال : أى شىء هذا ؟ قالوا بصاق يا سيدى . ثم طرحه على الأرض فشربته فى الحال . ثم قال للناس : هل ترون لهذا البصاق أثراً ؟ فقالوا له : لا . فقال : نحن كالأرض والترك كالبصاق ! ثم قال : إذا طار طائر فأين ينزل ؟ فقالوا له على الأرض . فقال لهم : إن الترك كالطائر ونحن كالأرض ! أيها الناس اثبتوا

---

(٧٢) الديمقراطية فى الميزان - تأليف محمد أحمد محجوب - ص ٢٠ - ط دار النهار - بيروت - ١٣٩٣ هـ .

واطمئنوا . وأنزلوا رواحلكم واستريحوا . فإن الترك لا قدرة لهم مع قدرة الله . . . » [٧٣] .

وإذا كان ولابد – في القيادة الصحيحة الناجحة – من توفر عنصرى الإيمان والقدوة ، فقد كان المهدى غنياً عن التعريف بهذين العنصرين الأساسيين في القيادة ، لم يكن يجامل أحداً على حساب هذه الحقيقة . وقد أدان – وهو على فراش الموت – أقاربه بسبب تصرفاتهم السيئة ، وقد حدث بعد وصول الإنجليز الى دنقلة ، أن قبضوا على جماعة من أقارب المهدى وقالوا لهم : « . . . اكتبوا من عندكم كتاباً إلى المهدى ليرسل لنا أهالينا المأسورين عنده ، ونحن نطلقكم بعد حضور أهالينا . وقد كتب أقارب المهدى كتاباً أخبروه فيه بما حصل لهم ، وبما رغبه الإنجليز منهم . فأرسل المهدي إلى أقاربه يقول لهم :

ليس لنا بكم حاجة . لأنكم ظلمتم أنفسكم ، فلا فرق بينكم وبين الإنجليز عندنا ! ومعاذ الله أن نرتكب مالا ينبغى لنا بعد قوله تعالى :

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) [٧٤] .

وإن كان نظركم إلى القرابة ، فهذه الآية تكفيكم فاصلا عنا . وفيما حكاه الله عن نوح وابنه ، وإبراهيم وأبيه ، مقنع لأولى الألباب ، وحاصل الأمر أننا لا نجيبكم لما طلبتم ، ولا نشفق عليكم فيما يجرى عليكم من الكفار [٧٥] . . وقد كنا سابقاً كاتبناكم بالهجرة إلينا فما هاجرتم .. ورغبتم في مناولة الجيف ومن أراد أن

---

(٧٣) انظر في هذا الموضوع :

– جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٢٢ .

سعادة المستهدى سيرة الإمام المهدى ص ٢٣٠

(٧٤) سورة المجادلة الآية الأخيرة .

(٧٥) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٣٠٥

يأخذ من الجيف فليصبر على عض الكلاب .. ! !(٧٦) .

• • •

إن المهدى هنا قائد ينظر بعين المصلحة العامة ، لا القرابة الخاصة فلو أنه وهن أمام أقاربه الذين آثروا العافية على الجهاد معه ، لسقطت كل حججه التى يدين بها المتخلفين عنه ، وانفض من حوله أولئك الذين يعانقون الموت بإشارة بسيطة منه ، الدعوة هنا فوق كل شيء ، والعلاقة الوحيدة بينه وبين الناس هى علاقة الإيمان بهذه الدعوة ، وإيثارها على كل صلة ، وفى ضربه المثل لأقاربه بقصة نوح وابنه ، أبلغ درس وعظة .

• • •

والمهدى لم يكن درويشاً ، لقد أمر بإلغاء هذا اللقب ، وهدد كل من يستعمله بمائة جلدة ! « لأن من نفذ قلبه إلى ما عند الله من الخير ، وترك ما فى الدنيا من الضير ، لا يسمى درويشاً ، وإنما يسمى عاقلا ومدركاً وبصيراً »(٧٧) وبهذا الإدراك والعقل والبصيرة ، كان المهدى يتخذ قراراته ، ويقول كلمته . كان دائماً حاضر البديهة متقد الذهن والفكرة ، قوى الشاهد والحجة . كما كان واسع الثقافة كثير الخبرة ، وقد ظهر كل ذلك واضحا فى كتبه ومنشوراته ، وفى تلك الردود الحاسمة التى كان يدافع بها عن مواقفه وتصرفاته ، وفى هذه الرسالة التى بعث بها إلى « يوسف حسن الشلالى »(٧٨) نموذج حى على تنوع ثقافته وخبراته .

---

(٧٦) منشورات المهدية – المنشور الصادر فى ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠١هـ .

(٧٧) منشورات المهدية – المنشور الصادر فى ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠١هـ .

(٧٨) يوسف حسن الشلالى باشا كان قائداً من قواد الجيش الذين كلفتهم الحكومة بإخماد حركة المهدى . وقد سار على رأس حملة كبيرة لمهاجمة المهدى فى مكان نزوله بـ « جبل قدير » ، وقد علم المهدى بخبر قدومه عن طريق الطلائع التى كانت تتجسس لحسابه ، وقد قبض على بعض هؤلاء الجواسيس ، وكتب الشلالى إلى المهدى ينكر عليه هذا العمل ، ويعيب عليه سفك الدماء ، ويطلب منه إرسال ملك من السماء –

الحمد لله المنتقم الجبار . والصلاة على سيدنا محمد وآله الأخيار[٧٩]

من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى بن السيد عبد الله . إلى يوسف حسن الشلالى ومن معه من الجموع .

أما بعد : فإنه قد وصل إلينا جوابكم ، وما ذكرتم فيه من وقوفكم على مكاتبتنا ، وإنكاركم صار معلوماً لدينا[٨٠] ، وكان قصدنا أن نعرض عن إفادتكم صفحاً ، أو نطوى إجابتكم كشحاً ، لوقوفكم على الإنذار ومجاهرتكم بالإنكار ، ولكن أردنا أن نبين لكم غلطكم فيما ذكرتموه فى جميع المواضع ، ونوضح لكم خطأكم فيما ادعيتموه بالبراهين السواطع . فنقول : أما قولكم : إنا قتلنا العسكر غدراً فى « الوقعتين »[٨١] قبل أن يحاربونا فهذا كذب صريح ، لأنهم فى الوقعتين ابتدرونا بالمحاربة والضرب بالسلاح حتى حاربناهم وقتلناهم .

وقولكم : إن الحكومة أرسلتهم ليقفوا على ما عندنا من الأدلة باطل أيضاً ضرورة ، لأن الحكومة لو أرادت المراجعة والاطلاع على ما عندنا من البراهين لأرسلت الصلحاء والعلماء أهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ، ولم ترسل العساكر الأغبياء وتعطيهم الأسلحة !

وقولكم : إنا قتلنا جملة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلماً وعدواناً باطل . لأنا ما قتلنا إلا أهل « الجرادة »[٨٢] بعد أن كذبونا وحاربونا ، وقد أخبرنا

= ليشهد بأنه مهدى وأمور أخرى كثيرة تكشف عنها هذه الرسالة أو هذا الإنذار . . وقد هزم الشلالى فى هذه الوقعة هزيمة ساحقة ، وكان ذلك فى ١٢ من رجب ١٢٩٩ هـ وكان هذا الانتصار أحد المعالم الكبيرة فى تاريخ المهدية .

(٧٩) لم يبدأ المهدى هذه الرسالة بالديباجة التقليدية التى يفتتح بها رسائله عادة وهى : الحمد لله الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وإنما افتتحها بهذه الديباجة التى توحى بالتهديد والانتقام .

(٨٠) يتضح من هذا أن المهدى كان قد أرسل للشلالى خطاباً ثم رد عليه الشلالى بالخطاب الذى يشير إليه المهدى ويرد عليه .

(٨١) يقصد واقعة « أبا » وواقعة « راشد » .

(٨٢) اسم جبل .

النبي ﷺ ، وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك فى مهديتنا فقد كفر ودمه هدر ، وماله غنيمة ، فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم .

وقولكم : إن الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به النبي ﷺ ونسأل عن دمائهم بين يدى الله تعالى باطل لأن القطب الدرديرى[٨٣] قد نص فى باب المحاربة على أن أمراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرهاً فيجوز قتلهم ، على أن النبي ﷺ أمرنا صريحاً بقتال الترك ، وأخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول (باتباعنا ، وإرادتهم إطفاء)[٨٤] نور الله تعالى فكيف نسأل عنهم بعد هذا ؟ ! وقولكم : إنكم ضبطتم[٨٥] أربعة أنفار الطليعة وآذيتموهم ، فاعلموا أنه قد أوذى قبلهم أصحاب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بالسجن والضرب ، والقتل وجميع أنواع الأذى كبلال وخبيب . فليس لهم إلا الثواب ، ولابد أن يجازيكم الله على ما صنعتم بهم .

وقولكم : إن الطليعة تنافى المهدية ، لأن المهدى ضرورة يعلم الغيب . جهلا منكم بسيرة الرسول ، فإن النبي ﷺ كان يرسل الطلائع ، وقد قال تعالى لنبيه : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلمُ الغيب ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ إن أتّبع إلا ما يُوحى إلىّ)[٨٦] وقال تعالى : (إنّما الغيب لله) هو يعلمه لا غير .

وقولكم : ما اتبعنا إلا « البقارة » ، والجهلاء ، والأعراب ، والمجوس[٨٧] .

---

(٨٣) الشيخ الدرديرى كان شيخاً من كبار علماء الأزهر الصالحين ، وكان شجاعاً فى الحق . وقد دفن فى مسجده القريب من الجامع الأزهر . فى شارع « الكحكيين » وهو شارع قديم متفرع من شارع المعز لدين الله الفاطمى أو مابسمى بشارع الغورية فى القاهرة .

(٨٤) فى الأصل : لمخالفتهم لأمر الرسول لاتباعنا وإرادتهم لإطفاء .

(٨٥) أى قبضتم على أربعة أنفار ، وكان المهدى قد أرسل هؤلاء للتجسس على أخبار جيوش الحكومة .

(٨٦) سورة الأنعام الآية ٥٠

(٨٧) المراد بالمجوس هنا من اتبع المهدى وآمن به من الوثنيين .

فاعلموا أن أتباع الرسل من قبلنا ، وأتباع نبينا محمد ﷺ (هم) الضعفاء ، والجهلاء ، والمجوس الذين كانوا يعبدون الحجروالشجر . وأما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن يخربوا ديارهم ، ويقتلون أشرافهم ، ويملكوهم بالقهر . . ونرجو الله أن تكونوا أنتم ومن وراءكم غنيمة للبقارة ، والجهلاء ، والأعراب ، والمجوس وقولكم : قم واحضر عندنا وتوجه بنا إلى محل الهدى مكة المشرفة ، فاعلموا أن توجهنا إنما يكون بأمر رسول الله ﷺ في الوقت الذى يريده الله ، ولسنا تحت أمركم ، بل أنتم ومن فوقكم تحت أمرنا . وأنا ولى الأمر الآن على سائر الإنس والجان .

وقولكم : أرسل لنا مَلَكاً من الملائكة جهل منكم كما قال الله تعالى موبخاً كفار قريش : (وقالوا لَوْلا أنزل عليه مَلَك ، ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضِيَ الأمر ثم لا يُنظرون)[88] وقد أخبر تعالى بأنهم لا تنفعهم الآيات ولا يلطم على الإيمان ظهور المعجزات قال جل وعلا : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قِرْطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مُبين)[89] فالآيات لا تنفع المنكر الجاحد ، وإظهارها إنما يكون بإرادة الله تعالى .

وقد ذكرتم أنكم (كاتبتمونا)[90] لأن الخديو قال لكم : لا تحاربوه حتى يتعدى الحدود . فاعلموا أنه ما أخركم عنا إلا الخوف الشديد والجزع الذى ليس عليه من مزيد . لأننا من حين كنا بجزيرة « أبا » تعدينا حدودكم ، وخالفنا مقصودكم . فكيف تخاطبوننا الآن بمثل هذا القول الذى لا ينشأ إلا من ضعفاء العقول . فسارعوا إلى محاربتنا لتأخذوا مناصبكم التى غركم بها الشيطان ، ولا تجبنوا وتحرصوا إن كنتم كما زعمتم رجالا أبطالا أهل دراية بالحرب ، فإنه ليس بيننا

(88) سورة الأنعام الآية 8 .

(89) سورة الأنعام الآية 7 .

(90) فى الأصل كاتبتونا

وبينكم إلا السيف[٩١] !

• • •

إنه مهدى الله وخليفة رسوله . فمن ذا الذى يقف بعد ذلك فى طريقه ، لقد انهار كل شىء وسقط ، وأصبح الاستيلاء على السودان كله مسألة وقت .

ولكن الإنجليز لا يريدون للمهدى أن ينتصر . إن ذلك يعنى انهيار إمبراطوريتهم فى الشرق . سيثور المسلمون عليهم فى أفريقيا والهند ، وسيحاول الكثيرون تقليده فى الثورة على الغرب ، إن أمر السودان لا يهم ، ولكن العبرة من أحداثه تثير فى القلوب الفزع والرعب ، وقد تساءلت جريدة « البال مال جازيت » عن السبب فى عدم إرسال ضابط كفء ليتولى إجهاض هذه الثورة فى المهد ، ورشحت لهذا الغرض غوردون الجنرال الذائع الصيت .

كان لغوردون شهرة كبيرة ، وكان ملوك العالم يتنافسون لكسب وده ليخدم معهم . كانت شهرة القائد الذى لا يقهر Leader of the ever victories army قد سارت بها الركبان ، فقد خدم فى الصين ، وكان بطل حصار سباستبول فى روسيا ، والكيب تاون فى أفريقيا ، وقاهر جزيرة « موريشيس » فى المحيط الهندى[٩٢] ، وكانوا يعتبرونه فوق ذلك كله من أبطال المسيحية . . . . ![٩٣]

وصدرت الفرمانات فى القاهرة بتعيينه حاكماً عامًّا على السودان . لم يكن

---

(٩١) منشورات المهدى - ج ٢ - المنشور الصادر فى ٤ من رجب ١٢٩٩ هـ وانظر فى هذا الموضوع أيضاً :

- المشهدى بسيرة الإمام المهدى ص ١٦٠ ومابعدها .
- جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٦١ ومابعدها .
- منشورات المهدية ص٣١٠ ومابعدها .

(٩٢) كروى - ص ٣٨ .

(٩٣) المصدر السابق ص ٦٨ .

للقاهرة فى هذا الترشيح أمر أو نهى ، كان على الخديو فقط أن يسمع ويطيع ، لقد سقط فى شرك الخيانة ، وتآمر مع الإنجليز على الثورة العرابية ، وأصبح – منذ ذلك الوقت فى يد الإنجليز ألعوبة . . !

• • •

لقد بدأت المرحلة الحاسمة فى هذه الحرب بين الثورة المهدية ، وخصومها فى لندن والقاهرة ، والتقى الصوفيان[94] وجهاً لوجه على أرض السودان الساخنة . فهل يسهل عليه – كما تقول مجلة العروة الوثقى – رقية محمد أحمد المهدى بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه ؟[95]

إن القضية لم تكن قضية أرض ، يربح فيها المهدى أو يخسر ، ولم تكن المشكلة مشكلة حرب ، ينتصر فيها أو ينهزم ، القضية أبعد بكثير من هذه الظواهر التى ينبهر لها طلاب المجد ، لقد عرض عليه أن يكون سلطاناً على «كردفان» فرفض ، وحاول غوردون إغراءه بكل الوسائل ففشل . إنه المهدى المنتظر ، وقد تجسدت فيه آمال المسلمين فى القرن الثالث عشر[96] .

لقد صرح اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات ، بأن المقاومة التى لاقاها الإنجليز فى السودان ، لم يكن القصد منها إلا تمكين سلطة محمد أحمد على البلاد السودانية ، وهذا القول – كما تقول مجلة العروة الوثقى –[97] « إما غفلة وإما وهم ، فإن القائم بهذه الدعوة لا يقف فى سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك وإنما يريد بسط دعوته فى أقطار العالم ، وإحياء الأوامر الإلهية التى جاء بها صاحب شريعته التى يدعى النيابة عنه فى تبليغها إلى الناس كافة ، وسواء أكان صادقاً فى

---

(٩٤) كان غوردون مسيحياً متصوفاً ، وكان يرجع إلى الإنجيل ويقرأ فيه دائماً .

(٩٥) العروة الوثقى ص ١٥٥ .

(٩٦) القرن الثالث عشر الهجرى ـ والتاسع عشر الميلادى .

(٩٧) العروة الوثقى ص ٢١٩ .

دعواه أم كاذباً ، فلن يتم له أمر ، ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الأرض ، إلا بتقدمه إلى ما وراءها حتى يعلى كلمة دينه ، ويرد إلى الحق من انحرف عنه ، ويكون له التصرف فى قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكاناً عليًّا يشرف منه على مطامح دعواه فى غيرهم من الأمم » .

• • •

ترى هل أصاب جرانفيل فى تصوره أو أخطأ ! إن الحكم فى هذه القضية يحتاج إلى بينة ووثائق ، وخيرما يمكن عمله أن نترك هذه الوثائق وحدها تتكلم ، أو نشاهد من فوق منصة التاريخ هذا اللقاء بين المهدى وغوردون ، وسنرى — من خلال الحوار بين الرجلين — كيف كان جرانفيل يهذى وهو يتكلم .

ماذا يفعل غوردون لمواجهة هذا الإعصار ، وإخماد هذه النار ؟ ! الحرب ؟ وهل تجدى الحرب مع رجال غايتهم الموت ؟ لقد كان أنصار المهدى يبكون حنيناً إلى الشهادة ، ويستقبلون المدافع بوجوه باسمة ، ويلقى الواحد منهم نفسه وسط الألوف من جنود العدو المدججة بالسلاح والذخيرة .

ولكن غوردون لا تعجزه الحيلة ، لقد تعامل من قبل مع كثيرين عرف كيف يتغلب عليهم ، ولن يكون المهدى — كما حدثته نفسه — أخطر منهم ، وبدأ يفتح ملفاته ، ويخرج أسلحته ، وهنا نترك المجال فسيحاً أمام الرجلين لنرى كيف يديران المعركة ! وكيف كان الحوار بينهما فى هذه المرحلة ! وقد بدأ غوردون فكتب إلى المهدى هذه الرسالة :

فخر الأمراء المكرمين ، وقدوة الأولياء الصالحين . حضرة سيدنا ومولانا السيد محمد أحمد بن عبد الله حفظه الله آمين .

بعد إهداء السلام ، وزيادة التوقير والاحترام لسموكم نخبر حضرتكم أنى قد تعينت والياً على السودان باتفاق كل من الحكومة الخديوية ، ودولة بريطانية لتسوية حال السودان بناء على ما طرأ عليها فى مدة السنين الأخيرة من انتشاب الحروب .

وسفك دماء المسلمين ، وقطع الطريق على أبناء السبيل ، الذين يقصدون التوجه لزيارة قبر النبي عليه السلام . والذين يريدون السعى على معايشهم من التجار ، والمتسببين[98] ، وقد شق علينا ذلك كثيراً كما ونعلم أن حضرتكم لا يخلصكم هذا الأمر فغاية ما نريده الآن جنابكم يا حضرة السيد أنه باتفاقنا سوياً ننظر ما فيه حقن دماء المسلمين ، وسلوك الطرق ، ومداولة المواصلات بيننا وبينكم بغاية المحبة والمودة بحسب ما يرضى الله ورسوله ، وأن تأذنوا وتتكرموا بإطلاق الناس المأسورين . عندكم من إسلام ومسيحيين لمناظرة عيالهم والتوصية بهم ، كما أننا شكرنا لفضلكم كثيراً على صنيع معروفكم معهم . وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطاناً على « كردفان » فقد أعطيناها لكم لتكون سلطانا وأميراً عليها ، وأريد أن ترسلوا واحداً سفيراً معتمداً من طرفكم لأجل مقابلتنا فى الخرطوم ، والتروى فيما هو لازم بيننا بخلوص النية ، وحسن الطوية ، ولأجل إعطائه ما هو لازم من عواميد – أعمدة – وسلوك التلغراف لتجديد ما سبق إتلافه بواسطة العربان ، ومداومة المواصلات بيننا ، ويرسل لطرف حضرتكم فرمان من لدن السلطان المعظم بتأييد حضرتكم على حكومة « كردفان » . واعلم يا حضرة السيد أنى أريد أن أكون معكم بغاية المحبة والمودة ، ولا أقصد إلا كل خير ، ورجائى أن تتكرموا علينا برد الخطاب . . . والله الموفق للصواب[99] . . . ١٦ ربيع الآخر ١٣٠١ هـ .

هوردون

• • •

---

(٩٨) المتسببين هم صغار الحرفيين والتجار . وقد سموا بهذا الاسم لاتخاذهم بعض الأعمال سبباً للحصول على الرزق ، وهم فى الغالب من الفقراء الذين يحترفون أى عمل للمعيشة . وهذا التعبير شائع إلى اليوم فى مصر والسودان .

(٩٩) منشورات المهدية - دكتور محمد إبراهيم أبو سليم . ص ٣١٩ وما بعدها .

الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والتسليم وبعد : فمن عبد ربه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى عزيز بريطانية والخديوية غوردون باشا وصل جوابك إلينا ، وفهمنا ما فيه ، والحال أنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين ، وفتح الطريق لزيارة قبر النبى ﷺ ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم ، وحل المأسورين من النصارى « والمسلمانين » ، وأن تجعلنا سلطاناً على كردفان .

فأقول – والأمر لله – إنى قد دعوت العباد إلى صلاحهم ، وما يقربهم من ربهم ، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ، وليعلموا بما يصلحهم فى آخرتهم ، وقد كتبت إلى الحكدارية فى الخرطوم وأنا بـ « أبا » بدعايتى إلى الحق ، وبأن مهديتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بـ(محتال)[100] ولا أريد ملكاً ولا مالا ولا جاهاً ، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتفخر السلاطين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم ، وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفانى ، وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون (إلا)[101] من الفانيات ، ولم يسمعوا قول الله ورسوله ، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً ، وندموا على قدر الذى تنعموا به ، فأيدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم إلى الله تعالى ، وليتركوا العز الفانى ، والنعيم الفانى إلى العز الدائم ، والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ، وقد قال المسيح عليه السلام : ابنوا على موج البحر داراً لكم . فلا تتخذوها قراراً . ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريدها ويكون له فى الآخرة شأن . .

فأنب إلى الله الباقى ، واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ، ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها ، وكيف من يكون على خلاف سكة رسول الله

---

(١٠٠) فى الأصل . متحيل .

(١٠١) ساقطة فى الأصل .

بفتح باب زيارة قبره ؟ ولم يكن النبى ﷺ ممن يرغب فى زيارة الكلاب كما ورد : « إن الدنيا جيفة وطلابها كلاب » ، ولم يرغب فى من عبد غير الله ، ونسى الله ، وأعرض عن كلامه ، وطلب متاع الحياة الفانية . !

فإن كنت شفيقاً على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع دين الحق . واتباع سيدنا محمد ﷺ الذى أحيا ما اندرس من ملل الأنبياء والمرسلين ، وأتى مصدقاً لما بين يديه من الكتب ، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو حضروا لما سلكوا غير ملته ، وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته وممن حضر بعثه !

فطهر نفسك أولا بالدخول فى ملته ، ثم أشفق على أمته بسلوك سنته ! فعند هذا . فأنت الشفيق ، ومن غير هذا فالك من المحقين رفيق ! كيف وقد قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين) . . . إلى أن قال : (إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)[١٠٢] . وإننا قد امتثلنا أمر الله ، وما نتخذ وليًّا إلا الله ورسوله والمؤمنين ! وعلى ذلك فقد وعدنا بالغلبة كما سمعت من قول الله هذا . . . ومادام الله يقول : (هم الغالبون) فلا غلبة لغيرهم . . . . !

فإن رجعت عما أنت عليه – من ملة غير الإسلام – وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة تتخذك ولياً ، وتكون من إخواننا ، وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله ، وتكون ممن امتثل أمر الله ورسوله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة فى قوله تعالى : (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم

---

(١٠٢) سورة المائدة من الآية ٥١ إلى ٥٦ .

ولأدخلناهم جنات النعيم)[103] فبعد هذا تتصل المودة والمحبة فيما بيننا وبينك ، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل ، وتكون قد اتبعت - باتباع سيدنا محمد ﷺ - عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى . وإلا حيث علمت . إن حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا : هم الغالبون . فاعلم أن حزب الله واصل إليك ، ومزيل لك عما شاركت به الله خالقك (فادعيت)[104] ملك عباده وأرضه . مع أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

وأما السليانيون والمسيحيون الذين دعوت (إلى إطلاق سراحهم)[105] فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله ، وفى دار الأبد ، كما أريده لك ولكافة عبادة الله ، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم ! فإن الله قد أيدنى رحمة للعباد لأنقذهم من الهلاك الذى وقعوا فيه .

وقد أيدنى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه ، وقد بشرنى النبى ﷺ بأن جميع من يلاقينى بعداوة يخذله الله ويهزمه . . فلا تغتر فتهلك كما هلك إخوانك . فافهم وسلم . تسلم . . !

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير ، فجزاك الله خيراً وهداك إلى الصواب . . . واعلم أنه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب ، وها هى عائدة إليك مع ما نرغبه من اللباس لأنفسنا وأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقى الأبدى . . . .

ثم إن مثل هديتك هذه عندنا كثير ، ولكن أعرضنا عنها طلباً لما عند الله وأقول لك فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس : (أتمدونني بمالٍ فما آتانى الله خير

---

(١٠٣) سورة المائدة الآية ٦٥ .

(١٠٤) فى الأصل : فدعيت .

(١٠٥) فى الأصل : دعوت بطلقهم .

مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قبل لهم بها . ولنُخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون)(١٠٦) .

. . . واعلم أنك إذا أتيتنا مسلماً نريك فنريك من النور ما يطمئن به قلبك ، ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها . وبعد هذا البيان : فإن اهتديت وسلمت لى ، واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة ، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك . وإلا هلكت ، وكان عليك إثمك ، ومثل آثام جميع من اتبعك(١٠٧) . . .

« حاشية »

باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه ، وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى ، الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات ، طلباً لعالى الدرجات . وهى جبة ورداء ، وسراويل وعمامة ، وطاقية وحزام وسبحة !

فإن أتيت إلى الله ، وطلبت ما عنده ، لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك . وها هو الرسول الذى أتى منك واصل إليك مع رسل من عندنا(١٠٨) . . .

* * *

من غوردون باشا والى السودان إلى محمد أحمد المتمهدى !

وصلنى كتابك الركيك العبارة ، العارى عن المعنى الدال على سوء نيتك وخبث طويتك ، وعن قريب ستبلى بجيوش لا طاقة لك بها ، وتكون أنت المسئول أمام الله عما يسفك من الدماء ، كما أنك أنت المسئول الآن عمن أعميت قلوبهم ، وغشيت

---

(١٠٦) سورة النمل : الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(١٠٧) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ١٠٩ ومابعدها . جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٧٨ ومابعدها .

(١٠٨) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ١١٧ .

بصائرهم ، ويتمت أطفالهم . وخربت ديارهم وكنت لا أرى حاجة إلى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة ، عادم الذمة لكنى تعلقت بأذيال الأمل ، راجياً من الله عز وجل أن يتجلى على فكرتك الخامدة . فتلق النصيحة بيد القبول ، وتعلو متن سلطنة مكنتك منها وكان دون نيلها خرط القتاد . وها أنا مستعد لقدومك ، ومعى رجال أقطع بهم أنفاسك . والعاقل من تدبر والسلام[109] .

غوردون

• • •

من العبد المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله إلى غوردون باشا . . هداه الله قبل أن يتلاشى ! آمين .

نعلمك أن جوابك رد المحرر منا وصل إلينا ، وفهمنا مضمونه وقد عذرناك فى عدم إذعانك وإجابتك لنا ، بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها ، وبحسب مقامنا ودلالتنا إلى الله ، وشفقتنا على جميع خلق الله . حتى من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ، ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل . فأجب داعى الله ، واغتنم سلامتك من الشر الوبيل ، فقد رأيت ما حل ونزل ولازلت ترى ، ولا طاقة لك ، ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل ، وقد ذكرت أن « عبد القادر ولد أم مريوم » حبيبك ، وتقبل قوله ونصيحته . وطلبت إرساله إليك فعلى ماذا ؟ هل أنت منيب إلى الله ؟ وقصدك التسلم لنا على يد المذكور ؟ أم أنت على تصميمك فى إعراضك ومعاداتك لربك ؟ فأفدنا لنعلم طلبك له هو على أى الوجهين ، ونرسله لك أن رأينا فى ذلك صلاحاً للدين .

وأقول لك : إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحل

(١٠٩) جغرافية وتاريخ السودان نعوم شقير - ص ٧٨٣ .

بها إن عقلت ![110] .

« فإن أراد الله سعادتك ، وقبلت نصحى ، ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب ، وإن أردت أن تجتمع على الإنجليز الذين أخبرنا رسول الله بهلاكهم نوصلك إليهم . فإلى متى تكذبينا وقد رأيت ما رأيت ؟ وقد أخبرنا رسول الله بهلاك من فى الخرطوم قريباً إلا من آمن وسلم ينجيه الله ، ولذلك أحببت لك ألا تهلك مع الهالكين ، لأنا قد سمعنا مراراً فيك الخير ، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما يئسنا من خيرك وسعادتك . وسنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى الله أن ييسر هدايتك ، وطالما كاتبناك لترجع إلى وطنك . (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً)[111] .

• • •

هذا هو المهدى فى تفكيره ودعوته ، وذلك هو غوردون فى عناده وتصلبه أن القائد الذى لا يقهر لا يريد أن يعترف بقائد آخر لا يهزم ولا يقهر . . . فلا يزال غوردون أسير أمجاده السابقة وأحلامه . ماذا عليه لو حقن الدماء وأوقف الحرب ؟ إنه غرور العظمة ، وميراث الصليبية ، وكبرياء رجل يرى الأفارقة والمسلمين عبيداً ووحوشاً مفترسة .

والحروب لا تدار بمثل هذه العقلية . والحرب كر وفر ، وعقل وفن ، وإعداد وتخطيط . والقائد الحكيم هو الذى يزن الأمور بتجرد كامل عن هوى النفس .

وغوردون لم يكن حكيماً . « كان – كما يصفه اللورد كرومر – مندفعاً متهوراً ، ونادراً ما كان يصبر على رأى . ويبدو أنه كان خلواً من أية موهبة عظيمة

---

(110) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٢٥١

(111) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٢٥٣

القيمة »[112].

وقد دفع في النهاية ثمن طيشه وتهوره . وانتهت حياته بمأساة لم تكن في تصوره . المهدي يزحف إلى العاصمة وجيوشه المظفرة تهتف مهللة ولكنه – أي المهدي – لا يريد حرباً ، إنه يريد أن يدخل المدينة صلحاً ، فكتب إلى غوردون في اللحظات الأخيرة قائلا : « لولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحاً عن مخاطبتك ، فسلم تسلم أنت ومن معك ، وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك »[113].

فكتب إليه غوردون قائلا : « لست أبالي بك ولا بجيوشك . . سترى ما يحل بك . . ففي الكفاءة لأن أعرفك قدرك ، ولا تغرنك كثرة أنصارك ! »[114]

• • •

وأقبل التاسع من ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ – الموافق ٢٦ من يناير ١٨٨٥ م فأمر غوردون أن تعزف موسيقى الجيش . وكأنما أحس الرجل بدنو أجله فأراد أن يسمع أغنية الوداع ! ولكن الجيش الذي يريد أن تعزف موسيقاه لا يقدر أفراده على التنفس ، لقد أجهدهم الحصار والجوع واليأس . وأصبح الموت أمنية يتمناها الكثيرون من أفراد هذا الجيش . . . !

ما هي نهاية كل هذا ؟ لقد وجه غوردون هذا السؤال إلى نفسه إنها ولا محالة قدر مكتوب في سجل الأزل أن الخرطوم ستؤخذ عنوة . ولكن إنني لن أنال حياً[115] ثم أمر بوضع الديناميت في أقبية القصر . كي ينسف بمن فيه إذا لزم الأمر . ولكن الانتحار جريمة ، إنها أكبر هزيمة يتعرض لها بطل . وقد كان غوردون

---

(١١٢) النيل الأبيض – الن موريد – ص ٢٧٨ .

(١١٣) جغرافية وتاريخ السودان ص ٨٤٧ .

(١١٤) المصدر السابق ص ٨٤٧ .

(١١٥) مهدي الله ص ١٠٢ .

فى نظر نفسه بطل الأبطال فكيف ينهزم ؟ !

الله أكبر . . .

لقد انهارت قلاع الظلم ، وسقطت الحصون فى يد الأنصار حصناً بعد حصن . وتلاشى كل أثر للمقاومة فى صفوف العدو ، وحانت اللحظة الرهيبة بين غوردون وضحاياه فى ساحة القصر .

كان غوردون واقفاً عند رأس السلم بثيابه العسكرية ، وما كاد يرى جموع الأنصار متجهة نحوه حتى صاح فيهم قائلا :(١١٦)

– أين محمد أحمد ؟

إن غوردون لم تفارقه كبرياؤه حتى هذه اللحظة ، وهو موقف شجاع لا يلام عليه فى الحقيقة .

يا ملعون . . هذا يومك . . . !(١١٧)

وقذف أحد المهاجمين بحربة لتستقر فى الصدر ، وسقط القائد الذى لا يقهر مضرجا بدمائه على سلم القصر . . . !

• • •

وكانت نهاية فصل من فصول المأساة التى تعرض لها الإسلام فى القرن التاسع عشر ، وبداية فصل جديد من فصول تلك الغارة التى شنت – على الإسلام والمسلمين – فى كل أرض وقطر ، فقد تناولت الصحف – فى إنجلترا وأوربا مأساة الخرطوم بالتعليق والوصف واتسمت لهجتها بالغضب والتهديد والعنف ، وحرضت حكوماتها على العمل والأخذ بالثأر .

وكان يوماً حزيناً فى لندن . فقد مات شهيد المسيحية البطل ، وتوقفت ساعات

---

(١١٦) جغرافية وتاريخ السودان ص ٨٦٧

(١١٧) مهدى الله ص ١٠٣

(بج بن) عن العمل . وكانت الملكة فكتوريا كما يصف سكرتيرها - في حالة فظيعة .

كانت تهم بالخروج حين تلقت برقية « وفاة غوردون » فخرجت إلى مسكني على مسافة ربع ميل ، وسارت إلى حجرتي شاحبة ترتجف وقالت لزوجتي - التي جزعت لمرآها - فات الأوان . . . ! [118] .

أجل . فات الأوان ، وتحرر السودان ، ورفرفت أعلام المهدية فوق ربوعه في كل مكان . . . ! ! !

(118) النيل الأبيض - ألن مورهيد - ص 275

الفصل السادس

المهدى السلفى

السلفية . . والسلفيون . .

يقصد بهذه التسمية أولئك القوم الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى ، وكانوا من الحنابلة الذين تقوم آراؤهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الذى أحيا عقيدة السلف ، وكان متشدداً فى الالتزام بالنص الذى جاء به القرآن ، ومما ورد صحيحاً عن رسول الله ﷺ من الأحاديث ، وقد تجدد ظهورهم فى القرن السابع الهجرى بقيادة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم بعثت هذه الحركة من جديد فى القرن الثانى عشر الهجرى على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية .

وكان جوهر هذه الدعوة هو العودة إلى القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية . فالقرآن وصحيح السنة هما الحكم الوحيد فى تقرير الحكم الشرعى فلا حلال إلا ما حلّلاه ، ولا حرام إلا ما حرماه . والحق كل الحق فيما قرراه وأثبتاه .

وحين كان القرآن والسنة هما المصدر الوحيد للسلف الصالح من هذه الأمة والمرجع الوحيد فى شئون الدين والعقيدة حين كان الأمر كذلك . بقيت عقيدة الأمة نقية وقوية ، وبقيت صفوفها متحدة متراصة ، وعز شأنها ديناً ودنيا .

على هذا المنهج كان الصحابة ، وحذا حذوهم السلف الصالح من الأمة ثم خلف من بعدهم خلف بدلوا وغيروا ، وأضافوا وابتدعوا . وصاحب هذا التبديل والتغيير تعصب وتمزق ، وشتات وتفرق ، وانقسمت الأمة الواحدة الموحدة ، إلى

فرق وطوائف . ومذاهب ومدارس ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولم يكد يبدأ القرن السابع الهجري حتى « . . . كان المسلمون قد انحطوا إلى أسفل درك ، واجتاحت بلادهم جحافل التتر . وشاع التقليد الجامد إلى حد أن أصبحت المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات مستقلة وأصبح الاجتهاد معصية ، والرجوع إلى الكتاب والسنة جريمة . وتكوّن من العوام الجهلة ، والعلماء الجامدين أولى النظر الضيق ، والحكام الغاشمين الظلمة . . . تكوّن من كل هؤلاء اتحاد ثلاثى عجيب ، لم يكن القيام فى وجهه لإصلاح الأمر بأهون من مصافحة الموت »[1]

كان ليلا شديد السواد كثيف الظلمة ، وكما ينبثق الماء من الصخر ، ويخرج اللبن من بين فرث ودم ، خرج إلى الوجود فى عام ستمائة وواحد وستين هجرية إمام جليل عظيم الشأن ، وكان ابن تيمية هو ذلك الإمام الجليل الفذ . « كان ابن تيمية إماماً فى الحديث . حتى قيل : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ! وكان من علو كعبه فى الفقه أن تبوأ بحق مقام الإمام المجتهد المطلق . وكان المقدمون فى علوم الفلسفة والكلام والمنطق يجلسون أمامه كما يجلس التلميذ ، زد على ذلك جرأة وشجاعة لا يخاف معها قوة مها بلغت فى الجهر بالحق . وقد دخل بسبب ذلك السجن مراراً . وفيه قضى نحبه فى نهاية الأمر »[2] .

ماذا فعل ابن تيمية ؟ وماذا كان موقفه من التيارات والمذاهب الفكرية المعاصرة ؟

لقد نظر فوجد أن طرائق العلماء فى فهم العقائد الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام :

---

(١) موجز تجديد الدين وإحيائه ص ٨٦ ومابعدها

(٢) موجز تجديد الدين وإحيائه ص ٨٧

القسم الأول : الفلاسفة . وهؤلاء يقولون : إن القرآن جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور . ويدّعون أنهم أهل البرهان واليقين ، والعقائد طريقها البرهان واليقين .

والقسم الثاني : المتكلمون « أي المعتزلة » وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر في الآيات القرآنية . فهؤلاء يأخذون بالنوعين من الاستدلال . ولكن يقدمون النظر العقلي على الدليل القرآني .

والقسم الثالث : طائفة من العلماء تنظر إلى ما في القرآن من عقائد فتؤمن به ، وبما فيه من أدلة ، فتأخذه لا على أنه أدلة هادية مرشدة موجهة . بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للاستنباط العقلي .

والقسم الرابع : قسم يؤمن بالقرآن – عقائده وأدلته – ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية (٣) .

وقد رفض ابن تيمية هذه المواهب كلها ، لأن منهاج السلف ليس واحداً منها ، بل هو غيرها . لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص ، ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص ، وينتهي ابن تيمية من هذا كله إلى أنه لا سبيل لمعرفة العقيدة عند السلف . وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا واعتقاداً واستدلالاً إلا من القرآن والسنة (٤) .

وكانت أهم مسألة شغلت ذهنه هي مسألة التوحيد ، والوحدانية في العبادة معناها ألا يتجه العبد في العبادة إلى ما سوى الله . وذلك يقتضي أمرين : ألا يعبد إلا الله وحده ، فمن أشرك مع الله تعالى شخصاً أو شيئاً فقد أشرك من سوّى بين

---

(٣) انظر في هذا الموضوع : تاريخ المذاهب الإسلامية للفقيه المصري الشيخ : محمد أبو زهرة ج ١ ص ٢٢٦

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

المخلوق والخالق في شيء من العبادة فقد جعل مع الله آلهة أخرى[٥] . فدين الإسلام مبني على أصلين : أن يعبد الله وحده ولا يشرك به ، وأن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ، وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[٦] . وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه . وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته حين قال لهم : لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد ، وقال لرجل قال له : ما شاء الله وشئت: أجعلتني لله نداً ؟ وقال : من حلف بغير الله فقد أشرك[٧] .

ومادام الله سبحانه هو المستحق للعبادة . وهو وحده المنفرد بالربوبية وهو وحده مالك الأمر في الدنيا والآخرة ، فإنه لا ينبغي لأحد أن يتوسل إليه بغيره ، أو يوسطه بينه وبينه أحداً من خلقه ، أو يستغيث بأحد من أنبيائه وأوليائه بعد موته ، فمن أثبت وسائط بين الله وخلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك[٨] ، والله لم يجعل لأحد من المخلوقين – سواء أكان نبيًّا أم ملكاً – أن يقسم به ويتوكل عليه ، وقد تهدد الله من دعا شيئاً من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ، ولا شركاء في ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستغاثة[٩] ، كما أنه لا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين والميتين لأن ذلك كله شرك[١٠] .

---

(٥) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة – تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية – ص ١٥٨ ط المكتب الإسلامي – ١٣٩٠هـ .

(٦) المصدر السابق – ص ١٥٨ .

(٧) الواسطة بين الخلق والحق – تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية – ص ١٩ ، ط المكتبة العلمية – لاهور .

(٨) الواسطة بين الخلق والحق ص ٢١ .

(٩) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١١١ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٥٤ .

المخلوق والخالق فى شىء من العبادة فقد جعل مع الله آلهة أخرى[٥] « فدين الإسلام مبنى على أصلين : أن يعبد الله وحده ولا يشرك به ، وأن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ، وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »[٦]، وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مراد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وقد كان النبى ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته حين قال لهم : لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد ، وقال لرجل قال له : ما شاء الله وشئت: أجعلتنى لله نداً ؟ وقال : من حلف بغير الله فقد أشرك[٧].

ومادام الله سبحانه هو المستحق للعبادة . وهو وحده المتفرد بالربوبية وهو وحده مالك الأمر فى الدنيا والآخرة ، فإنه لا ينبغى لأحد أن يتوسل إليه بغيره ، أو يوسطه بينه وبينه أحداً من خلقه ، أو يستغيث بأحد من أنبيائه وأوليائه بعد موته ، فمن أثبت وسائط بين الله وخلقه كالوسائط التى تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك[٨] ، والله لم يجعل لأحد من المخلوقين – سواء أكان نبياً أم ملكاً – أن يقسم به ويتوكل عليه ، وقد تهدد الله من دعا شيئاً من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ، ولا شركاء فى ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستغاثة[٩] ، كما أنه لا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين والميتين لأن ذلك كله شرك[١٠].

---

(٥) قاعدة جليلة التوسل والوسيلة - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية - ص ١٥٨ ط المكتب الإسلامى - ١٣٩٠هـ.

(٦) المصدر السابق - ص ١٥٨ .

(٧) الواسطة بين الخلق والحق - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية - ص ١٩ ، ط المكتبة العلمية - لاهور.

(٨) الواسطة بين الخلق والحق ص ٢١ .

(٩) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١١١ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٥٤ .

فشهادتنا « أن لا إله إلا الله » تقتضى ألا نعبد غيره وشهادتنا « أن محمداً رسول الله » تقتضى أن مهمة الرسالة تبيان الطريقة المرضية لله فى عبادته ، وأن الخروج عن هذه الطريقة يتنافى مع هذه الشهادة بل ينقضها[11] .

ولم يقف ابن تيمية عند هذا الحد ، فقد دعا إلى فتح باب الاجتهاد ، وشدد النكير على القائلين بإغلاقه ، كما حارب الجمود والتقليد والتعصب ، وكان يقول ما قاله الإمام أحمد : لا تقلدنى ، ولا تقلد مالكاً ولا الشافعى وتعلم كما تعلمنا ، وحرام على الرجل أن يقلد فى دينه الرجال ، فإنهم لم يسلموا أن يغلطوا والتفقه فى الدين فرض ، فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقهاً فى الدين[12] .

وكان ابن تيمية جريئاً شجاعاً ، فلم يجامل فى النقد فريقاً على فريق ، ولم يترك طائفة دون أخرى . فكان بحق الناقد « الراديكالى » إذا جاز أن يطلق عليه هذا الوصف . وقد نادى بأن يرجع المسلمون إلى الكتاب والسنة قبل أن يرجعوا إلى القياس والرأى . كان يريد إسلاماً وجماعة إسلامية أساسها الكتاب والسنة . .

هذا – باختصار شديد – هو ما دعا إليه ابن تيمية ، وكان خلاصة لمعظم آرائه وتعاليمه ، لكن هذه الآراء والتعاليم « . . لقيت خير تعبير عنها فى حركة مفعمة قامت خلال القرن الثانى عشر الهجرى – الثامن عشر الميلادى – على رمال نجد التى وصفها ماكدونالد Macdonald بأنها أطهر بقعة فى عالم الإسلام الذى دب فيه الانحلال ، وكانت هذه الحركة حركة محمد بن عبد الوهاب »[13] . ولم تكن هذه الحركة فى جوهرها إلا إحياء لتعاليم ابن تيمية ، وصورة جديدة لأقواله وفكره ، فهذه الحركة لم تزد بالنسبة للعقائد شيئاً عما جاء به ابن تيمية ، إلا أنها

---

(١١) العبودية – تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية . ص ١٧٠ ط المكتب الإسلامى – ١٣٩٢هـ .
(١٢) محاضرات فى الفكر الإسلامى – الدكتور محمد البهى – ص ٥٤ .
(١٣) تجديد الفكر الدينى – للعلامة إقبال – ص ١٧٥ .

تشددت فى أمور لم تكن شائعة فى عصره ولم تشتهر فى عهده[١٤] فقد حرموا التدخين والتصوير الفوتوغرافى . وكانوا يحاربون القهوة فى أول الأمر . وتوسعوا فى معنى البدعة توسعاً يكاد يخرج صاحبها من العقيدة[١٥] ولم تقتصر هذه الحركة على الدعوة المجردة ، بل حملت السيف لمحاربة المخالفين من أهل البدع . لأن البدع منكر ، وكل منكر تجب إزالته . . .

وكان موسم الحج ميداناً صالحاً لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إليها ، فإذا عادوا إلى بلادهم كانوا من الداعين إليها ، والمتحمسين لها ومن هذا الطريق ، طريق الحج ، بدأت الدعوة فى الذيوع والانتشار فى ربوع العالم الإسلامى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ولم تكن حركة جمال الدين ومحمد عبده فى مصر ، وحركة السنوسى فى الشمال الإفريقى من جهة الغرب ، لم تكن هاتان الحركتان فى تصورهما السلفى إلا صدى قوياً للدعوة السلفية التى قام بها محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز ونجد . .

ولقد تساءلنا فى نهاية الفصل الخاص بـ تيارات الإسلامية التى كانت سائدة فى عصر المهدى : « ماذا أخذ المهدى من هذه الحركات الثلاث وماذا ترك منها ؟ ماذا أخذ من محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية الكبرى ؟

هذه الحركة التى تجاوزت حدود السودان غرباً حتى وصلت إلى نيجيريا على يد عثمان دنفديو ، واندفعت شمالاً حتى وصلت إلى ليبيا ، وطارت شرقاً ليحمل لواءها مصلحون فى الهند وسومطرا . .

ثم ماذا أخذ من السنوسيه وافكارها وتنظيماتها ؟ لقد توغلت السنوسية فى السودان نفسه . وأقامت زواياها بأيدى السودانيين أنفسهم .

ثم ماذا كان من حركة الأفغانى التى هزت العالم الإسلامى من حوله هزاً .

---

(١٤) تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ ص ٢٥٣ .

(١٥) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

وارتجت أركان الاستعمار بسببها خوفاً ، وكانت صلتها بالسودان أكثر عمقاً ، فلم تكن مصر والسودان فى ذلك الوقت إلا بلداً واحداً . . »

لقد تأثر المهدى بهذه الحركات جميعاً كما قدمنا ، وكان تأثير هذه الحركات فى فكره واضحاً جليًّا ، وكان أثر محمد بن عبد الوهاب ودعوته السلفية فى فكره ظاهراً قويًّا .

وهنا يخطر سؤال لابد من وروده قبل الخوض فى تفاصيل تلك الآراء والأقوال التى اقتبسها المهدى من حركة محمد بن عبد الوهاب ودعوته . هذا السؤال هو : هل كان تلقى المهدى لتلك الآراء والأقوال مباشرة ؟

وبعبارة أوضح : هل حمل الحجاج السودانيون أفكار الحركة السلفية إلى السودان بعد عودتهم من مكة ، وعملوا على نشرها بين السودانيين فى كل طبقة ؟ أو تم ذلك بواسطة الحركة السنوسية التى انتشرت زواياها وفروعها فى أنحاء السودان بكثرة ، وكان لها - أى للحركة السنوسية - تأثير ظاهر فى مجريات الأحداث بالسودان كما سبق وأوضحنا ؟

الاحتمالان جائزان ومقبولان ، وإذا كانت الدعوة السلفية لم تظهر فى السودان بصورة علنية ، فلأن الجيش الذى وجه للقضاء على هذه الحركة - وهو الجيش المصرى - والقواد الذين كانوا على رأسه . كانوا هم الحكام فى السودان وفى مصر ، فلم يكن من السهل أن تظهر هذه الدعوة فى السودان بصورة علنية ، وبخاصة أن السنوسى الكبير - مؤسس الحركة السنوسية - قد هدد بالقتل حين أعلن هذه الآراء فى القاهرة[١٦] . واتهم الشيخ محمد عبده بالإلحاد والزندقة حين دافع عن هذه الحركة ، وطالب مثلها بالعودة إلى الكتاب والسنة[١٧] ، وكان من مصلحة الحكام

---

(١٦) الإسلام فى القرن العشرين - عباس العقاد - ص ١١١ .
- محمد عبده - تأليف عباس العقاد ص ١٠٢ .
(١٧) محمد عبده - تأليف عباس العقاد ص ٢١٩

والحكم إبعاد هذه الحركة التي تنادى بالجهاد والقوة .

• • •

بعد هذا كله . . نعود إلى البيانات والمنشورات التي أصدرها المهدى لنرى إلى أى مدى كانت أقواله وأحكامه مطابقة لهذا الفكر السلفى ومنابعه .

يقول المهدى :

« من العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى كافة أحبابه وأتباعه على سنة رسول الله ﷺ .

يا أحبابى : فقد بايعتمونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تأتوا ببهتان ، ولا تعصونى فى معروف ، وأن تزهدوا فى الدنيا وتبذلوا أنفسكم وأموالكم فى سبيل الله .

فإذا كنتم (موفين)[18] لبيعتكم وعهدكم ، فإن بيعتكم هذه هى بيعة الله ورسوله ، إذ أن من بايعنى فقد بايع الله ورسوله ، فوحدوا الله فى كل شىء ، كما بايعتم على ألا تشركوا بالله شيئاً . فلا تروا العيش والاقتيات والعز والنفع وضدهم عند أحد ، ولا فى الأموال والوظائف . بل إن الوظائف والأموال إذا حصلت لأحد فربما أسقطته عن الله . إذا كان ضعيفاً فى نور الإيمان لما أن رؤيتها وزوالها يقذفان فى قلبه أن بها العظمة والعيش فيشرك بالله كما (رأى)[19] بنو إسرائيل خوار العجل وحراكه فظنوا أنه إله وقذف فى قلوبهم حبه .

وكل من نظر إلى شىء دون الله ، وأثر فى قلبه أنه ينفع أو يضر فقد أشرك فى الحقيقة . إذ أن كل ما سوى الله باطل .

ومن كان يوحد الله ، ويرجو لقاء الله ، لا يميل إلى شىء دون الله فيطمئن به ، فيصرفه عن الله ، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته ، لأن منفعة الغير التى يراها من

---

(١٨) فى الأصل موفون .

(١٩) فى الأصل كما رأوا .

غير حقيقة تصد قلبه عن التمسك بالله ، فيتمسك بذلك الغير ، فيكون مقطوعاً عن الله . وعن منبع القوى والقدر ، ويكون كالشجرة المقطوع عروقها . فخيال خضرتها عن قريب يذهب وتضمحل ، وتنعدم . فمن اعتمد على شيء دون الله ، وفرح به ، فقد جهل ، وكذلك من رجا شيئاً من دون الله ، ويعلم من ذلك أن من تفخر بشيء دون الله ، فقد تفخر بالعدم ، وتمسكه بالغير يكون حجاباً له عن الله ، وكفراً بنعمه تعالى ، لأن الله هو المحيي والرزاق والمغيث والمعز لا غيره . فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعاً أو نفعاً أو ضراً ، فقد ظلم بوضع الشيء في غير موضعه ، ونسب نعمة لغير من أنعم بها .

فإن كنتم مصدقين بوحدانية الله في الأقتيات والحياة ، وكل شيء إلى الممات ، فاخرجوا عما — عن الله — يصدكم ، وعن طلب الآخرة يصرفكم ، فإنه لا رب إلا الله . ولا حياة إلا في الآخرة .

وقد ابتلى الله عباده ، واختبر توحيدهم ، فثبتوا ، ولم يتزلزلوا . فانظروا إلى ابتلاء إبراهيم عليه السلام في توحيده الله تعالى . . قُذِف في النار فعارضه جبريل في الهواء فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى . فلما وقع في النار صارت عليه برداً وسلاماً . فكذلك من يبتليه الله فيصبر على توحيد الله مكتفياً عن الاستعانة بغيره يسلم كما سلم إبراهيم عليه السلام .

وقد أمرنا الله أن نتبع سكة إبراهيم . فقال : (ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)[٢٠] يعني اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم ، وحق على من كان إبراهيمياً ، أن يكون من تدبير نفسه بريئاً ، ومن منازعة الله خلياً .[٢١]

• • •

هل قال ابن تيمية ، وابن عبد الوهاب غير هذا ؟ إن هذا المنشور تمجيد حي

(٢٠) سورة الحج الآية الأخيرة .

(٢١) المنشور الصادر في ٦ من صفر ١٣٠١هـ .

لأقوالها فى التوحيد وإفراد الله بالعبودية .

وفى منشور آخر يقول المهدى[٢٢] :

لا تستغيثوا بأحد دون الله ، ولا تطلبوا أحداً دون الله ولو نبيًّا رسولا ، أو ملكا .
فجميع الأنبياء والمرسلين دعوا إلى وحدانية الله . فلا تتوهموا وتنسبوا إلى رجل صالح شيئاً ، أو تطلبوا منه شيئاً ، فإن ما سوى الله يقطع النظر عن الله تعالى . قال الله تعالى : (وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو)[٢٣] .

وقال : (ما يَفتحِ الله للناسِ من رحمةٍ فلا ممسك لها وما يُمسك فلا مُرسلَ له من بعده)[٢٤] . فلا تشركوا بالله شيئاً ، وراعوا حق الله فى حرمته .

وفى هذا المنشور تجسيد آخر لتعاليم ابن تيمية ، وابن عبد الوهاب فيما يأتى :

أولا : منع الاستغاثة بغير الله ولو كان نبيًّا رسولا أو ملكاً .

ثانيا : ألا ينسبوا أو يتوهموا أو يطلبوا من رجل صالح شيئاً .

ثالثاً : اعتبار أى عمل من هذه الأعمال شركاً .

نفس الآراء والأحكام التى أصدرها ابن عبد الوهاب ، وابن تيمية ، وتكاد الألفاظ والعبارات أن تكون واحدة على نحو ما بينا فى المقدمة عند الكلام عن ابن تيمية[٢٥] .

لقد نشأ المهدى صوفيًّا كما نعرف ، وكان فى صوفيته مثال المريد الذليل الخاضع لشيخه ، حتى إنه كان يذهب إليه ، وقد وضع « الشعبة »[٢٦] فى عنقه علامة

---

(٢٢) الجزء الأول من المنشورات ص ٣٦ .

(٢٣) الآية ١٠٧ من سورة يونس .

(٢٤) الآية ٢ من سورة فاطر .

(٢٥) انظر فى هذا الموضوع أيضاً :

- كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد ص ٣٨ وما بعدها .

- وكتاب « ثلاث رسائل فى العقيدة الإسلامية » ص ٤٠ - والكتابان من تأليف محمد بن عبد الوهاب .

(٢٦) قضيب من الخشب ينتهى عند طرفه بحرف على شكل رقم (٧) .

الخضوع والامتثال لأمره . وفى هذا الجو . . جو الصوفية يرتفع بعض الشيوخ إلى درجة من القداسة . ويقسم بأسمائهم ويحلف كما يقسم ويحلف باسم الله سبحانه ، بل نجد كثيراً من هؤلاء أو أكثرهم كما يقول الإمام الشوكانى :

« . . . إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً : فإذا قيل له : احلف بشيخك أو المولى الفلانى تلعثم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق »[٢٧]

ولكن المهدى يحذر أنصاره من الحلف بغير الله ، لأن كل مؤمن يصدق بوحدانية الله لا يحلف بغيره »[٢٨] .

ويقول المهدى فى بيانه : « اعلموا أن العظمة لله . فلا تحلفوا بشىء دون الله فيجرى الحلف فى غير موضعه ، وفى الحديث : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » ، وإذا عظمت منة الله عليكم فى شىء ، فاحلفوا بربه وخالقه وتقليل الحلف بالله خير ، لأن من اعتاد ذلك يقع فى حلف بكذب ، فيقع فى اليمين الغموس ، التى تقذف صاحبها فى النار . . » .

وقد أجاب « المهدى » عن سؤال وجه إليه بشأن الحلف بالحرام والطلاق ، أى عن حكم الشرع فى الرجل الذى يقول مؤكداً كلامه على عادة ساقطى المروءة من الناس . . . علىَّ الطلاق والحرام أننى فعلت كذا ، أو ما فعلت كذا . . قال المهدى رداً على هذا السؤال وهذه الفتوى : الحلف بالحرام والطلاق لغو لا يلزم فيه شىء ، لقوله ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » بعد قوله : « لا تحلفوا بطلاق ولا عتاق » . . وإذا وقع الحنث فيهما من الحالف فلا يلزمه فيه سوى الأدب . . ولا بحرمان الزوجة كما يزعم بعض الإخوان . . »[٢٩] . . هذه النظرة الواسعة فى استنباط الأحكام والفتاوى خاصة بالإمام ابن تيمية ومدرسته

---

(٢٧) زعماء الإصلاح ص ٢٢

(٢٨) منشورات الإمام المهدى ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧

(٢٩) المنشور الصادر فى ٣ من رجب ١٣٠٢هـ

وتلاميذه ، فالطلاق إنما شرع أصلا لوضع خاص يستحيل فيه الوفاق بين الزوجين ، واستعمال ألفاظ الطلاق فى غير ما شرعت له ، وفى أمور بعيدة عن القصد منه لا تجعل لهذا الكلام أثراً فى العلاقة الزوجية إيجاباً أو سلباً ، وإنما يعزر صاحبه بالقدر الذى يزجره عن التلاعب بهذه الكلمات ، واتخاذها هزواً ولعباً[٣٠] ، وإذا كان القصد منها – اليمين والحلف – فإن ذلك غير جائز شرعاً ، وقد اتفق المسلمون – كما يقول ابن تيمية – على أن من حلف بالمخلوقات أو ما يعتقد هو حرمته ، لا ينعقد له يمين ولا كفارة فى الحلف بذلك[٣١] .

وفى إحدى الغزوات – كما يقول صاحب كتاب « سعادة المستهدى » بسيرة الإمام المهدى » – « التقى المهدى بشخص يسمى « عبد النبى » فغير اسمه إلى « عبد البارى » . . . وهى فكرة سلفية أخذ بها الوهابيون »[٣٢]

وقد نص محمد بن عبد الوهاب فى « كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد » على تحريم التسمية بالعبودية لغير الله ، وتحريم كل اسم معبد لغير الله ، لأن هذا من الشرك وإن جاء فى تسمية لم تقصد حقيقتها[٣٣] . . .

وقد سئل المهدى عن حكم الدين فى التمائم التى تستعمل للاستعاذة من السقم ، والعين ونحوه فقال :

هذا ليس مذهبنا ، وإنما مذهبنا التوكل على الله ، حيث إنه النافع والضار ، وناصية كل شىء بيده ، بل لا يخرج عن قدرته فلتة خاطر ولا لفتة ناظر ، فينبغى لمن كان تابعاً لنا أن يسلك طريقنا ، ويتوكل على الله وحده ، ولا يلتفت إلى غير

---

(٣٠) انظر فى هذا الموضوع .

– كتاب الفتاوى للمرحوم الشيخ محمود شلتوت ص ٢٧٧ ط إدارة الثقافة بالأزهر ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ .

(٣١) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة – تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥٠ .

(٣٢) سعادة المستهدى – إسماعيل الكردفانى – ص ١٩١ .

(٣٣) كتاب التوحيد – تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٩٩ وما بعدها .

لا وجود له[34].

وفى ذلك يقول محمد بن عبد الوهاب[35]:

فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى - رضى الله عنه - أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره : فأرسل رسولاً ألاّ يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر ، أو قلادة إلا قطعت ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى ، والتمائم والتولة شرك » وعن عبد الله بن حكيم مرفوعا . . « من تعلق بشىء وكل إليه . . » .

والتمائم : شىء يعلق على الأولاد من العين ، والرقى : وهى التى تسمى العزائم ، والتولة شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها .

كان المهدى إذاً سلفى العقيدة كما تدل هذه النصوص التى اخترناها من وثائقه ومنشوراته ، والعقيدة هى الجانب النظرى - فى الإسلام - الذى يؤمن به إيماناً لا يرقى إليه شك ولا شبهة ، وقد سلك المهدى فى تقرير هذه العقيدة مسلك « السلفيين » وزعيمهم ابن تيمية . . . لكن - ماذا كان عن الجانب العملى - فى الإسلام - وهو الشريعة ؟ ماذا كان موقف المهدى من المذاهب والمدارس الفقهية المختلفة ؟

نفس الشىء يقال فى هذه القضية ، فإذا كانت العقيدة ينبغى أن تؤخذ من الكتاب والسنة . فكذلك ينبغى أن تؤخذ الأحكام وترد إلى أصولها فى الكتاب والسنة ، وإغلاق باب الاجتهاد كان نكبة على الدين والأمة . . لقد كان ابن تيمية حنبليًّا لكن ذلك لم يمنعه من الاجتهاد ولو خالف الحنابلة ولم يعبأ إلا بما ورد فى الكتاب والسنة[36] . وكان السنوسى مالكيًّا لكن خالف المذهب باجتهادات

(٣٤) المنشور الصادر فى رجب ١٣٠١هـ

(٣٥) كتاب التوحيد ص ٢٧ ومابعدها

(٣٦) زعماء الإصلاح ص ١٣

خاصة[٣٧] ، وكانت له آراؤه وأفكاره الخاصة .

• ثم إن التعصب للمذاهب ، والقول بانسداد باب الاجتهاد ، أديا فى النهاية إلى تفرق الكلمة ، ووقوع مآمن وانشقاقات لا تزال آثارها الخطيرة ماثلة وباقية ، وصارت الشريعة هى أقوال الفقهاء . وأقوال الفقهاء هى الشريعة ، واعتبر كل من يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعاً[٣٨] بل أقام الناس الأئمة مقام الأنبياء ، بل إن من أتباعهم من قدمهم عليهم عند تعارض أقوالهم مع الحديث الصحيح ، وذهب بعضهم إلى القول : بأن كل حديث أو آية يخالف قول أصحاب المذهب فهو مؤول أو منسوخ[٣٩] . وقد وقع من الفتن بسبب المذاهب ما إسود به وجه التاريخ ، فقد سمع بعض الحنفية من الأفغانيين رجلا يقرأ الفاتحة وهو يجانبه فى الصف وراء الإمام فضربه بيده ضربة وقع بها على ظهره فكاد يموت ! وكسر بعضهم سبابة مصلٍ لرفعه إياها فى التشهد[٤٠] !

صور بغيضة من هذا التعصب :

وقد سئل بعض المتعصبين من الشافعية عن حكم الطعام الذى وقعت عليه قطرة من النبيذ فقال : يرمى لكلب أو لحنفى . . ! وسئل حنفى : هل يجوز للحنفى

---

(٣٧) السنوسية دين ودولة ص ٤٤ .

– الإسلام فى القرن العشرين ص ١١١ .

(٣٨) فقه السنة – الشيخ السيد سابق – ج ١ ص ٢١ ط ١٣٨٨هـ

(٣٩) المصدر السابق ص ٢١ .

(٤٠) انظر فى هذا الموضوع :

الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية – تأليف السيد رشيد رضا – ص ٤١ الطبعة الثالثة – ١٣٦٧هـ .

مالا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين – تأليف الشيخ عبد الجليل عيسى – ص ٩٢ ط دار البيان – ١٣٨٩هـ .

هذه الصور المتطرفة الجاهلة لأبسط مبادئ الإسلام فى التسامح والأخوة عانى منها المسلمون فترة من الزمن ولاتزال آثارها باقية فى بعض المجتمعات التى لاتدرك حقيقة الإسلام .

أن يتزوج شافعية ؟ فقال : يجوز للحنفى أن يتزوج الشافعية - لا على أنها مؤمنة - بل بقياسها على الكتابية اليهودية أو النصرانية[٤١].

وقد كتب فى صك وقف إحدى المدارس فى دمشق : ان هذه المدرسة لا يجوز أن يدخلها : يهودى أو نصرانى أو حنبلى[٤٢] !

وقد أفاض العلماء فى بيان فساد هذه الطريقة ومجافاتها للصواب ونأيها عن الحق فالرسول الكريم ﷺ يقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية » ، وليس منا من مات على عصبية ، وفى ذلك يقول الإمام الشيخ العز بن عبد السلام : ومن العجب العجاب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ويترك من شهد له الكتاب والسنة[٤٣] .

لقد كان الأئمة الأولون يقولون : هذا مذهبى وما وصل إليه جهدى وعلمى ، ولست أبيح لأحد تقليدى واتباعى دون أن يعلم ما قلت ، ومن أين قلت ما قلت . فإن الدليل إذا صح واستقام فهو عمدتى ، والحديث إذا صح فهو مذهبى[٤٤].

ومن كلام الشيخ محمد عبده فى أسباب هذا الخلاف أن ذلك يرجع إلى . . . تعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى ينتسبون إليها وبجاهها يعيشون ويكرمون ، وإلى تأييد الأمراء والسلاطين لهم استعانة بهم على إخضاع العامة ، لأن هذا الموضوع عون لهم على الاستبداد ، وأشد تمكيناً لهم لما يحبون من الفساد ، ولأن اجتماع كلمة الأمة على الحق ملزم للحاكم باتباعه[٤٥].

---

(٤١) مالايجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص ٩١ .

(٤٢) موجز تجديد الدين وإحياته للعلامة المودودى - ص ٨٦

(٤٣) دعوة التقريب - الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم - ص ٣١٠ ط القاهرة ١٣٨٦هـ.

(٤٤) المصدر السابق - الشيخ محمود شلتوت ص ٩ .

(٤٥) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٥٤ .

وإن فتنة التتار التى كانت من أخطر ما رزئ به الإسلام ، إنما كانت بسبب التعصب بين الشيعة والسنة ، وبين الشافعية والحنفية . . ثم إن ما ترتب على التفرق والتعصب من الضرر والفساد المدون فى التاريخ ، والذى أفضى فى هذه الأزمنة إلى ضعف المسلمين ، وذهاب ملكهم ، وتمكين الأجانب من غزوهم والاستيلاء على بلادهم ، كل ذلك مما يؤكد وجوب تلافى شرور هذا التفرق وجمع الكلمة ، والسعى لوحدة الأمة (٤٦) وإن العصبية الجامحة – سواء عصبية العروق أو عصبية المذاهب – فوق أنها هاضت أمة القرآن ، فإنها هى التى أغرت بالخلافة أعداء الإسلام وأمكنتهم منها ، فأثقلوا عليها بالدسائس وبالفتن والحروب ، حتى سقطت صريعة فى سنة ١٩٢٤ م ، ولفظت آخر أنفاسها بين يدى عدو متربص ، وولى مستغفل ، وإذا كان العدو المتربص ، وولى مستغفل ، وإذا كان العدو المتربص قد ظفر من سقوط الخلافة بحلاوة الشماتة ، فإن الولى قد استعقب من ذلك مرارة الندامة (٤٧) ، ولا منجاة من كل هذه المآسى إلا بالعودة إلى القرآن وصحيح السنة ، وقد انتهى السنوسى إلى أن « . . . الحواجز والعقبات التى منعت تقدم الإسلام ، وعطلت اتحاده ، إنما كانت بسبب اختلاف المذاهب وكثرة الطرق « الصوفية » ، والنظام الفردى كالنظام الذى كان قائماً فى مصر على عهده » (٤٨) . . والحق أن السيد (أى السنوسى) أقام بمكة مدة يشتغل بنشر العلوم وتحصيلها . واجتهد فى دراسة المذاهب الإسلامية حتى يتسنى له إقناع العالم الإسلامى باتخاذ مذهب واحد بعينه على الاتجاه نحو هدف واحد هو الاتحاد الإسلامى ، على أن يكون أساس هذا المذهب الاعتماد على الكتاب والسنة (٤٩) .

---

(٤٦) الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية ص ١٣٧ .

(٤٧) مع القرآن – تأليف الشيخ أحمد حسن الباقورى ص ٤٥ – ط مكتبة الآداب القاهرة ١٩٧٠

(٤٨) السنوسية دين ودولة – دكتور محمد فؤاد شكرى – ص ١٩ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٤٣ .

وكان من رأى جمال الدين الأفغانى ، أن الشجرة (يقصد الإسلام) إذا كثرت أوراقها وتشعبت فروعها قل ثمرها ، وتضاءلت غلتها فالبستانى الحاذق يعمد إليها فيبتر ويشذب ، ويقلم ويهذب ويبقى على بعض أصولها فيشرب الغذاء إلى هذه الأصول وحدها ، وبذلك يعود إلى الشجرة طاقة إثمارها ، وإيتاء أكلها وهكذا القرآن يجب أن تنصرف همم المصلحين إلى فهمه وحده ، وفهم حياة النبى التى تفسره[٥٠] .

لهذا كله لم يكن بدعاً ولا عجباً أن يعلن الخليفة عبد الله التعايشى - باسم المهدى - إلغاء المذاهب ، والطرق الصوفية حتى لا يبقى إلا الدين الخالص .

يقول التعايشى « . . ومعلوم أنه (أى المهدى) على نور من ربه وتأييد من رسول الله - ﷺ - وموعود أن يرفع المذاهب ، ويطهر الأرض من الخلاف ، ويعمل بالسنة حتى لا يبقى إلا الدين الخالص ، بحيث لو كان رسول الله ﷺ موجوداً لأقره على جميع أفعاله ، وقد علمنا من جوابكم إلى حضرة الإمام بأن الإخوان أمروكم بترك الطريقة التيجانية ، وأخبروكم بأن الإمام نفسه أمركم بذلك فما أصغيتم لقولهم ، وتوقفتم عند تركها . فاتركوا التوقف وما أنتم عليه من التمسك بتلك الطريقة واعملوا بالسنة النبوية ، وعضوا عليها بالنواجذ »[٥١] .

وفى منشور « حياة الدين الكبرى » الصادر فى ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ يقول المهدى لأنصاره :

والذى ينقذكم من الهلاك ، ويورثكم عظيم المكانة عند الله ، هو أن تتركوا معارفكم السابقة ، وتصغوا لدلالتى بأذن واعية حيث وجب عليكم ذلك ولزمكم الانقياد لى والخروج عما عندكم[٥٢] ، كما أنه لا سعادة للعبد إلا فى الدين الخالص

---

(٥٠) جمال الدين الأفغانى - تأليف الشيخ عبد القادر المغربى - ص ٦٢ .

(٥١) المنشور الصادر فى أوسط ١٣٠١هـ .

(٥٢) المنشور الصادر فى ٢٠ من جمادى الآخرة ١٣٠١ هـ .

الموافق للكتاب والسنة ، وإذا لم يكن العمل على ذلك فهو مردود لأنه لا أمان إلا في الكتاب والسنة[٥٣] .

لقد كانت صيحة المصلحين في القرن الثالث عشر الهجرى ، والقرن التاسع عشر الميلادى هي السلفية ، أى العودة إلى الكتاب والسنة ، فعل ذلك محمد بن عبد الوهاب ، وتبعه في ذلك تلميذه السنوسى ، واقتفى أثرهما في ذلك محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، ونهج المنهج نفسه عثمان دنفديو والإمام الشهيد السيد أحمد البريلوى ، وكثيرون غيرهم في أقطار العالم الإسلامى .

كانت السلفية والعودة إلى الكتاب والسنة هي صيحة العصر ، ولم يكن للمهدى بعيداً عن هذه الدعوات التي رفعت أعلامها في الحجاز وليبيا ومصر ، فاقتفى أثر هؤلاء المصلحين بطريقة توافق مزاجه وتفكيره ، وقد كان مزاجه ثوريًّا ، وتفكيره حربيًّا ، كان أشبه مزاجاً بمحمد بن عبد الوهاب والأفغانى ، فالحق أحق أن يتبع ، ومهادنة الباطل جريمة في حق الدين والمجتمع .

وفي منشور « الحدود » الذى أصدره قبل شهر رجب سنة ١٣٠١ هـ تتضح أبعاد هذه الروح الثورية . بإصدار أحكام شديدة القسوة وهي أحكام يرجع بعضها إلى أصول « وهابية » و « سنوسية » وانفرد المهدى في بعضها باجتهادات خاصة .

يقول المهدى :

جاهدوا في سبيل الله ، واعلموا أن سيفاً سل في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة ، وعلى النساء الجهاد في سبيل الله ، فمن صارت قاعدة ، وانقطع عنها إرب الرجال تجاهد بيديها ورجليها ، وأما الشابات فيجاهدن نفوسهن ويسكن في بيوتهن ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخرجن لغير حاجة شرعية ، ولا يتكلمن بكلام جهراً ، ولا يُسمعن الرجال أصواتهن إلا من وراء حجاب ، ويقمن الصلاة ويُطِعن أزواجهن ، ويسترن بثيابهن ، فمن وقفت كاشفة رأسها ولو لحظة

(٥٣) منشورات الإمام المهدى ١٠ ص ٧ وما بعدها .

عين ، فتؤدب بالضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين سوطاً .

ومن تكلم بفاحشة فعليه ثمانون سوطاً ، ومن قال لأخيه المؤمن يا كلب أو يا خنزير أو يا يهودي أو يا ديوث أو يا فاجر أو يا سارق أو يا زانى أو يا خائن أو يا ملعون أو يا كافر أو يا نصرانى أو يا لوطى ، فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام .

ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقد عليها ولا لأمر شرعى ، يضرب سبعة وعشرين سوطاً .

ومن شرب الدخان يؤدب بثمانين سوطاً ، ويحرق التنباك إن كان عنده وكذلك من خزنه بفمه ، ومن عمله بأنفه ، ومن باعه أو اشتراه وإن لم يستعمله يضرب سبعة وعشرين سوطاً . .

ومن شرب الخمر ولو مصة إبرة ، يضرب ثمانين سوطاً ، ويحبس سبعة أيام وجاره إن لم يقدر عليه يكلم أمير البلد ، وإن لم يكلمه يضرب ثمانين سوطاً . . !

ومن ساعد شارب الخمر ، ولو بجرعة ماء ، أو إناء فيؤدب كذلك ويحبس سبعة أيام !

ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاص لله ورسوله ، وقيل كافر ، وقيل يقتل ، وجاره إن لم يقدر عليه يكلم أمير البلد ، فإن لم يكلمه يضرب ثمانين سوطاً ، ويحبس سبعة أيام . وقيل أمواله غنيمة .

وبنت الخمس سنوات إن لم يسترها أهلها يضربون من غير حبس ، ومن علم بأن أمته معها رجل بغير عقد وصبر على ذلك يوماً ولم يتكلم . . قيل يقتل وقيل يحبس ، وقيل أمواله غنيمة .

إن المهدى فى اجتهاده هنا أشبه بالمحارب الذى لبس لأمة القتال وآلة الحرب وهو أقرب ما يكون فى أسلوبه هذا بـ « محمد بن عبد الوهاب » وطريقته فى القضاء

على البدع والخرافات ومظاهر الشرك . . .

• • •

فى يوم ٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ أصدر المهدى أمره بالاستيلاء على الطواحين والدكاكين القائمة على النيل فى مدينة الخرطوم وضمها إلى بيت المال ، وفى ٢٢ من شعبان من السنة نفسها أمر بالاستيلاء على المشارع – وهى مرافئ السفن النيلية – وكانت هذه المشارع تؤجر للناس مقابل مبلغ سنوى يدفع إلى بيت المال ، هذا الاستيلاء – أو التأميم بلغة العصر الحديث – ظاهرة جديده تستحق النظر والالتفات ، فمن أين جاء المهدى بهذه الأفكار التى سبق بها ماركس وإنجلز وغيرهما من أصحاب البدع والصرخات . . . ؟ ! ليس فى الأمر غرابة كما نعتقد ، ولن نحاول تعليل هذا التصرف بغير الحقيقة والواقع ، أو نفلسف عمله هذا كما يفعل الكثيرون فى عالم الإسلام الضائع .

فقد كانت الحركة السنوسية مصدر إلهامه فى هذه القضية ، وإن كان المهدى قد طبقها بطريقة ثورية . . « فالزوايا السنوسية لم تكن صوامع أو أديرة للنساك ، بل كانت مركز نشاط اجتماعى ودينى كبير ، فالطريقة السنوسية ، كانت تحرم على أتباعها التسول . وتأمرهم بالكد والسعى من أجل لقمة عيشهم على أساس الأخوة والتعاون فتطلب من الإخوان العمل فى الزرع والتعمير والإنشاء . ومن العادات المعروفة أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم . ودراسة[٥٤] يوم من أرض الزاوية ، فأينما حل السنوسية عمروا ، وزرعوا ، ثم بلغ عناية (الحركة السنوسية) بالعمران أنها حثت على شيوخ الزوايا أن يعرفوا معرفة طيبة أماكن الأسواق التجارية فى جهاتهم ثم حالة هذه الأسواق ، وأمرتهم بالتجارة على أن يخصص قسم من الأرباح للزوايا . . زد على هذا أن السنوسيين المقيمين بجوار الزوايا

---

(٥٤) الدراسة هنا ليس معناها تحصيل العلوم والمعلوم ، ولكنها تعنى فصل حبوب القمح عن السنابل وتنظيفها من القش .

كانوا يحضرون طعامهم إلى الزاوية يطعمون منه الإخوان الموجودين ثم عابرى السبيل الملتجئين إلى الزوايا . . (٥٥).

• • •

هذا المجتمع الإسلامى الرائع ، كان مصدر إلهام المهدى فيا اتخذه من إجراءات المصادرة لبعض المنافع ، ولكنه بدلا من تطبيقها بطريقة السنوسية الهادئة طبقه بطريقة ثورية الجماعة .

يقول المهدى فى تعليل ذلك :

« ولكون هذا الزمن ليس فيه أحد يبذل ماله لتجهيز (الغزوات)(٥٦) والسرايا . وكذلك كل من وجد ماله واستأثر به واستغله وسعى فى زيادته ، وبعض الناس مع كثرة الطمع يدخر ماله ويعد نفسه مسكيناً ، وذلك من شدة الشره ، وانسداد نور الإيمان ، ولما كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ويجهزون بها الغزوات والسرايا ، وما رأينا فى زماننا مثل هذا ، فكل من كان له مال استبد به لنفسه ، ولا يجهز به غزوة ولا سرية فلذلك استصوب عندنا مع المشورة أن تكتب إلى كافة المحبين أن يرفعوا أيديهم عن المشارع ، ولا يستخدموا الدنيا كما كانوا يستخدمونها سابقاً ، وأن يكون همهم العمل ، لما عند الله . وإعانة المجاهدين ، وإقامة الدين(٥٧) .

• • •

ومن المعروف عن الصوفية أنهم يبيحون السماع ، ولا يرون فيه غضاضة على الإطلاق ، وقد أفاض الإمام الغزالى ، فى شرح هذه القضية فى كتابه الإحياء(٥٨)

---

(٥٥) السنوسية دين ودولة ص ٤٨ وما بعدها

(٥٦) فى الأصل الغزاوى .

(٥٧) انظر فى هذا : المنشور الصادر فى ٢٢ من شعبان ١٣٠٢ هـ .

والمنشور الصادر فى ٩ من جمادى الآخرة ١٣٠٢ هـ من كتاب منشورات المهدية

(٥٨) إحياء علوم الدين - ج ٦ ص ١١٢٤ وما بعدها ط الشعب - القاهرة

حيث قال : اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه : أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل ، بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة فى النص أو القياس ، وأعنى بالنص ما أظهره ﷺ بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله . فإن لم يكن فيه نص ، ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ، وبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات .

ويقول ابن عربى فى الفتوحات[٥٩] :

وأما مذهبنا فيه . . فإن الرجل المتمكن من نفسه لا يستدعيه ، وإذا حضر لا يخرج بسببه ، وهو عندنا مباح على الإطلاق ، لأنه لم يثبت فى تحريمه شىء عن رسول الله - ﷺ - .

ولكن المهدى « السلفى » يرفض هذه الأقوال ، وقد كان خلافه مع شيخه محمد شريف بسبب ما رأى عنده من الرقص والغناء ، ثم قال لأصحابه وهو يهم بالانصراف : « إنه لا ينبغى لأحد وإن كان شيخ طريقة أن يبيح الرقص والغناء » ، . لأن هذا - كما يقرر ابن تيمية - اتباع للهوى الذى نهى عنه الله ، (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)[٦٠] . ولهذا يميل هؤلاء ويغرمون بسماع الشعر والأصوات التى تهيج المحبة المطلقة من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف الأمة ، والمخالف لما بعث الله به رسوله لا يكون متبعاً لدين شرعه الله أبداً[٦١] .

وقد جاء فى كتاب « مسائل الجاهلية » الذى وضع أصوله محمد بن عبد الوهاب وتوسع فى شرحه السيد محمود شكرى الألوسى علامة العراق : وقد جعل الشارع صوت الملاهى صوت الشيطان ، فما يفعله اليوم بعض

---

(٥٩) الفتوحات المكية ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٦٠) سورة القصص الآية ٥٠ .

(٦١) العبودية - تأليف شيخ الإسلام - ابن تيمية - ص ٧١ .

جهلة المسلمين فى المساجد من البكاء والتصدية فهو من قبيل فعل الجاهلية ، وما أحسن ما يقول القائل فيهم :

أقال الله صفق لى وغنّ .

وقل كفراً وسمّ الكفر ذكرا[62] .

فالمهدى – بالرغم من نشأته الصوفية – كان يحمل فى عقله بذور السلفية التى كانت تدق أبواب السودان من الشمال والشرق والغرب ، وهل يعقل أن يتمرد المريد على شيخه إن لم تكن هذه المنابع قد شقت لنفسها طريقاً صخرياً فى الشعور والعقل والقلب ، فلم يكن غريباً إذاً أن يوجه المهدى إلى أنصاره وأحبابه منشوراً يحرم فيه استعمال « المعازيف والدلاليك » وكل أدوات الطرب .

يقول المهدى :

« امتنعوا عن الملاهى ، فإن بذكر الله تطيب الدنيا لا بالملاهى والمعازيف والدلاليك »[63] . . . والنحاس لا يضرب إلا فى وقت الحاجة إليه فى استدعاء الجيش إلى الجهاد ولإسماع البعيد ليحضر ، وكل ما يؤدى إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه ، وكل الذى يكون من علاماتهم فاتركوه ، فإن هذه الأيام أيام التزود إلى لقاء الله . فلا تضيعوا ذلك فى لهو ، ولا فى سماع لهو[64] .

• • •

---

(٦٢) مسائل الجاهلية - تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١١٥ الطبعة الثانية ط المطبعة السلفية - ١٣٧٦هـ القاهرة

وانظر فى هذا الموضوع أيضاً : العقيدة الصحيحة بموافقة الشريعة - تأليف الشيخ أبو بكر محمود جومى - رئيس المحكمة الشرعية العليا - كادونا - نيجيريا ص ٤١ وقد نقل فى كتابه هذا آراء الشيخ عثمان دنفديو - تلميذ محمد بن عبد الوهاب فى السماع

(٦٣) المعازيف يقصد بها آلات العزف الموسيقية ، والدلاليك جمع دلوكة وهى الطبلة بلغة السودان .

(٦٤) المنشور الصادر فى ١٧ من ذى الحجة ١٣٠٠ هـ ص ٩٤١ ومابعدها .

يقول نعوم شقير فى تاريخه :

كان أساس تعاليمه – أى المهدى – أن يعيد الدِّين إلى ما كان عليه فى أول الإسلام ، وقد رفع المذاهب الأربعة ، وتفرد بمذهب اجتهادى خاص به ، ومنع الناس من زيارة قبب (أضرحة) الأولياء التى كانوا يزورونها قبل المهدية ، وأبطل الرتب والألقاب الرسمية . . . فمن أراد الآخرة صدقاً لا يتميز على الأقران فى الدنيا ، لأن الله يكره العبد المتميز عن أخيه المؤمن . . . (٦٥) . . . وحرم الاحتفال بالأعراس احتفالا يدعو إلى النفقة ، وخفض مهر الزواج ، وأبطل الرقص والغناء ، وأبطل السحر وكتابة الأحجبة ، وحرم شرب الدخان ومضغه وشرب الحشيش والخمر ، وأعاد الرجم للزانى والزانية ، وقطع يد السارق .

• • •

لقد نشأ المهدى صوفيًّا كما قلنا ، والتصوف عالم مستقل بمفاهيمه التى تعتمد على المواجيد والأحلام والرؤى ، والتصوف هو الذى جعل منه إماما ومهديًّا منتظراً ، لكنه كان – بالرغم من صوفيته – ثائراً متمرداً وقارئاً حرًّا ، فاستطاع بذكائه وحيويته رصد ما يدور من حوله فى أفق الإسلام شرقاً وغرباً ، وكان أفق الإسلام على عهده غائماً معتماً ، ومن حين إلى آخر يلمع بصيص من نور الإصلاح والأمل فينعكس على مشاعره وأحاسيسه ثورة وتألقاً . كان أشبه « بالرادار » الذى يرصد كل مايحوم فى الأفق ولم يكن يفرق فى رصده . . وتسجيله بين طيور الشمال المبشرة بقدوم السعد . وبين جوارح الطير الحاملة فى مخالبها الموت ! كان « كالكمبيوتر » يختزن كل مايصل إليه من علم ، وحين أذن مؤذن الجهاد فتح القائد الإمام خزائنه فأخرج منها الجواهر والحلى . والثمين ، والردىء . . !

• • •

(٦٥) المنشور الصادر فى جمادى الأولى ١٣٠١ هـ .

الفصل السابع

المهدى السودانى فى ميزان الإسلام

هل كان محمد أحمد مهديًّا ؟

وبعبارة أكثر وضوحاً .. هل كان محمد أحمد هو المهدى المنتظر الذى يعم عدله ورخاؤه جميع البشر ؟

ما أقسى الإجابة عن هذا السؤال . إن الحقيقة دائماً مُرة ، وهى أكثر مرارة حين تتعلق بشخص تحبه ، وأشهد أننى أحببت محمد أحمد ، وكان حبى له نتيجة إحساس عميق بالكراهية للطغيان والظلم .. ! كنت طالباً ناشئاً فى الأزهر الشريف ، وكان تاريخ مصر الحديثة يدرس لنا بطريقة توافق هوى الجالس على العرش ، وكان الجالس على عرش مصر آنئذ واحداً من سلالة أولئك الذين أذاقوا شعبنا الهوان والذل ، ونتيجة للكراهية المتبادلة بين الحكام والشعب ، كان كل مايكتب عن هذا الحكم ، أو يمجد فى رجال هذا الحكم يفهم دائماً على النقيض والضد !

لقد صوروا لنا محمد أحمد عاصياً ، واعتبره البعض خائناً ، لكن هذا الكلام المزور فى دواوين الحكم ، المنسق بأساليب الخداع والزيف . كان يفهم دائماً على العكس ، ويجعل من العاصى المتمرد بطلا فى أعين الشعب !

ونعود مرة ثانية إلى السؤال .

هل كان محمد أحمد هو المهدى المنتظر حقًّا ؟

إن المهدى المنتظر كما تصفه الأحاديث يملأ الأرض عدلا . بعد أن ملئت جوراً وظلماً .

ويولد من نسل فاطمة ، من ولد الحسن أو الحسين .

ويخرج وعلى رأسه ملك ينادى : إن هذا هو المهدى فاتبعوه ..

ويكون لمهديته آيتان لم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض . . يخسف القمر فى أول ليلة من رمضان ، وتكسف الشمس فى النصف منه .

مولده فى المدينة ، ومهاجرته بيت المقدس ، ويظهر فى مكة عند صلاة العشاء ، ومعه راية رسول الله وقميصه وسيفه ، ويبايع بين الركن والمقام .

وتفتح على يديه مدينة القسطنطينية ؟ وغيرها من المدن الكبرى .

كأن وجهه كوكب درى ، ويشبه فى خلقه ، واسمه رسول الله .

وتنعم به الأمة نعمة لم تنعم مثلها ويحثى المال بيديه حثياً .

ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يظهر ويلى[1] .

هل تحقق شيء من ذلك ؟ لنستمع أولا إلى مايقوله محمد أحمد :

« لقد ذكر فى حضرة من حضراته : أن الرسول ﷺ طلب من عزرائيل قائلا : من هذه الليلة اصحب المهدى لاتفارقه ، وهذه الليلة المذكورة — التى حصلت فيها هذه الحضرة — غرة شعبان ١٢٩٨هـ ليلة الأربعاء ثم تلى لنا — أى النبى — ﷺ — جميع الأحوال إلى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة القضاه

(١) انظر فى هذا الموضوع :

سنن ابن ماجة الحديث رقم ٤٠٨٢ ، ٤٠٨٣ ج٢

سنن الترمذى الحديث رقم ٢٢٣٢ ج ٤

سنن أبى داود الحديث رقم ٤٢٨٤ ، ٤٢٨٤ ج ٤

سنن الإمام أحمد الحديث رقم ٧٧٣ - ٦٤٥ ج ٢ .

الحاوى للفتاوى (رسالة العرف الوردى فى أخبار المهدى) ص ١٢٣ وما بعدها ج ٢

والفقراء أولا . ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه[2] » .

ويقول فى رسالته إلى الخديو : « وبشرنى سيد الوجود ﷺ بالنصر على من يعادينى ، وبأن من يقصدنى بعداوة يخذله الله فى الدارين وقلدنى سيف النصر ، وأخبرنى بأنى أملك جميع الأرض[3] .. وها أنا قادم إليك بجنود الله عن قريب ، ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة »[4] .

وقد ذكر فى رسالته إلى السنوسى : « ولايزال التأييد يزداد من الله ورسوله ، وأنت منا على بال . حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبى ﷺ أنك من الوزراء لى ، ثم لازلنا ننتظرك حتى أعلمنا الخضر عليه السلام بأحوالكم ، وبما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبى ﷺ خلفاء أصحابه من أصحابى ، فأجلس أحد أصحابى على كرسى أبى بكر وأحدهم على كرسى عمر ، وأوقف كرسى عثمان فقال : هذا الكرسى لابن السنوسى إلى أن يأتيكم بقرب أو طول ، وأجلس أحد أصحابى على كرسى على رضوان الله عليهم أجمعين[5] .

حسبنا هذا القدر من النصوص والاقتباس ، فسيد الأدلة - كما يقال - هو الإقرار والاعتراف .

وقد اعترف محمد أحمد بأنه سيملك العالم ، وأن ملك مكة وأشرافها سيبايعونه ، وأنه سيزحف إلى مصر لإزالة الخديو عن عرشه ، وأن النبى أخبره بأن السنوسى سيكون من وزرائه وخلفائه ، وخطورة الأمر فى هذه القضية أن محمد أحمد ينسب أعماله وأقواله إلى النبى . فهو لايفعل شيئاً إلا بأمره ، ولايصدر حكماً إلا بإذنه ، وقد كان أساس مهديته قائماً على هذه الصلة ، ولم تكن تنبؤاته إلا

---

(٢) منشورات المهدية ص ١٨ .

(٣) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٤ .

(٥) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٧١ .

إخباراً عما يقول إنه سمعه من الرسول أو بلغه ، فإذا ثبت بالدليل والواقع أن هذه التنبؤات لم تصدق ، وأن هذه التوقعات لم تتحقق ، أصبح الشك فى أساس «مهديته» قائماً . والأساس الذى قامت عليه هذه «المهدية» منهاراً .

إن المهدى كما تقول الأحاديث والروايات مولده فى المدينة ، وقد ولد محمد أحمد فى إقليم دنقلة !

والمهدى - وجهه كأنه كوكب درى .. وليس كذلك محمد أحمد

والمهدى يظهر بعد خسوف القمر فى أول ليلة من رمضان ، وبعد كسوف الشمس فى منتصفه ، وقد أعلن محمد أحمد دعوته فى شعبان[٦] ، وجاء رمضان بعد ذلك من غير كسوف شمس ولاخسوف قمر .

والمهدى مهاجرته بيت المقدس ، ويظهر فى مكة عند صلاة العشاء ومعه راية رسول الله وقميصه وسيفه ، ويبايع بين الركن والمقام ، يبايعه الغرباء ، ثم ملك مكة وأشرافها - كما يقول محمد أحمد نفسه - وقد مات رحمه الله قبل أن يرى مكة .

والمهدى يحثى المال بيديه حثياً ، وتنعم الأمة به نعمة لم تر مثلها أبداً . ولم يكن الأمر كذلك مع محمد أحمد .

والمهدى يصلحه الله فى ليلة - بعد أن لم يكن كذلك - ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول ذلك اليوم حتى يلى . وقد عرف عن محمد أحمد أنه نشأ صالحاً ، وعاش ورعاً ، وكان فى تقواه وزهده متشدداً .

والمهدى موعود بملك العالم ، وقد أكد ذلك - محمد أحمد - نقلا عن النبى . وقد مات وعاش داخل حدود وطنه .

والمهدى يفتح القسطنطينية وغيرها من المدن ، وقد توفى محمد أحمد قبل أن يحقق نبوءته بالزحف إلى القاهرة لخلع الخديو توفيق ، وإراحة مصر والمصريين من ظلمه .

---

(٦) لقد أعلن محمد أحمد دعوته فى غرة شعبان سنة ١٢٩٨هـ .

ومحمد أحمد يقول : إن النبي أخبره بأن السنوسي من وزرائه وخليفة عثمان بن عفان في مملكته. وقد مات محمد أحمد دون أن يتحقق شيء من هذا كله، ورفض السنوسي حتى الرد على رسائله[7].

• • •

وقد كان موت محمد أحمد المفاجئ، وقبل تحقيق ماوعد به من فتوح ومعارك باعثاً على الشك والريبة في أمره، وفي صحة دعوته ومهديته، وقد شعر بذلك أقرب أنصاره، وأخلص حوارييه وتلامذته، وكان أول صدى لهذه الخواطر الدفينة، والشكوك الكامنة، ذلك المنشور الذي صدر بتوقيع الخلفاء يعلنون فيه مبايعة عبد الله التعايشي خليفة عن مهدي الله ورسوله. «وكما أن النبي ﷺ، لما انتقل، قام بالأمر من بعده خلفاؤه الكرام وأصحابه فكذلك خليفته المهدي عليه السلام. فإن له به أسوة، فلذا يقوم بأمر الدين بعده خلفاؤه وأصحابه، حتى ينصر الله دينه ويفتح على أيديهم من المدائن مالم يفتحه الله في زمن المهدي عليه السلام»[8].

أما الشيخ إسماعيل الكردفاني[9] فقد كان أكثر وضوحاً في تعبيره حيث قال : ولايضيق بك العطن، ويكب بك جواد الفطن، فتكون في حيرة من فهم المراد من بشرى سيد الوجود للمهدي عليه السلام بأن الله يفتح له جميع البلاد. فتقول : قد مات المهدي عليه السلام وانتقل إلى دار الكرامة قبل فتح جميع البلاد :

---

(٧) انظر في هذا :
جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٠٧ ومابعدها.
السنوسية دين ودولة ص ٧٩ ومابعدها.
(٨) منشورات المهدية ص ٨٨ من المنشور الصادر في رمضان سنة ١٣٠٢هـ.
(٩) سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ص ١٨٥ ومابعدها.

فاعلم أنار الله بصيرتنا وبصيرتك ، وطهر من داء الأوهام والشكوك سريرتنا وسريرتك ، أن المهدى عليه السلام هو خليفة الله فى أرضه على خلقه ، وأمينه على رعاية حقه ، وقد علم أبناء البدو والحضر ، والقاطنون بالوبر والمدر . أن ألوية الإسلام لم تنشر على يد أحد – بعد النبيين – أوفر ديناً وأصدق يقيناً من سيدنا محمد المهدى ، وأن جميع مايصدر عنه قولا وفعلا مؤيد بالكتاب والسنة ، فليس قول من أقواله ، ولافعل من أفعاله ، إلا وله شاهد من حديث النبوة والرسالة ، وإشراق من مشكاة الأنوار المصطفوية التى أخجلت الغزالة .. !

هذا وقد نقل بعض الثقاة فى هذا الشأن كلام الخليفة الأكبر – خليفة المهدى – سيدنا عبد الله التعايشى .. !

فأحببت أن أذكره بلفظه وهو : من زعم أنه ليس بالمهدى المنتظر حيث لم يستكمل الفتوحات فقد أخطأ طريق الحق ، لأن خليفته الأكبر منبع العرفان والتحقيق ، ذكر فى بعض منشوراته مايرد ذلك حيث قال : وانتقال المهدى عليه السلام إلى الدار الآخرة قبل فتح مكة والقسطنطينية وغيرهما من الأمصار ، لايقدح فى كونه مهدى آخر الزمان . لأن النبى ﷺ أخبره الله فى حياته بفتح بعض البلاد كاليمن والشام وأضاف ذلك إلى نفسه الشريفة ، ثم لم يكن فتح ذلك على يده الشريفة . بل كان على يد خلفائه الكرام بعد انتقاله ﷺ ولم يقدح ذلك فى نبوته عليه الصلاة والسلام ، إذ لاغرو فى نسبة فعل خلفائه إليه ، وقد أخبر أنبياء الأمم السابقة أممهم ببعثة نبينا محمد ﷺ وذكروا لهم أنه يفتح الأمصار ، ومعلوم أنه لم يفتح فى زمنه إلا مكة وخيبر ، وكان بقية الفتح على يد خلفائه من بعده وعلى طريقته المثلى أتى خليفته المهدى . فجميع ما أضيف إليه من فتح البلاد ولم يحصل فى حياته ، فلابد من حصوله على يد خلفائه وأصحابه(١٠)

• • •

(١٠) المصدر السابق ص ١٨٧ .

غير أن هذه الأحلام والتمنيات لم تتحقق ، وأدى الخلاف على ميراث الزعيم إلى الفرقة والتمزق ، وانفرد التعايشي بالسلطة ليصبح الحاكم المطلق .

ولكن الإنجليز لم يتركوه يهنأ طويلا بهذا المجد ، فقد عادوا على رأس قوة مشتركة (إنجليزية ومصرية) لاحتلال السودان ، وانتهى الأمر بمقتل التعايشي بعد تخريب بيته في أم درمان .. ! !

لقد ضاع السودان نفسه ، وكانت جريمة بريطانيا بنبش قبر محمد أحمد وسرقة رأسه[11] !

ثم إنه ليس ضرورياً أن يعلن الرجل المختار لهذه المهمة عن نفسه .. الأنبياء والرسل هم الذين يعلنون عن دعوتهم ، لأن من طبيعة «النبوة» الإعلان والإنذار ، حتى لاتكون للناس على الله حجة ، وطبيعة «المهدية» تختلف عن طبيعة النبوة ، فالمهدية تجديد وإحياء وحركة ، وقد لايعرف المرشح لهذه المهدية أنه المهدى نفسه .

إن العالم سيشاهد رجلا تمثلت فيه صفات الكمال الخلق ، وزعيماً تجسدت فيه آمال البعث والإصلاح الديني ، وقائداً تميز بصفات نادرة قلما تجتمع في شخص عادى ، وعلى ضوء مايقوم به هذا الإمام الجليل من عمل ويقدر مايحققه للإسلام من عزة ، وبالمقارنة بين عصره وبين ما كان قبله من فساد وطغيان وظلم ، وما تحقق على يديه وفي عصره من إصلاح وصلاح وعدل ، يعرف الناس أنه الرجل المنتظر ، والمهدى الذى يعم عدله جميع البشر[12] .

ومن الواضح أن هذا الرأى لايتعارض مع المفهوم «السنى» لشخصية «المهدى» فالمهدى عند أهل السنة ليس شخصاً معيناً ولا معروفاً وقد كان محمد أحمد أو «المهدى السودانى» سنيًّا مالكيًّا ، وحتى لو تجاوزنا حدود هذه الدائرة

---

(١١) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٢٨٩ .

(١٢) انظر فى هذا المعنى كتاب «موجز تجديد الدين وإحيائه» للعلامة المودودى ص ٦١ و ٦٢ .

المقيدة بالتصور السني لشخصية المهدى ، إلى الدائرة الأخرى المقيدة بالتصور «الشيعى» فلن يفيد ذلك شيئاً بالنسبة لمهديّة محمد أحمد ، لأن المهدى المنتظر عند الشيعة معروف اسماً ، ومعروف شخصاً وينتظرون فرجه قريباً وهو بالتأكيد شخص آخر غير محمد أحمد[١٣] .

• • •

محمد أحمد إذاً لم يكن هو «المهدى المنتظر» الذى تحدثت عنه الكتب والروايات والأساطير ، وإذا لم يكن هو المهدى المنتظر فما الذى جعله مصرًّا على موقفه هذا . حتى الرمق الأخير؟

فى نظرنا أن هذا الموقف يرجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية لعبت دورها فى مهدية محمد أحمد :

هذه العوامل منها ماهو شخصى خاص ، ومنها ماهو فكرى عام ، أما الجانب الفكرى العام ، فيتمثل فى فساد الأوضاع الداخلية التى كان يعانى منها السودان على النحو الذى ذكرناه فى الفصل الخاص بالثورة والجهاد .

وقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد أرواحاً مهدرة ، وحريات مغتصبة وأملاكاً منهوبة ، وبلاداً مخربة ، والناس بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم إلى الشهوات والغواية ، وبين فقراء طحنتهم الفاقة ففقدوا زمام التجمل بالصبر وانجرفوا — على قلة ذات اليد — إلى الفساد والهاوية ، ثم إن حكومة القاهرة أرسلت إليهم أمثال بيكر ، وغوردون ، وهؤلاء نصارى لايدينون بدينهم ، وكان أسلوبهم فى الحكم موسوماً بالتحدى لشعائر الإسلام وفرائضه ، حتى تصور الناس أن الحكومة تريد بهم شرًّا وبدينهم ، وكان من عادة محمد أحمد أن يخرج سائحاً مع بعض أصحابه لإنذار الناس ودعوتهم «وقد جال فى جميع البلاد ورأى بعينه وجد الناس —

---

(١٣) المهدى المنتظر عند الشيعة الإمامية الاثنا عشرية هو محمد بن الحسن العسكرى المختفى فى سرداب إلى أن يحين وقت ظهوره .

خاصتهم وعامتهم – على الحكومة ، وشدة رغبتهم فى التخلص منها حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور للمهدى الموعود لإنقاذهم من الحال التى كانوا عليها ، وكلما رأوا رجلا يفضلهم دراية وعقلا متصفاً بالغيرة على الدين ظنوه المهدى المنتظر »[١٤] .

لقد ترك هذا كله أثراً فى نفس « محمد أحمد » فانصرف إلى التأمل والدراسة ، واتجه إلى الاعتكاف والخلوة . ولقد تاقت نفسه أن يكون هو هذا الرجل الذى ينتظره الناس ، وبات يحلم بهذا المنصب الذى يحكم بين البشر بالعدل والقسطاس ، لقد لعبت العوامل النفسية والشخصية دورها فى نفس محمد أحمد واضطرمت فى قلبه جذوة الشوق والوجد ، إنه صوفى عريق فى التصوف والصوفية يعتمدون على الذوق والإلهام والكشف ، وفى عالم الصوفية مجال فسيح للترقى والسمو ، ولشيخه « محيى الدين بن عربى » فى ذلك كلام جميل وحلو[١٥] !

« فإذا خلا العبد إلى نفسه ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه فهناك تنفتح عين القلب ، ويصبح الإنسان قادراً على أن يبصر فى اليقظة مايبصره فى النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا ، والمناظر الجميلة الجليلة ، التى لا يمكن شرحها ولا وصفها وينكشف له ملكوت السموات والأرض إذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم . راجع إلى أنه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعلم المادى والإقبال على مافيه من لذات حسية ، لاتلبث أن تعرض له حتى تزول »[١٦] .

---

(١٤) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٤٣ .

(١٥) يقول ابن عربى : والولى يشترك مع النبى فى إدراك مايدركه العامة – فى حالة النوم – فى حالة اليقظة . وقد أثبت هذا المقام للأولياء من أهل طريقتنا وهو الفعل بالهمة والعلم من غير معلم من المخلوقين غير الله وهو علم الخضر . « الفتوحات المكية » ج ١ ص ١٥١ .

(١٦) كيمياء السعادة – الإمام الغزالى – ط القاهرة ١٣٤٣هـ ط ١٨ ومابعدها .

لقد أصبح «محمد أحمد» نجماً فى الفلك الصوفى ، ومن خلال تحليقه ودورانه فى هذا الفلك بدأ يشاهد من أنواره مايشاهد .. إنه يرى الرسول ويكلمه ويلتقى به ويحدثه ، واجتماعه بالأقطاب والأولياء صار شيئاً عاديًّا ، والتقاؤه بالخضر عليه السلام يكاد يكون يوميًّا ..

إنها أنوار باهرة من غيرشك ، ومن شدة هذه الأنوار يفقد الإنسان توازنه فى غمرة هذا الفيض ، وينتهى المرء إلى حال من الهيام والسكر والجذب ..

ألم يقل أبو يزيد البسطامى : سبحانى ما أعظم شأنى .. لا إله إلا أنا فاعبدون[17] ؟ !! .. والحلاج .. ؟ ألم يقل هو الآخر : أنا الحق[18] .

ذلك من شأن الصوفية الذى لايخضع لمنطق العقل ، ولا يلتزم بظاهر النص ، ومادام الأمر لايخضع لمنطق العقل ، ولايلتزم بظاهر النص ، فمناقشته حينئذ مضيعة للجهد والوقت .

ولكن الذى لانسلم به لأصحاب المكاشفة ، والوجد ، أن ينسحب مايرونه ويشاهدونه على الناس فى كل عصر ، وأن يصبح ذلك تشريعاً يفرض بالقوة والفعل أو يخرج مكاشف ليقول : أنا المهدى أو الإمام المنتظر لخلاص الناس . فى هذا العصر.. وقد ذكر الشيخ محمد عبده[19] : أن إلهام المتصوف «ذوق» وجدانى ، لايجوز له أن يدين به غيره ، وأن للصوفية أذواقاً خاصة وعلماً وجدانياً . ولكنه خاص بمن يحصل له ، ولايصح أن ينقله لغيره بالعبارة فإن هذا الذوق يحصل للإنسان فى حالة غير طبيعية ، وكونه خروجاً عن الحالة الطبيعية فلا يجوز أن يخاطب به المقيد بالنواميس الطبيعية .

• • •

---

(١٧) الحياة الروحية فى الإسلام - دكتور محمد مصطفى حلمى - ص ١٠٣

(١٨) المصدر السابق ص ١١٢ .

(١٩) محمد عبده - تأليف - عباس العقاد ص ٢٣٩ .

وقد ذكر العلامة الشيخ محمد حبيب الله بعد ذكره لأقوال العلماء فى جواز رؤية النبى ﷺ مناماً ويقظة فقال[٢٠] :

إذا علمت ماقررناه من إمكان رؤيته ﷺ فى اليقظة كرامة لبعض خواص أكابر الأولياء ، فاعلم أن فائدة ذلك إنما تعود غالباً على الرائى فقط ، ولايجوز أن يثبت بها حكم شرعى كائناً ماكان ندباً أو غيره من سائر الأحكام الشرعية ، كما تعطيه قواعد الشرع المعلومة ، وكما صرح به الأئمة كالحافظ بن حجر وغيره . فقد قال فى «فتح البارى»[٢١] بعد بحث طويل عند قوله عليه الصلاة والسلام : «ولايتمثل الشيطان بى» مانص المراد منه ، ومع ذلك فقد صرح الأئمة بأن الأحكام الشرعية لاتثبت بذلك .

وقال ابن السمعانى : وإنكار الإلهام مردود ، ولكن التمييز بين الحق والباطل فى ذلك أن كل مااستقام على الشريعة المحمدية ، ولم يكن فى الكتاب والسنة مايرده فهو مقبول ، وإلا فهو مردود ، إذا قد يقع من حديث النفس ووسوسة الشيطان ، ثم قال : ونحن لاننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه يزداد به نظره ، ويقوى به رأيه ، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لايعرف أصله ، ولانزعم أنه حجة شرعية ، وإنما هو نور يختص الله به من يشاء ، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة .

وقد قال الأبى[٢٢] فى شرح - صحيح مسلم - عند حديث : «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لايتمثل بى» - قال مانصه : واختلف قول الفقهاء لو قال (أى النبى) لرائيه : امرأتك طالق ثلاثاً هل يلزمه الطلاق ثلاثاً ، أو لايلزمه شىء ؟

---

(٢٠) زاد المسلم فيا اتفق عليه البخارى ومسلم - ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢١) الجزء الثالث ط الحلبى القاهرة

(٢٢) المصدر السابق ص ١٨٨

قال القرافى – وهو أى عدم الطلاق – هو الأظهر ، لأن إخباره فى اليقظة مقدم على إخباره فى النوم ، لأن احتمال الغلط فى ضبط المثال فى النوم أرجح من الغلط فى ضبط عدم الطلاق ، كما ينطبق ذلك أيضاً على رائيه فى اليقظة بطريق خرق العادة ، فما أخبر به الرسول فى حياته الدنيوية مقدم على أى إخبار آخر إذ لاتشريع بعد ذلك(٣٣) ..

• • •

فليتصور الصوفى ماشاء له التصور ، وليرمن الكرامات والخوارق ماشاء الله أن يرى ويفعل... إنها مسائل خاصة لاتتجاوز شخصه ، ولا يجوز بحال أن تصبح قاعدة ملزمة لغيره.

وإلا .. لو سلمنا بكل مايقوله الصوفى فى أحواله الخاصة واعتبرنا مايقوله ويشاهده قاعدة عامة ، لاختل ميزان الثقة فى كثير من الأمور الشرعية ، واضطرب حبل الدين فى كثير من القضايا المسلمة ، وأصبح لكل «واصل» و «عارف» مذهب وطريقة خاصة ، وانتهى الأمر بالإسلام والمسلمين إلى كارثة !

• • •

لقد كان «محمد أحمد» رجلا من هذا النوع الشديد الحساسية ، كانت فيه شفافية ورقة ، وكان أكثر إحساساً بآلام وطنه وشعبه ، وهذا النوع من الناس يمكن التأثير عليه بسهولة ، واستغلال جوانب الخير والصلاح فى نفسه ، وإقناعه بأى عمل يعتقد فيه الصلاح والخير لأمته ، وقد استغل فيه هذه الناحية رجل كان على النقيض منه فى ذلك كله ، كان هذا الرجل هو «عبد الله التعايشى» ، وكان التعايشى هذا مغرماً بالأمجاد والبطولة ، تواقاً إلى النفوذ والسلطة . وقد بذل والده عناية خاصة فى تعليم أبنائه ، ولكنه وجد عناء أكبر مع عبد الله ، فعبد الله اشتهر بانصرافه عن علوم الدين وحفظ القرآن ، ولكنه كان يتشوق دائماً إلى أخبار

---

(٣٣) المصدر السابق ص ١٨٩

الغزوات والبطولات ، واشتهر منذ أيامه الأولى بالشجاعة والبأس ، وانضم «للزريقات»[٢٤] فى حربهم مع الزبير رحمة باشا[٢٥] ووقع أسيراً فى يد الزبير الذى أمر بقتله ، لولا أن تشفع له الفقهاء ورجال الدين ، ولكن روحه المتعطشة للمجد رأت فى – الزبير رحمة باشا – وقت أن كان فى أوج قوته وشهرته ، أنه المهدى المنتظر .

فأرسل إليه مبشراً أنه حلم حلماً رأى فيه : أن الزبير هو المهدى المنتظر ، وأنه (أى عبد الله) سيكون وزيره .. !

فرد عليه الزبير زاجراً ، وأمره بعدم تكرار هذا الحديث معه[٢٦] .

وقد كان والد عبد الله التعايشى ممن يشتغلون بالتنجيم والسحر وكان «التعايشة» إذا أرادوا غزو جماعة أخرى استشاروه قبل القيام بهذا الغزو ، فلم تقدمت به السن ، عهد بحرفته تلك إلى ولده عبد الله ، فاشتغل بهذه الحرفة فترة من الزمن ، ولكن طموحه لم يكن ليتوقف عند «ضرب الرمل» وقراءة «الطالع» وكتابة التعاويذ والتمائم .. !

إن فى الرجل ذكاء وقوة شخصية ، لقد سئم هذه الحرفة وهاجر بحثاً عن المجد كانت أحاديث المهدية تملأ الجو ، وكان توقع ظهور المهدى حديثاً على كل لسان[٢٧] ، فذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية . وقال له : أنت المهدى المنتظر ، لقد كرر ما فعله مع «الزبير» لأن الرجل يبحث عن أى مهدى أنه يستعجل ظهوره ليصبح هو مستشاره ووزيره .. !

---

(٢٤) إحدى قبائل السودان .

(٢٥) كان الزبير باشا من حكام الأقاليم فى السودان ، وقد اشتهر بالشجاعة والبطولة ، وانتصر فى عدة معارك . كما كان ذا عقل وكياسة ومروءة .

(٢٦) كررى – ٩١ .

(٢٧) الحركة الفكرية فى المهدية ص ٦ وص ٧ .

وقد رفض الشيخ محمد شريف هذه اللعبة ، ثم قال له قبل أن يغادر بيته : إذا كنت تبحث عمن يقول بذلك : فعليك بتلميذى السابق محمد أحمد .

كان محمد أحمد فى ذلك الوقت يقيم قبة على قبر شيخه القرشى ، وكان الشيخ القرشى – كما ذكرنا سابقاً – قد أعلن بأن من يختن أولاده ويبنى قبة على ضريحه سيكون هو المهدى !! وبينا هو على هذه الحال إذ وفد عليه التعايشى ، وخر ساجداً بين قدميه يتمرغ ويبكى !! وحين سأله «محمد أحمد» عن سبب ذلك قال : كان لى أب صالح من أهل الكشف وقد أخبرنى قبل وفاته أننى سأقابل المهدى ، وأكون وزيره ، فلما حضرت إليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى والدى بها ، فابتهج قلبى لرؤية مهدى الله وخليفة رسوله[٢٨] .

لقد أكد التعايشى – بهذا الكلام – وصية الشيخ القرشى ، وزكى فى نفس – محمد أحمد – الشعور بأنه المهدى ، واستطاع – بقوة شخصيته ودهائه ، دفع – محمد أحمد – إلى المسارعة بإعلان أنه المهدى .

وقد ذكر – على المهدى – أن مجىء الخليفة عبد الله ، قدم إعلان الدعوة سنتين ، ولو تأخر عشر سنوات لتأخرت عشر سنوات[٢٩] . !

وهو قول يجعل من «التعايشى» رأس هذه الفكرة والعقل المخطط لهذه الدعوة[٣٠] .

وقد حفظ محمد أحمد للتعايشى هذه اليد ، وجعله الوارث لدعوته وخلافته من بعده ، وهدد كل من يتناول أعماله وتصرفاته بالنقد « . . . . لأن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب ، لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم .. ومن تكلم فى حقه ولو بالكلام النفسى

(٢٨) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٤٤ .

(٢٩) سعادة المستهدى – هامش صفحة ٩٤ .

(٣٠) انظر فى هذا أيضا : الإسلام فى القرن العشرين – عباس العقاد ص ١٤٠ .

فقد خسر الدنيا والآخرة ، ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة »[٣١] .

وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام أن الأولياء اجتمعوا فى بيت المقدس يقولون : الحمد لله الذى أظهر المهدى وجعل عبد الله وزيره ثم وجد (أى الخضر) اجتماع الشياطين ، وهم يقولون : كان عيشنا بالغش والخداع ، فأتى المهدى وقطع علينا عيشنا ، ولولا أن عبد الله وزيره لكنا نجد فى المهدية دخولا[٣٢] .

«فحيث علمتم ذلك يا أحبابى أن الخليفة عبد الله منى ، وأنا منه فتأدبوا معه كتأدبكم معى ، فجميع مايفعله بأمر النبى ﷺ ، أو بإذن منا لابمجرد اجتهاد منه ، ولا هو عن هوى ، بل هو نائب عنه ﷺ فى تنفيذ أمره»[٣٣] .

وسواء أكان «محمد أحمد» هو «المهدى» أم لم يكن فلن يغض ذلك من قيمة الرجل الذى فجر فى السودان أكبر ثورة إسلامية فى القرن الثالث عشر الهجرى — التاسع عشر الميلادى — .

لقد بدأ ثورته ببضعة رجال مسلحين بالحراب والعصى ، ولكن مقدرته الفائقة فى إلهاب الجماهير ، وإشعال نيران الجهاد والحماس ، مكنته من هزيمة الحكومة فى كل معركة خاضتها ضده ، واستطاع وهو الصوفى البسيط .. أن يقهر خمسة جنرالات من أقوى دولة أوربية ، كان من بينهم أشهر القادة البريطانيين ، لقد استخدم المهدى الدين استخداماً مثالياً ، ومزج بينه وبين الحياة مزجاً رائعاً ، فالإسلام هو الذى قاوم ، والإسلام هو الذى جاهد ، والإسلام هو الذى انتصر فى النهاية على التعصب والصليبية .

«ومنذ وطئ الاستعمار أرض الإسلام ، كان من أهم أهدافه سحق هذه العقيدة ، أو عزلها عن الحياة والحركة ، أو تشويهها على أيدى المبشرين والمرتزقة ،

---

(٣١) منشورات المهدية ص ٦٧ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣٣) المصدر السابق ص ٦٦ .

لأنه يعلم يقينا أن الإسلام إياه ، يرفض الذل ، وقوة تحتقر الضعف ، وثورة على كل مظاهر الاستعمار والاستبداد والظلم .

إن الإسلام هو الذى حمى الوطن الإسلامى فى الشرق من هجمات التتار ومن هجمات الصليبيين على السواء ، ولو انتصر الصليبيون فى الشرق كما انتصروا قديماً فى الأندلس ، أو كما انتصر اليهود حديثاً فى فلسطين ، مابقيت قومية عربية ، ولا جنس عربى ، ولا وطن عربى ، والأندلس قديما ، وفلسطين حديثاً كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض ، فإنه لاتبقى فيها لغة ولاقومية بعد اقتلاع الجذر الأصيل .

والإسلام هو الذى كافح فى الجزائر مائة وثلاثين سنة ، وهو الذى استبقى أرومة العروبة ، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة فى اللغة والثقافة ، هنالك قام الإسلام – وحده – فى الضمير يكافح الغزاة ، ويستعلى عليهم ، ولايحنى رأسه لهم ، وبهذا – وحده – بقيت روح المقاومة فى الجزائر حتى أزكتها من جديد الحركة الإسلامية بقيادة عبد الحميد بن باديس ، فأضاءت شعلتها من جديد ، وهذه الحقيقة يعرفها جيداً الفرنسيون والصليبيون .

والإسلام هو الذى كافح فى برقة ، وطرابلس ضد الغزو الإيطالى ، وفى أربطة السنوسية وزواياها ، نمت بذور المقاومة ، ومنها انبثق جهاد عمر المختار الباسل النبيل »[٣٤] .

والإسلام هو الذى هب فى مراكش ، حين أرادت فرنسا سن قانون يعود بقبائل البربر إلى عقائدهم التى كانوا عليها قبل الإسلام ، وفصلهم عن إخوانهم المسلمين فى الشمال ، وكانت هذه المحاولة هى الشرارة التى أشعلت فى الفرنسيين النار .

والإسلام هو الذى كافح فى الهند – قبل التقسيم – وكان المسلمون دون غيرهم

---

(٣٤) المستقبل لهذا الدين للشهيد سيد قطب .

هم أبطال الجهاد ضد الاستعمار والبريطانيين .

لقد كافح الإسلام لأن عنصر القوة كامن فى طبيعته ، كامن فى بساطته ووضوحه ، وشموله ، كامن فى الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد ، وفى رفض التلقى إلا منه ، ورفض الخضوع إلا له .

ومن أجل هذه الخصائص فى الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة ، لأنه يقف لهم فى الطريق ، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية ، كما يعوقهم عن الطغيان ، والتأله فى الأرض .

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة ، ويتربصون به الدوائر فى كل ناحية ، ويفزعهم ويرعبهم قيام أية حركة تحمل لواءه ، أو ترفع شعاره ، أو تنادى بالعودة إلى شرائعه وأحكامه .

ولقد كانت حركة مهدى السودان - برغم مايشوبها من تصورات خاصة - حركة أرعبت دول الاستعمار ، وحركت فيهم كوامن الفزع والخوف ، وأرقت ليالى مطامعهم السود ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى النار والسيف .

كانت حركة تمثلت فيها كل حركات الإصلاح فى عصره فقد أخذ من حركة « محمد بن عبد الوهاب » دعوته إلى العقيدة الصحيحة ، والعودة إلى الكتاب والسنة ، والتوجه إلى الله وحده بالدعاء والعبادة . « لأن من كان يوحد الله ويرجو لقاء الله لايميل إلى شىء دونه ، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته ، لأن الله هو المحيى والمميت والرزاق والمقيت فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعاً ، أو نفعاً أو ضرًّا ، فقد ظلم بوضع الشىء فى غير موضعه ، ونسب نعمة لغير من لم ينعم ، ونسب ضرًّا لغير من لم يضر »[35] ، وكل من نظر إلى شىء دون الله ، واعتقد من قلبه أنه ينفع أو يضر ، فقد أشرك فى الحقيقة ، إذ أن كل ما سوى الله باطل ، لأنه لا قوام له بنفسه ،

(٣٥) منشورات المهدية ص ٣٠ .

فكيف يقوم به غيره[٣٦] . وقد سلك « مهدى السودان » مسلك الوهابية[٣٧] ، فى اعتبار ما عدا قطره من الأقطار التى لا تؤمن بدعوته أقطاراً غير إسلامية ، لأن الناس بظهوره تدخل فى الإسلام من جديد »[٣٨] .

وقد حرضنى رسول الله – ﷺ – على قتال الترك المخالفين لمهديتى ، وسماهم كفاراً ، بل هم أشد كفراً ، لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله[٣٩] .

وكما وقفت دولة الخلافة من الحركة الوهابية ، موقف العداء والمحاربة فكذلك فعلت هذه الدولة مع الحركة المهدية ، وكان من عجائب القدر أن الجيش الذى كلف بقمع الحركة الوهابية ، هو نفسه الجيش الذى قاوم الحركة المهدية ، كان هذا الجيش هو الجيش المصرى ، وبعبارة أدق ، جيش حكام مصر من الأرناءود والشركس ، ولقد هزمت الحركة الوهابية فى معركتها العسكرية مع دولة الخلافة ، وانتصرت الحركة المهدية فى هذه المعركة ضد الإنجليز ، والأرناءود والشركس ، إلا أن الحركة الوهابية انتصرت بعد ذلك فكرياً وعقدياً فى حين انتهت الحركة المهدية لتصبح بعد ذلك حزباً دينياً سياسياً[٤٠] .

وإذا كانت الحركة الوهابية قد أثرت فى الحركة المهدية ، فكذلك فعلت الحركة السنوسية ، لقد كان السنوسى من تلامذة محمد بن عبد الوهاب إلا أنه استطاع صياغة الحركة الوهابية فى صيغة جديدة ، وتخلى عن أسلوبها فى العنف والثورة ، واختط لنفسه منهجاً جديداً فى الإعداد والحركة ، فهو لم يشأ أن يصطدم مع دولة الخلافة ، أو يعلن تمرده على الحكام والسلطة .

---

(٣٦) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٣٧) كان هذا مسلك الوهابيين فى أول الأمر ثم عدلوا آراءهم بعد ذلك .

(٣٨) منشورات المهدية ص ٣٠٢ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٤ منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ١٦ .

(٤٠) للاستزادة من نقاط التقارب بين الحركتين الوهابية والمهدية . انظر الفصل الخاص بالمصادر السلفية فى فكر المهدى .

لقد ترك هذا كله جانباً ، وانصرف إلى البناء والتربية ، كان من أصول دعوته : تخليص العالم الإسلامي من البغضاء والفرقة ، وكان يرى أن تفرق الناس إلى مذاهب عدة ، عامل من عوامل الضعف في الأمة .. إذ أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده دون غيره ، وهل قال بذلك أحد من الأئمة ؟ فيا للعجب ! ! ماتت مذاهب أصحاب رسول الله ، وبقيت مذاهب أربع أنفس فقط من الأئمة(٤١) .

وقد وقف المهدى من المذاهب موقف الحركة السنوسية ، فالمهدى أمر : «برفع المذاهب وتطهير الأرض من الخلاف ، حتى لا يبق إلا الدين الخالص»(٤٢) .

«وما للعبد إلا الأعمال الموافقة للكتاب والسنة»(٤٣)

«والذى ينقذكم من الهلاك هو أن تتركوا معارفكم السابقة(٤٤)» .

وكانت الحركة السنوسية مهتمة بإقامة مجتمع إسلامي تتحقق فيه التربية الإسلامية الصحيحة ، ومن أجل ذلك دعت المسلمين إلى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام و.. إن أولئك الذين يمتنعون عن المهاجرة في سبيل الله ورسوله ، فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير(٤٥) .

وكذلك كانت الدعوة إلى الهجرة لإقامة الدين من أصول الحركة المهدية لأن مخالطة الأشرار تدعو إلى الشر ، ومصاحبة الفجار تدعو إلى الفجر .. ولا مخلص من ذلك إلا بالهجرة .. وفي ذلك مالا يخفى من الأدلة كتاباً وسنة ، وقد أمرني سيد الوجود ﷺ بمكاتبة المسلمين ، ودعوتهم إلى الهجرة إلى محل يكون فيه قوام

---

(٤١) السنوسية دين ودولة ص ٤٣ .

(٤٢) منشورات المهدية ص ٦٢ .

(٤٣) المصدر السابق ص ١٣ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٤٥) السنوسية دين ودولة ص ٤٧ .

الدين ، وإصلاح أمر الدارين[٤٦] .. »

وكان من العادات المعروفة عند السنوسية أن يتبرع كل فرد من أفرادها « بعمل يوم » فى الزاوية .. ومرافقها .. فتطلب من الإخوان العمل فى الزرع والتعمير والإنشاء .. وتحث التجار على دراسة الأسواق التجارية ، واتخاذ الوسائل الناجحة فى التجارة والاستثمار ، على أن يخصص قسم من هذه الأرباح للحركة ومؤسساتها العامة[٤٧] . فقد كانت الحركة السنوسية حركة متكاملة من كل ناحية ، وكان أفرادها يعيشون معاً فى إيثار وترابط ومحبة .

وقد اقتبست الحركة المهدية هذه الفكرة من السنوسية إلا أنها طبقتها بطريقة ثورية ، كعادتها فى العمل والحركة . فقد أمر المهدى بالاستيلاء على مرافئ السفن وغيرها من المرافق التى تدر أرباحاً طائلة .. لكن هذا الزمن ليس فيه أحد يبذل ماله لتجهيز الغزوات والسرايا ، وكذلك كل من وجد مالا كنزه واستأثر به ، وسعى فى زيادته ، ولا يجهز به غزوة ولا سرية »[٤٨] .

لقد كانت الحركة السنوسية إحدى الحركات الإسلامية ، التى ألهمت المهدى السودانى ، وأثرت فكره ، ولما كان السنوسيون قد أنشأوا زواياهم فى السودان الغربى ، ثم فى السودان المصرى ، وكثر أتباعهم فى تلك الجهات ، فقد رأى محمد أحمد أن يجذب إليه السنوسى لجملة أسباب .. لعل أهمها ما كان يرجوه محمد أحمد من نشر نفوذه ، وامتداد سلطانه إلى الإمارات الإسلامية فى أفريقيا الغربية ، إذا دانت له السنوسية بالطاعة ، أضف إلى هذا ما كان يرجوه محمد أحمد أيضاً من استخدام السنوسيين فى حربه المنتظرة .. وكان محمد أحمد قد بيت النية على غزو مصر وطرد الإنجليز الكفرة[٤٩] .

---

(٤٦) منشورات المهدية ص ٢٠ .

(٤٧) السنوسية دين ودولة ص ٤٨ ومابعدها

(٤٨) منشورات المهدية ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ (٤٩) السنوسية دين ودولة ص ٧٢

لقد أثرت الحركة السنوسية الحركة المهدية بالكثير من أفكارها وتعاليمها وكان المهدى حريصاً على اجتذاب السنوسى إليه كما قدمنا .

وإذا كانت الحركة المهدية قد عبرت عن الحركتين : الوهابية والسنوسية بدرجات متفاوتة .. فقد كان تعبير هذه الحركة عن «الحركة الأفغانية» أكثر وضوحاً وأكثر فعالية لقد وجدت آراء جمال الدين الأفغانى وتعاليمه ، فى الحركة المهدية فرصة نادرة ، لتنفيذها وتطبيقها ، فقد كان من رأى جمال الدين – كما يقول لوثروب ستودارد[٥٠] : إن العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مناهض للشرق على العموم ، وللإسلام على الخصوص ، وإن الروح الصليبية لم تزل كامنة فى الصدور كمون النار فى الرماد ، وجميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد هذه الشعوب جهداً خفيًا ومستمرًا متوالياً لسحق الإسلام سحقًا[٥١] .

وكان من رأي جمال الدين : الوقوف بقوة ضد الغزو الأجنبي والتدخل الخارجي فى شئون البلاد الإسلامية ، وقد خص دولة بريطانيا بالنصيب الأوفر من جهاده وهجومه ، لأن هذه الدولة – كما كان يعتقد – هى السبب الرئيسى فيما حل بالعالم الإسلامى كله ، وكان يرى أنها وراء كل مخطط يسعى لتحطيمه وتدميره .

ولم تكن عداوته للاستبداد أقل – من عدوانه للاستعمار – شراسة وضراوة ، فالشعب يجب أن يحكم نفسه بنفسه ، وكل حاكم يجب أن يقف عند حده .. فإذا لم يرعو هذا الحاكم ويلتزم حده ، وجب على الشعب أن يقول : لا بأعلى صوته !

ولما كان هدفه قيام حكومة إسلامية متحدة فقد يرى لتحقيق ذلك أولا : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها .. وتنبيهها للقيام بشئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم

وانظر فى هذا الموضوع أيضا الفصل الخاص بالتيارات الإسلامية الفصل الخاص بالفكر السلفى

(٥٠) حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٣٠٦

(٥١) المصدر السابق ص ٣١٧



محمد أحمد عبد الله المهدى
السودانى

العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين مجده .

لقد كانت حركة الأفغانى حركة ضد الاستعمار والاستعباد ، ولم تكن حركة المهدى إلا ثورة ضد هذين الوبائين[٥٢] .

كانت حركة الأفغانى ضد التدخل الأجنبى فى كل صوره وأشكاله ، وكان المهدى واضحاً فى موقفه ضد هذا التدخل بكل أنواعه ، وقد نعى على الخديو «توفيق» سقوطه فى يد «أعداء الله الإنجليز»[٥٣] واتخاذه الكافرين أولياء من دون الله ، والاستعانة بهم على سفك دماء أمة محمد[٥٤] .

وحين كتب إليه غوردون – بعد تعيينه حاكماً عاماً على السودان – يطلب منه

---

(٥٢) انظر الفصل الخاص بالجهاد والثورة .

(٥٣) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ٢٨٠

(٥٤) المصدر السابق ص ٢٨١

الاتفاق على وقف الحرب ، وفتح الطريق لزيارة قبر النبي عليه السلام وحقن دماء المسلمين[٥٥] .. كتب إليه المهدى متهكما : كيف يقوم من هو على خلاف سنة رسول الله بفتح باب زيارة قبره ؟ !

فإن كنت شفيقاً على المسلمين ، فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها باتباع دين الحق[٥٦] .

وبعد أن توفى المهدى ، وتولى التعايشي قيادة الحركة من بعده ، كتب يقول إلى الخديو توفيق في المعنى نفسه :

لقد حملتنا الشفقة عليك ، على تحرير هذا إليك . فإن كنت من أهل الغيرة على الدين ، وتريد الفوز عند ربك ، والتخلص من أسر أعدائه الكافرين ، فبادر إلى إجابة الدعوة ، واندرج في سلك أهل الصفوة ، لتكون الأمة المحمدية يداً واحدة على قطع دابر الفئة الكفرية ، أو ينيبوا لأمر رب البرية[٥٧] .

كما كتب - أى التعايشي - إلى السلطان عبد الحميد يعيب عليه موقفه ويقول له في رسالته[٥٨] : ما كان الظن بك أن تحيد عن طريق الصواب ، وترغب عن اتباع السنة والكتاب . فالعجب كل العجب من إعراضك عن إجابة داعي المهدى واتباعك لشهواتك إلى الردى ، وتمكينك للأعداء من بلاد الإسلام ، وأنت تزعم أنك والى المسلمين ، الذاب عن حرم الدين ، وما كان يجب منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتركن إلى مودتهم ومتابعتهم ، وما هذه الطاعة لأعداء الله ومتابعتهم ؟

فتذكر ذلك ، وانتشل نفسك من أوحالك ؟ .. فأجب داعينا بتسليم الأمر

---

(٥٥) منشورات المهدية ص ٣٢٠ .
(٥٦) منشورات الإمام المهدى ج ٢ ص ١١٠ .
(٥٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠١٣ .
(٥٨) المصدر السابق .

لنا ، والمبادرة إلى فعل أحد أمرين : إما جهاد الكافرين ، وإخراجهم من بلاد الإسلام كمصر وغيرها صاغرين ، وإما السعى للاجتماع بنا لنقوم جميعاً بنصرة الدين وقطع دابر القوم الكافرين[٥٩] .

وكانت قمة الإثارة فى رسائل التعايشى .. تلك الرسالة التى بعث بها إلى «الملكة فيكتوريا» والتى نقتطف تلك الأجزاء المثيرة منها :

«إلى عزيزة قومها فكتوريا ملكة بريطانيا[٦٠] .

سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد : فاعلمى أن الله عز وجل هو ملك الملوك القادر المقتدر الذى لا يعجزه شىء ، ولو أراد أن يهلك أعداءه فى أقل من خاطرة بال ، لكان جديراً بحصول مراده ولايرد بأسه عن القوم المجرمين .

وإنى أدعوك إلى الإسلام .. فإن أسلمتِ وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، واتبعت للمهدى عليه السلام .. وأذعنت لحكمى ، فإنى سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير .. وتكونين آمنة ومطمئنة لك مالنا وعليك ماعلينا .. ويغفر لك الله مافرط منك فى زمن الكفر ، وإن أبيت إلا الجحود اعتماداً على ماعندك من الاستعدادات والجنود ، فاعلمى أنك فى غرور كبير ، وبعد عن السداد والتدبير .

وإن كنت تظنين توهماً أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر — أحمد باشا عرابى — الذين أدخلت عليهم الغش بالدنيا حتى مكنوك من الاستحصال على البر المصرى ، فهذا توهم فاسد ؟ وغرور كاسد[٦١] .

ثم مما يقضى عليك .. أنك بعد أن بلغك ظهور المهدى المنتظر عليه السلام ، ومحاربة دول الترك له ، وظفره بهم فى عدة وقائع .. سولت لك نفسكِ أن فيك

---

(٥٩) جغرافية وتاريخ السودان ١٠٢١ .

(٦٠) المصدر السابق ص ١٠١٥ .

(٦١) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠١٦ .

الكفاية لحربه .. والاستيلاء عليه ، فبادرت إلى إرسال أحد رجالك المشاهير ، المدعو هكس باشا ، ومعه جيش عرمرم مؤلف من أجناس شتى وعُدد منوعة ، توهماً منك أنك ستظفرين بالنصر على جند الله الغالب ، فلما حضر ذلك الجيش ، ماثبت أمام حزب الله إلا نصف ساعة . بل قضى الله عليه بالدمار والبوار عن آخره ، وكان هلاك ذلك الرجل المدير الشجاع بسبب سوء تدبيرك وكثرة غرورك .. ولم تغن عنه كثرة العدد ولا قوة العُدد ، بل صار إلى النار وغضب الجبار[٦٢] .

ثم اعتبرت بذلك ، بل صرت تجهزين عساكرك جردة بعد[٦٣] جردة ، لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة « بسواكن » وتارة « بدنقلة » وتارة « بوادى قر » حتى أهلكت[٦٤] بسوء صنيعك من رجالك مايزيد على الألوف بسبب ذلك[٦٥] هلك كثير من رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير كالجنرال غوردون باشا .. هلك بالخرطوم .. والجنرال ستيوارت .. هلك بأبى طليح ، والجنرال ستيوارت الثانى هلك بوادى قر .. وفلان .. وفلان ومع كثرة دعواك التقدم فى مجالات الحروب .. وتفوهك بقوة البأس والشجاعة فما بال عساكرك رجعت من السودان القهقرى بالخيبة والهزيمة ؟ وكل هذا من سوء تدبيرك . واستبدادك برأيك عن باقى الدول .. ولو عملت بالمشورة[٦٦] معهم .. لأرشدوك إلى مايسكن روعك .. وكانوا إما أن يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله .. أو يمدوك بالرجال والأسلحة .. وحينئذ لايتوجه عليك العار وحدك عند حصول الهزيمة .. بل يكون ذلك بالاشتراك[٦٧] » !

---

(٦٢) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠١٦ .

(٦٣) حملة بعد حملة .

(٦٤) يقصد : قتلت .

(٦٥) فى الأصل : ومن ذلك .

(٦٦) فى الأصل : ولو رضيت الشورة .

(٦٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠١٧

لقد كانت الحركة المهدية صدى قوياً للثورة الفكرية التي أثارها الأفغاني في الشرق الإسلامي كله ، فقد حارب المهدي في ميدانين ضد الاستعمار والظلم ، وانتصر في حربه على أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ حتى هذا اليوم ، وقد عرضت بريطانيا عرش السودان على الأفغاني لتضرب به المهدي ، فرفض الحكيم الثائر هذه «الرشوة» لأن «السودان ليس لبريطانيا حتى تبيع فيه وتشترى»[٦٨].

لقد أدرك الأفغاني أبعاد هذه اللعبة فوقف ومعه الشيخ محمد عبده – وراء الحركة يؤازرانها بكل قوة.

وقد كان هذا الموقف من الأفغاني موقفاً تفرضه العقيدة والمروءة بعد أن انتقم له المهدي من الخديو توفيق ؟ إن جمال الدين لايزال يذكر هذا اليوم الذى أبعده فيه الخديو عن القاهرة وحيداً من غير رفيق !

لقد أخذ المهدي بثأره .. وكان أخذاً عزيزاً .. فقد فيه الخديو السودان بأسره.

لقد كان المهدي «أفغانياً» في شكل صوفي ، وكان الأفغاني مهدياً في طابع سياسي ، وكان الرجلان معاً ظاهرة من تلك الظواهر المشرقة في سماء الإسلام الذى يعرف متى وكيف يشرع سيفه .. ومتى وكيف ينكس للباطل رايته ورأسه ..

ولسوف يبقى اسم محمد أحمد لافتة مضيئة في تاريخ السودان .. الذى وجد فيه أمله ، وحطم به قيده ، واستعاد به روحه ، وكرامته ، وحريته ..

---

(٦٨) العروة الوثقى ص ٣٥ .

الفصل الثامن

صدى حركة المهدى السودانى

كان لحركة المهدى السودانى صدى عميق فى العالم الإسلامى كله ، لقد أحدثت هذه الحركة فى القلوب هزة عنيفة ، وكشفت القناع عن بريطانيا ، فلم تعد فى نظر المسلمين قوة مخيفة ..

لقد انحل الطلسم ، وانشق الجدار ، وظهر للعالم أن بريطانيا دخان من غير نار ، فهب المسلمون فى كل مكان ينادون بالجهاد والثورة ضد الاستعمار .

وقد ذكرت مجلة العروة الوثقى[1] أن جريدة الستاندر الإنجليزية تلقت برقية من مراسلها فى « طشقند » مفادها أنه حصل اضطراب عظيم فى أفكار المسلمين سكنة « بخارى » عندما سمعوا بانتصارات المهدى وظهر فيهم – أى أهل بخارى – داع جديد يحث على الحرب ، ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضى الإسلامية لتوسيع ممالكهم .

إن بلاد « بخارى » بينها وبين السودان مسافات متطاولة ، وأبعاد متنائية ، ويظن الناظر فى لوح الجغرافيا أن المواصلات بينهما منقطعة ، ومع ذلك فقد سرى التنافس بين القطرين فى الغيرة بغاية السرعة . فما ظنك ببلاد هى أقرب إلى مبعث الدعوة ؟

---

(١) العروة الوثقى ص ١٧٩ .

لقد كان العالم الإسلامي - كما يقول لو ثروب ستودارد[٢] . يغلي غليان الماء على النار ، وقد انفجر في «أفغانستان» بركان حقد وعداء عظيم للغرب ، فتناولت حممه مسلمي الهند ، فألهبت صدورهم إلهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الإنجليز الذين مااستطاعوا تسكين العاصفة إلا بشق الأنفس ، وركوب الهول ، وحدث مثل هذا في أواسط آسيا حيث ظهرت الطريقة «النقشبندية» فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية ، فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى في «تركستان» و «يونان» كما اشتعلت في جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتالية ، وهب رجال الدين في أفريقيا الشمالية يستنفرون المسلمين للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة مهدي السودان ، وهي الثورة التي دامت طويلا وفتت في عضد الإنجليز فتاً كبيراً .. وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وقد كانت هذه الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، وكان من أهم هذه الثورات التي زلزلت الأرض من تحت أقدام الاستعمار ثورة «المهدي محمد بن عبد الله حسن» في صوماليا ربع قرن من الزمان حمل فيها هذا البطل لواء الجهاد ضد بريطانيا ، وكان في حربه وجهاده مثال الآباء والبطولة والمثل العليا . .

لقد حارب هذا البطل في ظروف دولية صعبة ، وفي أحوال داخلية ممزقة ، وبأسلحة قديمة وقليلة ، لقد كان الوضع في الصومال مختلفاً عن السودان هذه المرة ، وإمكانيات الثورة فيه أقل مما كان في السودان حيث هبت الثورة ، والعدو الذي يحاربه لم يكن واحداً .. بل كان عدد أعدائه أربعة .

لكن .. متى كان للقلة والكثرة تقدير في موازين البطولة ؟ ومتى كان للعدد والعدة حساب في دخول الجنة .. ؟ لقد اندفع التتار كإعصار محرق من أواسط آسيا حتى اعتقد الكثيرون أنهم أمنع منالا على الموت .. فكانت صيحة «واإسلاماه» هي القضاء المبرم الذي نزل بساحتهم في عين جالوت . واندفع الصليبيون شعوباً وأمماً

---

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

يريدون مكة وفلسطين . فكانت « الله أكبر » هي القاصمة التي مزقتهم إربا على مشارف حطين ..

لقد نشأ محمد بن عبد الله حسن ، أو المهدي الصومالي . فوق هذه الأرض التي شهدت قبل مولده بمئات السنين حركة من حركات الجهاد الخالدة في تاريخ أفريقيا ..

ففي القرن السادس عشر ، وفي الصومال بالذات قام البطل الإسلامي السلطان أحمد بن إبراهيم[3] بحربه ضد الأحباش والبرتغاليين وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، ودخل الناس على يديه - في دين الله - أفواجاً ، وكان لجهاده وفتوحاته صدى - لايزال حتى يومنا هذا - حيًّا وخالداً .

وقد ألف في هذه الأحداث - العالم العربي ابن فقيه - كتابه المشهور فتوح البلدان - وهو كتاب يختلف بالطبع عن سميه الآخر الذي ألفه البلاذري ، وكانت حيازة هذا الكتاب عند الأحباش جريمة عقوبتها الإعدام لمن يثبت أنه يعرف القراءة .. والسجن المؤبد لمن يثبت جهله بها[4] !

وبالرغم من الفارق الزمني الكبير بين الرجلين ، فقد كانت روايات هذا الجهاد الذي قام به السلطان « أحمد القرين » تتناقلها الألسن والأحاديث كلما داهم بلاد الصومال خطر قريب من الجار .. أو غزو بعيد من بلاد الاستعمار .

وقد نشأ محمد بن عبد الله حسن كما ينشأ أمثاله من أبطال الجهاد ، فقد حفظ القرآن في سن مبكرة ، وتتلمذ على شيوخ الدين والعلم ، وسافر إلى مكة ليستكمل ثقافته على أيدي كبار العلماء في الحرمين الشريفين ، وكان عمره في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة .

وحين عاد إلى الصومال : التقى بالشيخ محمد صالح السوداني شيخ الطريقة

(٣) الدعوة إلى الإسلام - توماس أرنولد ص ١٣٥ - ١٣٨

(٤) مهدي الصومال دكتور محمد المعتصم سيد - سلسلة مذاهب وشخصيات ص ٨ القاهرة .

الصالحية ، فنقل إليه - أي الشيخ محمد صالح - أخبار مهدي السودان . وجهاده ضد الظلم والاستعمار ، وقص عليه من أخبار الثورة المهدية والثورة العرابية ما جعله ناراً تتأجج كراهية للظلم والاستعمار[٥] .

كان الصومال في ذلك الوقت ممزقاً بين دول الاستعمار والطغيان . فبريطانيا تحتل منه جزءاً ، وفرنسا تحتل جزءاً ، وإيطاليا تحتل جزءاً ، والحبشة تريد منه أجزاء لا جزءاً واحداً ، أضف إلى كل ذلك ، تفرق الكلمة في الداخل بسبب التنازع بين شيوخ القبائل ، ووقوف بعض مشايخ الطرق الصوفية موقفاً ممالئاً للاستعمار الغاشم[٦] .

لقد بدأت حركة الجهاد التي حمل لواءها مهدي الصومال ، بحملة واسعة أوضح فيها أهدافه من هذه الحركة ، وكان أسلوبه في الكلام أسلوباً بالغ الروعة ، وقد ساعده في ذلك ثقافته الإسلامية ، واستشهاده الدقيق بالكتاب والسنة ، أضف إلى هذا شخصيته القوية التي أضفت على منطقه وكلامه سحراً وعذوبة ، وقد وصف « الملا » هذه المرحلة من مراحل الجهاد والحركة فقال في كلمات مثيرة معبرة :

« فشرعت في استعداد سريع سري من جهة ، وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى . وكنت أدعو القبائل الصومالية للتحرر من الشك والتكاسل ، إلى اليقين والعمل ، ومن التخالف والتخاذل ، إلى التعاون والتكاتف ، ومن الخوف والهلع ، إلى الإقدام والجرأة ، ومن الاستسلام والذلة ، إلى الاستبسال والعزة . فاجتمع لدى عدد كبير من القبائل الصومالية ، فغرست في نفوسهم محبة دينهم ووطنهم ،

---

(٥) مهدي الصومال ص ٢٢

(٦) مهدي الصومال ص ٤٢

وهذا الكلام من غير شك لاينطبق على جميع الطرق الصوفية . إنها حالات شاذة فقط . وقد كان مهدي الصومال صوفياً . والمهدي السوداني صوفياً . وأكثر زعماء الجهاد والثورة كانوا من الصوفية

وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساندهم . وانطبعت معانى القرآن الكريم فى نفوسهم ، وفهموا المقصد منها . وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف . وأخذوا فى الاستعداد بالرماح والسيوف ، والبنادق القليلة[٧] .

ومرت سنوات .. والمهدى الصومالى يتحين الفرصة للدخول مع قوات الاحتلال فى معركة ، ثم حانت هذه الفرصة بإرسال بريطانيا أربع حملات مجهزة ، فقضى عليها المهدى الصومالى واحدة بعد واحدة .

بعد هذه الهزيمة الساحقة التى لحقت بالقوات البريطانية ، رأت بريطانيا أن تشرك معها فرنسا وإيطاليا فى هذه المعركة ، وقدمت للدولتين – من أجل ذلك – تنازلات كثيرة . ولم تكتف بريطانيا بفرنسا وإيطاليا فأشركت معها الحبشة فى هذه اللعبة .

فبالنسبة لفرنسا رأت بريطانيا أن تبرم معها اتفاقاً لمنع تسرب الأسلحة من ميناء « جيبوتى » إلى قوات « الملا » وبالنسبة لإيطاليا فإنها رأت فى حركة المهدى الصومالى تهديداً لممتلكاتها فى البلاد الإسلامية التى سيطرت عليها ، فقررت أن تقف بجوار بريطانيا مساعدة لها وحماية لمصالحها .

أما الأحباش فإن دورهم – فى حرب الإسلام والمسلمين – أصبح جزءاً لايتجزأ من تركيبهم العضوى . وقد وجدوا فى هذا التحالف مع طواغيت الاستعمار فرصتهم الذهبية للانتقام والثأر والتشفى .

إنها معركة غير متكافئة من غير شك .. وكان على مهدى الصومال ، أو « الملا » أن يحارب فى هذه الجبهات جميعاً . إنه قدرٌ كُتب على الأمة الإسلامية فى هذه المرحلة الحالكة من تاريخها . وقد مضى المهدى الصومالى فى طريقه غير عابئ بالتضحيات التى يتعرض لها . إنه منطق الإيمان ، ومنطق الإيمان لايضع فى حسابه قيمة للخسران والربح .. ذلك شأن التجار والسماسرة من أدعياء الحرية

---

(٧) مهدى الصومال ص ٤١

والفكر .. إنها إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ..

وكما فعل غوردون مع المهدى السودانى حين كتب إليه قائلا : إنى قادم إليك بجنود أقطع بهم أنفاسك[٨] .. فقد أرسل الجنرال «كوفل» القائد العام للقوات البريطانية هذه الرسالة إلى «الملا» :

«سننسفك نسفاً إذا لم ترجع عن غيك .. وإذا لم تخمد ثورتك الجنونية ، واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جداً .. ولايستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئاً .. فارجع عما أنت فيه ، وعد إلى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك وتندم على أعمالك السيئة»[٩] .

وقد رد عليه المهدى الصومالى قائلا :

«من السيد محمد بن عبد الله حسن قائد القوات الإسلامية الصومالية إلى الجنرال كوفل . قائد الشيطان .

قد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة ، وأغراض حكومتك الوضيعة .. واعلم أن قواتكم التى تفاخرون بها لاتساوى لدى شيئاً ، وأعلمك أيضاً أنكم إذا كنتم تحاربوننى بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد ، فإنى أقاتلكم بنيتى الصالحة ، وبإيمانى القوى ، وبعزيمتى التى لا تعرف الملل ، ومهما تكن الظروف لن أستسلم لك وأكون للشرك عبداً»[١٠] .

• • •

لقد طار صواب الاستعمار البريطانى بعد هذا الرد الحاسم .. وبدأ الجنرال «كوفل» يجمع قواته . لخوض معركة فاصلة مع هذا الأبى الثائر .

إن مأساة غوردون تتكرر هذه المرة مع الجنرال كوفل .. والغرور الذى أدى إلى

---

(٨) انظر فى هذا الموضوع فصل «الجهاد والثورة» من هذا الكتاب

(٩) مهدى الصومال ص ٤٦ .

(١٠) مهدى الصومال ص ٤٦ .

مصرعه فى الخرطوم يقود خلفه على أرض الصومال إلى المصير نفسه .

لقد بدأت المعركة .. وسقط الجنرال المغرور تحت سنابك خيول المجاهدين وأقدامهم .. وكان وقع هذه الهزيمة كوقع سابقتها - فى الخرطوم - أليماً ومريراً ومفزعاً .. وقد رأت بريطانيا بعد هذه الهزيمة سلوك طريق آخر .

إن حيلها كثيرة فى اصطياد الزعماء والمجاهدين فى العالم الإسلامى .. إن سيف المعز وذهبه مثل معروف فى التاريخ كله .. ومن يدرى فلعل الملا محمد عبد الله حسن يريد ملكاً ويريد ذهباً ..

* * *

وبدأت المفاوضات .. وكان طلب الحكومة البريطانية يتركز فى ضرورة وقف القتال وإلقاء السلاح .. وفى نظير ذلك تعترف الحكومة البريطانية بمهدى الصومال «محمد بن عبد الله حسن » ملكاً متوجاً على الصومال كله .

لقد تكرر هنا أيضاً مافعله غوردون مع المهدى السودانى بتعيينه سلطاناً على كردفان .. إن التاريخ يعيد نفسه بالرغم مما يقال .. وسنرى كيف كان رد مهدى الصومال ، كما عرفنا قبل ذلك رد مهدى السودان ..

لقد أمر رجاله أولا برد الهدايا التى بعث بها إليه نائب الملكة فى الهند . ثم وجه حديثه بعد ذلك إلى رئيس الوفد :

إننى لم أفكر فى يوم من الأيام أن أكون ملكاً .. ولم يكن ذلك هدفى لا فى الحاضر ولا فى المستقبل .. ولكن هدفى الوحيد هو أن أطرد الاستعمار من بلادى وأعيد إليها حقوقها المغتصبة .. وأطهرها من النفاق والشرك .. ولست أبالى بعد ذلك أن أحيا أو أموت(11) .

لقد فعل مهدى الصومال الشىء نفسه الذى فعله مهدى السودان .. لقد كان الزعيمان يغترفان معاً من منهل واحد ، ولم يكن ذلك المنهل إلا الإسلام .

---

(11) مهدى الصومال ص 50

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد فى المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر فى نفسه مع الشيطان .. ومع هواه وشهواته ، مع مطامعه ورغباته مع مصالحه ومصالح عشيرته .. مع كل شارة غير شارة الإسلام ، ومع كل دافع إلا العبودية لله .. وتحقيق سلطانه فى الأرض ، وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله .

• • •

نحن هنا لا نؤرخ لمهدى الصومال .. لقد ظهر الرجل فى هذه الفترة التى أعقبت وفاة مهدى السودان .. وحمل أعباء الجهاد فى وطنه ضد أربع دول من دول العدوان .. كان فى جهاده بطلا .. وكان تاريخ حياته – بالبطولة حافلا .. وقد مات فى إحدى المعارك شهيداً ..

بهذا الإيمان والاستبسال والجرأة كان يحارب المهدى الصومالى . لقد استأبى «الملا» أو «الشيخ المجنون» كما وصفه الإنجليز على كل إغراء عرفته الدنيا ، إن الرجل «مجنون» فعلا .. ولكنه جنون المحب العاشق لدينه ووطنه ، وكل المثل العليا ..

لقد أيقنت دول الاستعمار – بعد هذه المحاولات الفاشلة فى حصد شوكة الإسلام – أن القتال والسيف يزيدان جذوة الجهاد والاستشهاد فى القلوب تأججاً .

والحل الوحيد هو تجريده من هذا السلاح .. «دينيًّا»

وكانت الحركة «القاديانية» هى الحل الدينى الذى تبحث عنه بريطانيا .

لقد ولد الميرزا غلام أحمد القاديانى عام ١٨٣٩م أو عام ١٨٤٠م كان مولده فى هذا القرن الذى اشتدت فيه حركات الجهاد فى العالم الإسلامى كله . كان العالم الإسلامى – فى ذلك الوقت – أشبه ببركان يقذف حممه وقد شهدت بلاد الهند – موطن رأسه – العديد من هذه الثورات التى حمل المسلمون فيها عبء هذا الجهاد ومغارمه .

وكانت بلاد الهند - مع بعدها فى المشرق - تتجاوز مع كل صدى قريب أو بعيد من الدعوات الإسلامية فى بلاد العرب ، فسرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها فى البنغال ، واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية فاعتبرت الهند دار حرب إلى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى هذه الدعوات فى البنجاب بزعامة السيد أحمد البريلوى الذى حمل لواء الجهاد لنفس الغرض والغاية (١٢) .

وترامت إلى الهند أنباء الدعوة المهدية فى السودان ، وبخاصة بعد وقعة « هيكس »(١٣) . وانهزام القائد الإنجليزى فيها ، فقد حذر الإنجليز من مغبة هذه الدعوة ، ونشروا فى أرجاء الهند مئات الألوف من فتاوى العلماء المنكرين لها(١٤) .

وقد ذكرت مجلة العروة الوثقى - بعد تعليقها - على تلك الانتصارات التى أحرزها المهدى ضد الإنجليز أن : « هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة فى قلوب الهنديين فكشر النوابون والرجاوات عن أنيابهم ، وانتشرت أخبار المصائب التى حلت بالجيوش الإنجليزية فى جميع أرجاء الهند فترى الناس زرافات وفرادى يتناجون فى هذه المسألة ، يستطلعون سوانح الفرص . خصوصاً المسلمين فيهم ، كما أنبأتنا به الرسائل الواردة إلينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن أن الدولة الإنجليزية وعماد قوتها الإيهام والتغرير يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الأولى فى نفوس الشرقيين . خصوصاً إذا أفضت حوادث الخرطوم إلى قتل غوردون ، أو أسره . لقد أخذ الاعتقاد

---

(١٢) الإسلام فى القرن العشرين - عباس العقاد - ص ٦٩ .

(١٣) كان الجنرال « هكس » أحد القواد المشهورين فى الجيش البريطانى ، وقد كان هذا الجنرال على رأس جيش كبير مهمته القضاء على « المهدى السودانى » ولكن المهدى قضى على هذا الجيش كله . وكان « هيكس » وأركان حربه من بين القتلى انظر « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٧٢٤

(١٤) الإسلام فى القرن العشرين ص ٦٩ .

بـ « محمد أحمد » سيلا فى قلوب الهنديين . حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا فى « لاهور » أن محمد أحمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهديًّا ، وألا نفرط فى شىء مما يؤيده[15] .

وفى مكان آخر قالت العروة الوثقى :

« إن انتفاض الهند على الإنجليز فى هذه الأيام أقرب . فإن خواطر المسلمين من سكانه فى هياج شديد بسبب ما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد السودانى وبما يكن فى أهوائهم من الميل إلى تصديقه ، وتريد دولة إنجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام حتى لاتصل أخبار محمد أحمد ، وتورط الإنجليز فى مقاومته إلى مسامع الهنديين ، ولكن سيحمل هذه الأخبار إلى تلك الأقطار حجاج الأفغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة بل يبلغونها على وجه أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم[16] .

وفى « سيلان »[17] حيث كان الزعيم المصرى « أحمد عرابى باشا » منفيًّا . ذهب اللورد « روزبرى » واللورد « ماكدونالد » لمقابلته بجهة « متوال » وبعد هنيهة دار بينهم الحديث حول حركة « محمد أحمد المهدى » على النحو التالى :

اللورد روزبرى : ما رأيكم فى دعوة محمد أحمد المهدى .. وهل هو المهدى المنتظر عند المسلمين ؟

عرابى باشا : وماذا يعنيكم من أمره ؟

اللورد روزبرى : إن أمره يهمنا كثيراً . فإن لنا فى الهند ستين مليوناً من المسلمين وكلهم يعتقد أن المهدى المنتظر يجمع شمل المسلمين .

---

(15) العروة الوثقى - ص ٢٠٨ ٢٠٩ .

(16) العروة الوثقى ص ٢٨٣

(17) أصبح اسمها الآن « سيرالانكا »

عرابي باشا : إن هذا الاعتقاد يعتقده كل مسلم

اللورد روزبري : إذن ليس هو بمهدى .

عرابي باشا : كل داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدى ..

اللورد روزبري : إن الحكومة المصرية أرسلت جيشاً من عشرين ألفا لقتاله بقيادة رجل إنجليزى اسمه «هيكس» فهل ترون أن هذا الجيش يكفى للتغلب على المهدى ؟

عرابي باشا : نحن نرى أن وجود قائد إنجليزى على رأس جيش مصرى يكون من صالح المهدى . فإنه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون إخوانهم المسلمين تحت قيادة مسيحية . ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة . وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قوياً يخشى جانبه .

اللورد روزبري : أى علاج فى نظركم لإطفاء ثورته ؟

عرابي باشا : إننا نرى أنه قائم بالدعوة الدينية وعلاجها أن يرسل إليه وفداً من أجلاء العلماء يحاجونه بالبرهان ويقنعونه بالحسنى فيما جاء بدعوته[18] .

لقد ظهر المرزا غلام أحمد فى هذه الظروف العصيبة التى كانت تمر بها بريطانيا ، وأعلن دعوته التى أثارت عليه سخط المسلمين فى كل الدنيا ..

لقد كتب يقول فى كتابه «ترياق القلوب» المطبوع بقاديان فى ٢٨ من أكتوبر ١٩٠٢م بعنوان «عريضة متواضعة إلى جناب الحكومة السامية» مايأتى :

لا أزل منذ عشرين عاماً – أى فى سنة ١٨٨٢م – بعد عام واحد من إعلان المهدى السودانى ثورته – لاأزال أنشر بدافع من الحماسة القلبية كتباً باللغات الفارسية والعربية والإنجليزية والأردية أكرر فيها مرة بعد مرة أن المسلمين من واجبهم

---

(١٨) مهدى الله ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨

الذين يكونون آمنين عند الله أن تركوه .. أن يكونوا مخلصين أوفياء لهذه الحكومة ، ويكفوا أيديهم عن الجهاد .. ويتخلوا عن فكرة المهدى السفاح وما إلى ذلك من الظنون الواهية[19] .

لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وألفت فى منع الجهاد ، ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز ، من الكتب والإعلانات والنشرات مالوجمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة ، وكان هدفى دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحى من قلوبهم قصص المهدى السفاك والمسيح السفاح ، والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد ، وتفسد قلوب الحمقى[20] .

وإنى لعلى يقين بأنه بقدر مايكثر من أتباعى بقدر مايقل المعتقدون بمسألة الجهاد المقدس .. فإن مجرد الإيمان بى كالمسيح والمهدى هو إنكار للجهاد[21] .

إن العمل المهم الذى أنا منصرف إليه بلسانى وقلبى منذ أول عهدى بهذه الحياة إلى هذا اليوم وأنا ابن الستين .. هو أن أصرف قلوب المسلمين إلى طريق الحب والولاء والإخلاص والوفاء الخالص الصادق للحكومة الإنجليزية ، وأزيل عن نفوس سفهائهم الأوهام الخاطئة كالجهاد[22] وغيره .. ! إن الدنيا تعتبرنا عملاء للإنجليز .. وعندما اشترك أحد وزراء ألمانيا – فى افتتاح العمارة الأحمدية – سألته حكومته : لماذا اشتركت فى مناسبة تخص جماعة هم عملاء للإنجليز؟

والواقع .. أن الحكومة البريطانية جنة لنا .. ولاتزال الجماعة الأحمدية تتقدم

---

(١٩) ماهى القاديانية – تأليف العلامة المودودى – ص ٩٣ – ط دار القلم الكويتية ١٣٨٩هـ وانظر فى هذا أيضاً : القاديانى والقاديانية للمفكر الإسلامى أبو الحسن الندوى د ص ٩٦ . ط الدار السعودية – الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ .

(٢٠) القاديانى والقاديانية ص ٩٧ .

(٢١) ماهى القاديانية ؟ ص ٩٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

تحت ظلها .. فإذ نحيتم هذه الجنة قليلا .. فستعلمون كيف ينزل على رءوسكم مطر مخيف من السهام المسمومة .. لقد اتحدت مصالحها مع مصالحنا ، وماهلاكها إلا هلاكنا[٢٣] ؟

لقد ولد «الميرزا» في عام ١٨٣٩م أو في عام ١٨٤٠ ، وتوفي في مايو سنة ١٩٠٨ . كانت فترة من أخطر الفترات التي مر بها الإسلام في تاريخه كله هجوم من الشرق والغرب ، غزو من الشمال والجنوب ، تآمر في الداخل والخارج .. لقد أحاط الاستعمار بالإسلام إحاطة السوار بالمعصم .. وكان الحل الوحيد والأمثل .. هو الجهاد ضد هذا الغزو المسلح .

---

(٢٣) ماهي القاديانية ؟ ص ١٠١ .

وقد خطب بشير الدين محمود - بن الميرزاغلام أحمد - وخليفته الثاني في خطاب ألقاه بمناسبة زيارة أمير ويلز للهند سنة ١٩٣١م فقال :

«ياأجل ملكنا المعظم ، وولي عهد المملكة البريطانية ..

أنا إمام الجماعة الأحمدية .. وخليفة مؤسسها المسيح الموعود عليه السلام أرحب بك بالنيابة عن أفراد الجماعة الأحمدية ، وأؤكد لك بأن الجماعة الأحمدية هي ولية مخلصة للحكومة البريطانية . إن عواطف المحبة والاحترام والود التي تضمرها الجماعة الأحمدية للتاج البريطاني لايقدرها إلا الذين يكونون قد حيل بينهم وبين عزيز لديهم . بحائل من الفراق والهجران ، وبعد طول انتظار . فإذا بذلك العزيز الذي شغل حبه قلوبهم يأتيهم فيبدل الهجران بالوصال ، والبين باللقاء .. !

ياسمو الأمير المحترم ..

إن هذه الجماعة تحملت مصائب شتى على مدى ثلاثين عاماً أو أكثر بأيدي أعدائها وذويها بسبب طاعتهم وولائهم لجلالة المحترمة الملكة فيكتوريا . وبعدها جدك المعظم الإمبراطور السابق إدوارد .. ثم والدك المحترم الإمبراطور الحالي .

إن منهج هذه الجماعة منذ تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة . وأن تبتعد عن أعمال الفتنة والفساد - أي عن الجهاد وأن مؤسسها عليه السلام كان قد وضع ضمن شروط المبايعة التي لايمكن للمرء أن ينضم للجماعة بدونها ضرورة أن يتعهد الشخص بأن يطيع الحكومة القائمة .

ولهذا اجتنب أعضاء هذه الجماعة دائماً الفتنة والفساد وأصبحوا أسوة وقدوة للآخرين ..

» ماهي القاديانية .. ص ١٣ ، ص ١٤

الذين يكونون آمنين عند الله أن تركوه .. أن يكونوا مخلصين أوفياء لهذه الحكومة ، ويكفوا أيديهم عن الجهاد .. ويتخلوا عن فكرة المهدى السفاح وما إلى ذلك من الظنون الواهية[١٩] .

لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وألفت فى منع الجهاد ، ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز من الكتب والإعلانات والنشرات مالوجمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة ، وكان هدفى دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحى من قلوبهم قصص المهدى السفاك والمسيح السفاح ، والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد ، وتفسد قلوب الحمق[٢٠] .

وإنى لعلى يقين بأنه بقدر مايكثر من أتباعى بقدر مايقل المعتقدون بمسألة الجهاد المقدس .. فإن مجرد الإيمان بى كالمسيح والمهدى هو إنكار للجهاد[٢١] .

إن العمل المهم الذى أنا منصرف إليه بلسانى وقلبى منذ أول عهدى بهذه الحياة إلى هذا اليوم وأنا ابن الستين .. هو أن أصرف قلوب المسلمين إلى طريق الحب والولاء والإخلاص والوفاء الخالص الصادق للحكومة الإنجليزية ، وأزيل عن نفوس سفهائهم الأوهام الخاطئة كالجهاد[٢٢] وغيره .. ! إن الدّنيا تعتبرنا عملاء للإنجليز .. وعندما اشترك أحد وزراء ألمانيا – فى افتتاح العمارة الأحمدية – سألته حكومته : لماذا اشتركت فى مناسبة تخص جماعة هم عملاء للإنجليز؟

والواقع .. أن الحكومة البريطانية جنة لنا .. ولاتزال الجماعة الأحمدية تتقدم

---

(١٩) ماهى القاديانية – تأليف العلامة المودودى – ص ٩٣ – ط دار القلم الكويتية ١٣٨٩هـ وانظر فى هذا أيضاً : القاديانى والقاديانية للمفكر الإسلامى أبو الحسن الندوى د.ص ٩٦ . ط الدار السعودية – الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ .

(٢٠) القاديانى والقاديانية ص ٩٧ .

(٢١) ماهى القاديانية ؟ ص ٩٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

تحت ظلها .. فإذا تحيتم هذه الجنة قليلا .. فستعلمون كيف يتزل على رءوسكم مطر مخيف من السهام المسمومة .. لقد اتحدت مصالحها مع مصالحنا ، وماهلاكها إلا هلاكنا[٢٣] ؟

لقد ولد «الميرزا» في عام ١٨٣٩م أو في عام ١٨٤٠ ، وتوفى في مايو سنة ١٩٠٨ . كانت فترة من أخطر الفترات التي مر بها الإسلام في تاريخه كله هجوم من الشرق والغرب ، غزو من الشمال والجنوب ، تآمر في الداخل والخارج .. لقد أحاط الاستعمار بالإسلام إحاطة السوار بالمعصم .. وكان الحل الوحيد والأمثل .. هو الجهاد ضد هذا الغزو المسلح .

---

(٢٣) ماهى القاديانية ؟ ص ١٠١ .

وقد خطب بشير الدين محمود - بن الميرزا غلام أحمد - وخليفته الثاني في خطاب ألقاه بمناسبة زيارة أمير ويلز للهند سنة ١٩٣١م فقال :

«ياممثل ملكنا المعظم ، وولى عهد المملكة البريطانية ..

أنا إمام الجماعة الأحمدية .. وخليفة مؤسسها المسيح الموعود عليه السلام أرحب بك بالنيابة عن أفراد الجماعة الأحمدية ، وأؤكد لك بأن الجماعة الأحمدية هي رفية مخلصة للحكومة البريطانية . إن عواطف المحبة والاحترام والود التي تضمرها الجماعة الأحمدية للتاج البريطاني لايقدرها إلا الذين يكونون قد حيل بينهم وبين عزيز لديهم . بحائل من الفراق والهجران ، وبعد طول انتظار . فإذا بذلك العزيز الذى شغل حبه قلوبهم يأتيهم فيبدل الهجران بالوصال ، والبين باللقاء .. !

ياسمو الأمير المحترم ..

إن هذه الجماعة تحملت مصائب شتى على مدى ثلاثين عاماً أو أكثر بأيدى أعدائها وذويها بسبب طاعتهم وولائهم لجلالة المحترمة الملكة فيكتوريا .. وبعدها جلالة المعظم الإمبراطور السابق إدوارد .. ثم والدك المحترم الإمبراطور الحالى .

إن منهج هذه الجماعة منذ تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة ، وأن تبتعد عن أعمال الفتنة والفساد - أى عن الجهاد - وأن مؤسسها عليه السلام كان قد وضع ضمن شروط المبايعة التي لايمكن للمرء أن ينضم للجماعة بدونها ضرورة أن يتعهد الشخص بأن يطيع الحكومة القائمة .

ولهذا اجتنب أعضاء هذه الجماعة دائماً الفتنة والفساد وأصبحوا أسوة وقدوة للآخرين ..

• ماهى القاديانية .. ص ١٣ ، ص ١٤ .

وقد نهض بهذا الواجب المقدس رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . حدث ذلك فى الهند وفى بلاد الأفغان ، وفى السودان ومصر . وفى الصومال ونيجيريا وفى شرق وشمال أفريقيا . .

لقد انتفض الإسلام فى كل مكان من الدنيا .. وقد فشل الاستعمار فى بعض محاولاته حيناً ، ونجح فى أكثر هذه المحاولات أحياناً .. إلا أن الجذوة المقدسة ظلت مشتعلة ، والرغبة الأكيدة فى الجهاد بقيت قائمة ، والتربص بالاستعمار للقضاء عليه لم يفتر لحظة . لقد أصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة .

إنه جهاد يفرضه الدفاع عن العقيدة ، وجهاد يفرضه الدفاع عن الوطن .

وجهاد يفرضه الدفاع عن العرض . . وجهاد يفرضه الدفاع عن الإنسانية التى أهدر الاستعمار كرامتها فوق كل أرض .

وفى هذا الوقت ظهر الميرزا ، وأعلن دعوته التى أسخطت عليه المسلمين فى كل الدنيا وقدم الحل الأمثل الذى كانت تبحث عنه بريطانيا .

لقد كان الرجل - كما يقول العلامة إقبال - يعتقد أن بهاء الإسلام ومجده فى حياة العبودية ، وأن سعادة المسلمين فى أن يظلوا محكومين أذلاء .. إنه كان يعد حكومة الأجانب رحمة إلهية . لقد رفض الرجل حول الكنيسة ومضى لسبيله .

الفهرس

رقم الايداع	٢٠٠١/١٤١٠٨
الترقيم الدولى I.S.B.N	977-241-369-369-8

كتب أخرى للمؤلف

- الإسلام وخرافة السيف.
- الزحف إلى مكة.
- لماذا يخافون الإسلام؟
- حول العالم الإسلامي في ثلاثين عامًا.
- صوت الإسلام يرتفع من موسكو
- خطاب مفتوح إلى الرئيس الأمريكي.
- الإسلام دين الحياة.
- إجابات حاسمة على الأخت الفرنسية المسلمة.
- أبو جهل يظهر في بلاد الغرب.
- كيف أرى الله؟
- حتى لا تُخدع!
- أفيقوا قبل أن تدفعوا الجزية.
- الأزهر إلى أين؟
- رسالة إلى البابا والفاتيكان.
- التزوير المقدس.
- حوار مع طالبات جامعة «سان دي فتسن».
- حوار صريح بين عبدالله وعبد المسيح.
- الحوار بين الأديان: أسراره وخفاياه.